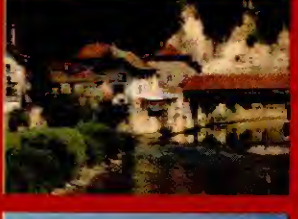


مجلة ثقافية شهرية ـ العدد ٢٧٤ ـ ربيع الآخر ١٤٢٠ هـ ـ يوليو/أغسطس ١٩٩٩ م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 274 - JUL./ AUG. 1999

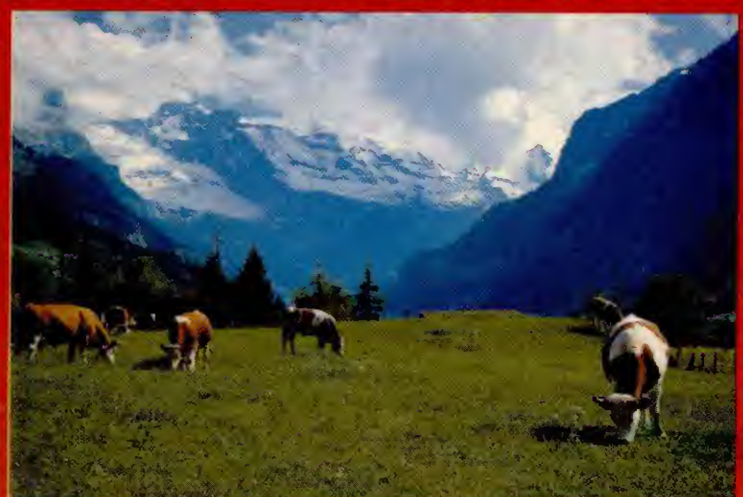
أي مستقبل للبشرية في القرن القادم؟ — مئتا عام على ميلاد بوشكين — إسهام مؤرخي الإسلام في الفلك

نحو تأصيل لمفهوم الانزياح — الصين بين التقدم العلمي والتدهور الاقتصادي — جهاز المناعة: مكوناته وأسراره











سويسرا: عناق الجمال والحضارة

في جميع مساعيها

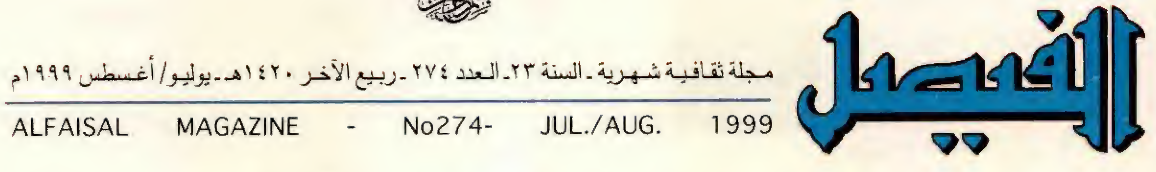
حرصت الفيصلية على تكريس جل جهودها وإمكاناتها لتحقيق هدف واحد. هو كيفية تطوير سبل الحياة في شتى ميادينها والإرتقاء بها إلى أفضل المستويات. ولتحقيق هذا الهدف فقد أقامت الفيصلية شراكات راسخة مع بعض من أشهر الماركات التجارية في العالم.

ففي منازلنا. نجد سوني SONY قد ساعدتنا في تعزيز أسلوب حياتنا اليومية على نحو أكثر متعة وإثارة. بينما نجد ميجاستار أكبر شركات الموسيقى في الشرق الأوسط قد منحتنا البهجة والسعادة بما تقدمه لنا من فنون أصيلة وموسيقى راقية. أما في مكاتبنا ومدارسنا ومنازلنا. فنجد أن hp HEWLETT PACKARD تواصل باستمرار تقدمها لتحقيق التميُّز النوعي في مجال أتمتة المكاتب. والتعليم والثقافة والمعرفة. والإستفادة القصوى من تقنية المعلومات بواسطة الكمبيوتر. كما نجد أن مئات الآلاف من الأسر في كافة أرجاء المملكة العربية السعودية تفضل حليب ومنتجات الصافي AL SAFI الطبيعية التي توفرها لهم أكبر وأضخم مزرعة ألبان متكاملة في العالم. وفي محلات السوبرماركت والزهور نمدكم بأرقى أنواع الورود والزهور الطبيعية والخضروات الطازجة التي يتم زراعتها بواسطة مؤسسة الفيصلية الزراعية. وفي مجال وقود السيارات نجد شركة Ethyl الرائدة عالمياً في صناعة المواد الكيميائية تقوم بانتاج المواد المضافة ذات الجودة العالية التي يتم استخدامها في تحسين وقود السيارات. كما نجد أن المستشفيات والمستوصفات الطبية تعتمد بدرجة كبيرة على كفاءة أجهزة TOSHIBA Medical Systems الطبية في أغراض التشخيص وغيرها من الأمور الطبية. فمن أجهزة التسلية وأنظمة الكمبيوتر والصناعات الكيميائية إلى منتجات الألبان الطازجة والخضروات والزهور الطبيعية. كرسنا جهودنا وسخرنا إمكاناتنا لنحقق التميُّز والهدف المنشود.




شارع العلياء العام - مركز النمر التجاري. ص . ب ١٦٤٦٠ الرياض ١١٤٦٤ المملكة العربية السعودية - هاتف: ٤٦١٠٠٧٧ - فاكس: ٤٦٤٠٤٩٨





مجلة ثقافية شهرية - السنة ٢٣ - العدد ٢٧٤ - ربيع الآخر ١٤٢٠هـ - يوليو/ أغسطس ١٩٩٩م
ALFAISAL MAGAZINE - No274- JUL./AUG. 1999

المحتويات



الرسم المصحفي

هل الرسم المصحفي توقيفي؟ سؤال اختلف حوله العلماء، ففريق منهم يرى أنه توقيفي لا تجوز مخالفته، لأن للرسم العثماني أسراراً، بينما يرى فريق ثان أن رسم المصاحف اصطلاحي لا توقيفي، وعليه فتجوز مخالفته، وذهب فريق ثالث إلى أنه يجوز بل تجب كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة الشائعة.



سويسرا: عناق الحضارة والجمال

سويسرا بلد لم يخض حرباً منذ ثلاثمئة عام تقريباً، ومع ذلك يولي اهتماماً كبيراً بتدريب جيشه وتجهيزه، ومن أسباب ذلك أن المجتمع السويسري يحب العمل، ويحرص على إتقانه، ويعد لكل شيء عدته، وتشهد سويسرا حركة نشيطة استعداداً لاستقبال القرن القادم عن طريق تجديد المطارات والاتصالات والمواصلات والبنية التحتية كاملة من دون أن يؤثر ذلك في الحياة اليومية للمواطن والسائح.



أي مستقبل للبشرية في القرن القادم؟

حققت البشرية تقدماً هائلاً في هذا القرن على مستوى التقنيات في مختلف المجالات، ولكن ذلك لم يحقق رفاهيتها، وإنما اتسعت الهوة من حيث مستوى المعيشة بين البلدان النامية والمتقدمة.

وأسهم هذا الواقع المؤلم في بروز مدرسة علمية تسمى بالمدرسة الكونية ترى أن البشرية لم يبق لها لبلوغ نهايتها أكثر من ستين أو ثمانين سنة، بينما هناك مدرسة متفائلة ترى إمكان حل مشكلات العالم بجهود مشتركة وفعالة، فمن نصدق: المتشائمين أم المتفائلين؟



الصين بين التقدم العلمي والتدهور الاقتصادي

الصين: هل ستصبح قوة عظمى ثانية في القرن الحادي والعشرين؟ سؤال يطرحه العالم اليوم، وقد لفت الانتباه ما حققته من تقدم علمي متزايد في السنوات الأخيرة. كما أن هناك سؤالاً آخر عن مدى استطاعة الصين تجاوز الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها الدول الآسيوية المجاورة لها.

وإذا نجحت في ذلك، هل يمكن أن تصبح يابانًا تجارياً بحجم أكبر إلى جانب قوتها العسكرية؟



على ناصية الطريق

عندما زار الرحالة الإنجليزي ويلفرد تسيجر جنوب الجزيرة العربية منذ نصف قرن ذكر أنه شعر بالتواضع أمام الرعاة الأميين لما وجدهم عليه من كرم وشجاعة وقدرة على التحمل والصبر والمروءة، ما لا يمكن له أن يدعيه.
ولكن هل لا يزال ذلك النبل الذي أسر تسيجر بالقدر ذاته، وهل لو عاد هذا الرحالة إلى المنطقة مرة أخرى سيكون لديه الانطباع نفسه؟



السلحفاة: حياة عمرها مئتا مليون عام

تنتمي السلحفاة إلى الزواحف، ويقال إنها عاشت على الكرة الأرضية منذ مئتي مليون عام، واكتشف منها نحو ٢٤٠ نوعًا إلى اليوم، فمنها سلاحف المياه العذبة، وسلاحف اليابسة، والسلاحف البرية، وتوضح البحوث العلمية أن السر في حياة السلاحف الطويلة قد يرجع إلى بطء عملياتها الحياتية، وطبيعة استقلاب أجسامها الذي يختلف إلى حد ما عن استقلاب بقية الكائنات الحية الأخرى.



ظاهرة السكن العشوائي في المدن العربية

تشير الدراسات العلمية إلى أن ٣٠ - ٥٠٪ من سكان المدن العربية تعيش في ظروف سكنية غير ملائمة، إذ بات كثير من هذه المدن محاطًا بأحزمة من السكن العشوائي الذي يجرف في طريقه أراضي زراعية قيمة، والذي يوجد بيئة تنتشر فيها آفات اجتماعية وصحية تهدد المجتمع، فما أسباب المشكلة؟ وما حلها؟



جهاز المناعة: مكوناته وأسراره

يتعرف الإنسان في أثناء حياته الجنينية أنسجة جسمه بشكل كامل يمنعه من رفضها على أنها أجسام غريبة عنه، ولكن قد يفقد الجسم هذه النعمة العظيمة لسبب من الأسباب المرضية، فيتعامل مع بعض أنسجته على أنها كائنات دقيقة غريبة، ويقوم بتكوين أجسام مضادة تعمل ضد هذه الأنسجة.
هذا واحد من عجائب الجهاز المناعي وأسراره التي لا تعد ولا تحصى.



الداياتومات: مصنع الحياة في المحيطات والأنهار

من غرائب الحياة المائية أن هناك أنواعًا من الأسماك والأحياء المائية التي يلاحظ الإنسان أنها لا تتناول أي نوع من الطعام، وقد حيرت هذه الظاهرة صاحب نظرية التطور تشارلز داروين، ولم يعرف هذا اللغز إلا بعد ابتكار مجهر المسح الإلكتروني، إذ تبين وجود أنواع من

الأسماك والحيتان والأحياء المائية القادرة على فصل كميات هائلة من الطحالب المجهرية المعروفة بالدياتومات من مياه البحار والأنهار لتحصل منها على المصدر الوحيد لغذائها.



مئتا عام على ولادة شاعر روسيا الأول

كان بوشكين ابن أسرة نبيلة، فتربى تربية فرنسية، حتى إنه كان محرومًا في طفولته من الحديث باللغة الروسية، ولا يفقه فيها شيئًا، ولكنه أصبح فيما بعد، الأب الروحي لهذه اللغة، والمرجع الرئيس فيها، وعده النقاد رائد الواقعية الروسية التي ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين، وترك - على الرغم من عمره القصير (١٧٩٩ - ١٨٣٦م) - كمًا هائلاً من المؤلفات الأدبية في ميدان الشعر والنثر، وتحتفل روسيا في هذا العام بمرور مئتي عام على ميلاده.



نحو تأصيل لمفهوم الانزياح

الانزياح فيصل بين الكلام الفني والكلام غير الفني، هذا مايقوله الأسلوبيون، وهو مفهوم يتسع أكثر من كونه ظاهرة أسلوبية تخص النص الأدبي فحسب، ليمثل ظاهرة كونية، استنادًا إلى أن الحياة تطور متلاحق في أكثر من اتجاه، تطور لا يمكن لحاقه، ولا تحديده، وهذا ما يجعل حظ المتحرك في البقاء أعظم من حظ الثابت لأن المتحرك يشارك الزمن في صفة من صفاته، وهي التغير.



النظرة العنصرية ضد العرب في الأدب العبري الحديث

يصف المفكرون والكتاب الصهاينة العرب بالوحوش والمنحطين وغبار الإنسانية، ويروجون فكرة أن العرب أينما وجدوا توجد الصحراء واللون الأصفر، ويدعون أن فلسطين كانت أرضًا خربة، وهناك ادعاءات ومزاعم أخرى كثيرة تنطلق من مسلمات الفكر العنصري الأوربي لتسويغ استعمار فلسطين، وأن اليهود جنس أسمى وأرقى من العرب، وأنهم جاؤوا ليقودوهم في مدارج الرقي والتقدم.



إسهامات مؤرخي الإسلام في علم الفلك الحديث

تزخر المكتبة العربية بكم هائل من كتب التاريخ الإسلامي التي تورد الأخبار والحوادث، إلى جانب اهتمام المؤرخين بذكر كل الأحداث الغريبة، ومن بينها بعض الظواهر الفلكية، إذ تضمنت حولياتهم وصفًا للمذنبات والأجرام والشهب والنجوم، ونالت ظاهرتا كسوف الشمس وخسوف القمر تسجيلاً شبه منتظم في تلك الحوليات.



الناشر: دار الفيصل الثقافية

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتَّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات - الكويت ٦٥٠ فلس - الإمارات ٧ دراهم - قطر ٧ ريالات - البحرين ٧٥٠ فلس - عُمان ٧٥٠ بيسة - الأردن ٥٠٠ فلس - اليمن ٦٠ ريالاً - مصر جنيهان - السودان ١٥٠ جنيه - المغرب ٨ دراهم - تونس دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - العراق ٤٠٠ فلس - سورية ٣٠ ليرة - ليبيا ٨٠٠ درهم - موريتانيا ١٠٠ أوقية - الصومال ٢٠٠٠ شلن - جيبوتي ١٥٠ فرنك - لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية - الباكستان ٢٠ روبية - المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الإعلانات:

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: **يحيى محمود بن جنيد**

مدير التحرير: **عبدالله يوسف الكويليت**

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢

ردمد ١١٤٠ - ٠٢٥٨

درس جديد أم علم مستحدث أم ثقافة واعدة؟

قد أكون غير منصف إذا قلت: إن الدرس الجديد علم جديد، أو ثقافة واعدة، أو أدب جديد، ولماذا هو جديد؟ جديد لدلالته الظاهرة، وإثباته البيّن أن إدارتكم الجديدة قد عمدت إلى منطق عقلاني إسلامي صرف ... إنكم لا يهمكم المديح والثناء بقدر ما يهمكم اغتنام رجع الصدى، وكأنكم تنتظرون سيوف الانتقادات الداهمة لبرنامجكم التنظيمي المستحدث في تخطيط دوريتكم، خروجاً عن التنميط الذي سنه إداريو الفيصل، واستمروا عليه عدة سنين.

لقد حدث لقرائكم نوع من الاغتراب الثقافي الناتج من خروج المجلة عن المألوف الذي أنسوه سنين عدة ... لا أناقشكم في إستراتيجيتكم الجديدة، وأقف موقف المحايد، فلا أستطيع نكران المعلوماتية الرفيعة المستوى، التي كان وراءها العالم الفذ د. زيد بن عبدالمحسن الحسين في رئاسته السابقة ... ولا يمكنني التقليل من أسلوبكم الجديد القائم على التطوير الموضوعي والشكلي، فالواقف ضد التطوير لا موقع ولا مكانة له في عالم شديد الاتصال كثيف المعلومات.

سيل جارف من الطعون، وتنديد شديد الحدة أحياناً، وهجوم كاسح ضد نظامكم الجديد، فأجدكم تنشرون الرأي الآخر بالكلم والنقطة والجملة تفصيلاً ... بل تمنحون الطعون والنقد أولوية النشر على المدح والثناء.

بالله عليكم ... من أين أتيتم بهذه الثقة؟ من أين أتيتم بهذا النموذج العقلاني؟ هذا هو ما أقصده بالدرس الجديد ... درس في أصول البث الإحيائي للنشاط العلمي والثقافي.

لقد أتيتم - لا مناص - بثقافة جديدة، هي ثقافة الثقة بالنفس، ثقافة الأمانة والصدر الرحب، ثقافة النقد القائمة على تعرف النفس من خلال رأي الآخرين من دون تزلف أو مراءاة.

إن هذه الأسلوبية لم أجدها في ٢٧ مجلة شهرية، وفصلية محكمة على مستوى وطننا العربي والإسلامي، أقرؤها وأكتب لقرائها. من هنا أرى وأؤكد أن هذه المثالية النادرة قد وضعتكم في أعلى القمم وأرفع منازل العلم، ومن ثم أشهد بتفوقكم وأتوقع تعاظم التفوق مستقبلاً، لأن بدايتكم جاءت صحيحة صحية، أجريتم التغيير في المجلة وأنتم ناظرون متابعون لرجع الصدى... ذلك أنكم قد تواضعتم التواضع الذي رفع الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، يطلب من رعاة الأمة تقويمه من اعوجاجه إن حصل، وحمد ربه أن وجد فيهم من يهدده بتقويمه بسيفه.

حفظكم الله، وأنار بصيرتكم وهدى من دونكم إلى طريقكم.

د. رضا عبدالحكيم إسماعيل رضوان
مديرية أمن الشرقيه - الزقازيق - مصر

إضافات على الباراسايكولوجيا

تحية طيبة، وبعد، فقد قرأت في العدد ٢٧٠ من مجلتكم الراقية، وقد وصل إلى دمشق قبل أيام، موضوعاً عنوانه «الباراسايكولوجيا المعاصرة والظواهر الخارقة»، فلاحظت أن فيه نقصاً واضحاً بصفته مادة علمية تتصل بهذا المجال من البحث الجديد. فلقد مرّ سريعاً - على سبيل المثال - على ما هو معروف باسم: «الإدراك فوق الحسّي Extra Sensory Perception» كما أنه مرّ بالسرعة ذاتها على عناوين غاية في أهميتها من دون توضيحها، بما يقتضيه واقع الدراسة الأكاديمية، أضف إلى ذلك أنه أدخل تحت ذلك العنوان ما لا علاقة له ألبتة بالموضوع، وهو ما دعاه الباحث الكريم السيد جمال نصار حسين: «الدرباشة» ...إلخ.

فإذا رأيتم مناسباً أن أدلي بدلوي في هذا الموضوع - ولي محاضرة ضافية حوله ألقيتها أخيراً في دمشق وهو يدخل في دراستي الجامعية: الفلسفة وعلم النفس - فأرجو التفضل بإعلامي. ولكم الشكر والفضل سلفاً.

نصر الدين البحرة
ص.ب: ٥٤٥٣ - دمشق - سورية

التحرير:
نشكر لكم ملاحظاتكم، ونأمل موافاتنا بما لديكم حول هذا الموضوع، لنحكم على مدى مناسبته للنشر، وفق الضوابط المعمول بها في المجلة.

معلومات تنمي العقول والأفكار

في يوم من الأيام زُرت زملائي بمدينة جاكرتا لقضاء العطلة المدرسية، ولما دخلت البهو، وجلست فيه وضع الصديق أنواعاً من الكتب بين يدي، فتناولتها واحداً بعد واحد لأقرأ ما فيها فأسرتني الموضوعات التي تناولتها المجلة لأنها تزيد المعلومات وتنمي العقول والأفكار.

وأرسل إليكم هذه الرسالة أملاً في جودكم لترسلوا إليّ الكتب التي أحتاج إليها في مجال الدعوة الإسلامية ككتب التوحيد، والتهذيب، والفقه، وغيرها، التي تنفعني وإخواني من عامة المسلمين.

وفي الختام أرجو من المولى الكريم أن يزيدكم بنعم لا تُعد ولا تُحصى، وأن يجزيكم الثواب، والله ولي التوفيق إنه جواد كريم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

موري سوسندي
طالب المدرسة العالية الدينية الحكومية الخاصة
كوتوبارو - بادنج بانجنج - سومطرا الغربية - أندونيسيا

التحرير:
نشكر لك إطراءك على المجلة، ونفيدك وجميع الإخوة الذين لديهم طلبات مماثلة أنه يبدو صعباً إجابة طلبات الإخوة القراء جميعهم، ولكننا نحاول قدر الإمكان أن نقدم لهم - ما نستطيع - أعداداً من المجلة، مع بعض الإصدارات التي قد تتوافر لدينا.

ندرة وحصار!

لقد قوي - لديّ - في الآونة الأخيرة - الميل إلى المطالعة والشغف بالقراءة، ولا سيما فيما يتصل بالوعي والثقافة الإسلاميين، وجانب من العلوم الشرعية.

ولعل من أبرز وسائل التثقيف في هذا العصر المجلات التي صارت تنافس الكتاب وتنازعه، ويتزايد قراؤها والمولعون بها يوماً بعد يوم، وخصوصاً إذا تميزت بثراء مواضيعها، ورصانة أسلوبها، ومسايرتها لروح العصر، غير أن المعضلة التي تعترض كثيرين ممن يرغبون في اقتناء مجلة كالفيصل هي أن الساحة الإعلامية

صارت تعج بمجلات وصحف تتسم بالرداءة والميل إلى الإسفاف والابتذال، والافتنان بأساليب الإغواء بقصد تسميم فكر القارئ، وإفساد فطرته... أما المجلات ذات المستوى الرفيع، النبيلة في مقاصدها الأصيلة في روحها، الثرية بمواضيعها فهي مغمورة وسط هذا الركام الهائل من مجلات الرداءة وصحفها، ويعترض الوصول إليها عقبات كأداء، إلى جانب ضيق ذات اليد، وعدم القدرة على اقتنائها بالأسعار التي تعرض بها في السوق، كما أن بعض هذه المجلات تتسم بالندرة إلى جانب الحصار المضروب عليها كي لا تعرف طريقها إلى أيدي محبيها.

لهذا كله رأيت أن ألتمس منكم تزويدي بكل المعلومات التي تخص مجلتكم، وكيفية الاشتراك فيها، وقيمة الاشتراك. وهل بإمكان المشترك أن يدفع بعملته المحلية أم لا؟

في انتظار ردكم راجياً أن يحظى طلبي هذا بحسن عنايتكم.

وتقبلوا مني فائق الاحترام والتقدير.

محمد أمين بن محمد رابعي

طالب بالصف الثاني الثانوي - شعبة آداب - الجزائر العاصمة

التحرير:

نحيي فيك هذا التوجه إلى الاستزادة من المعرفة، وحرصك على التمييز بين الغث والسمين من المجلات المطروحة في السوق، أما الاشتراك السنوي للفرد في مجلة الفيصل فقيمته ١٥٠ ريالاً، أو ما يعادلها بالدولار، وترسل بشيك مصدق لأمر مجلة الفيصل أو إيداعها في حساب المجلة بالبنك السعودي البريطاني رقم ٠٠١-٥٥٥٠٥٠-٠٠٤ شارع العليا العام - الرياض.

عتاب!!

بداية أوجه لكم الشكر الجزيل على جهودكم في إصدار مجلة الفيصل بشكلها الجديد والمفيد، ولا أعرف إن كان قد تغير شكل التعاون والرد منكم، فمثلاً في الماضي عندما كنت أرسل مادة ليتم نشرها في المجلة، كان يصلني الرد بعد فترة من المجلة باستلام المادة، ثم يصلني بعد فترة أيضاً الرد بعدم النشر إذا كانت غير صالحة، وإشعار بمناسبتها للنشر إذا نالت الاستحسان.

ولقد أرسلت لكم بتاريخ ١٩٩٨/١٢/١٧م مادة بعنوان «أسس المقالة الإسلامية»، ولم يصلني أي رد منكم باستلام المادة، أو الاعتذار عن النشر أو غير ذلك.

وأرسلت لكم رسالة أخرى بتاريخ ١٩٩٩/٣/٢م وضمن الرسالة عرض لكتاب عن العولمة، وأيضاً لم يصلني منكم أي رد.

لذلك أرسل لكم رسالتي هذه لإعلامي هل وصلت المواد التي ذكرتها لكم وجزاكم الله كل خير على جهودكم وتعاونكم سلفاً.

وأطلب من سعادة رئيس التحرير التكرم بإهدائي كتابه المنشور عام ١٩٨٨م «الوقف وبنية المكتبة العربية»، كما أطلب منكم تزويدي ببعض المقالات المنشورة في مجلة الفيصل الخاصة عن الوقف، وجزاكم الله كل خير على جهودكم، وتعاونكم، وأنتظر ردكم حتى في حالة اعتذاركم عن مساعدتي وتلبية رغبتي في الحصول على كتابكم؛ لأنني بحثت عنه في كل المحلات والمكتبات، ولم أستطع الحصول عليه.

وأطلب منكم العدد الأخير من مجلة الفيصل، ولكم الشكر الجزيل على جهودكم في نهاية المطاف.

أكرر تحياتي وسلامي إليكم، وإلى جميع العاملين على إصدار مجلة الفيصل، ولكم الشكر الجزيل وتفضلوا بقبول فائق التقدير والاحترام.

أنور أحمد ناظر

سورية - حلب - ص.ب: ١١٦٥٥

التحرير:

لم يتغير أسلوب الرد على الكتاب عن ذي قبل، وقد أرسل إليك رد على مقالتك «أسس المقالة الإسلامية» التي أشرت إليها بتاريخ ١٢ رمضان ١٤١٩هـ، وهو يفيد بعدم مناسبتها للنشر.

أما مقالتك الثانية «عرض لكتاب عن العولمة»، كما ذكرت في رسالتك، فهي - للأسف - لم تصلنا.

ردود سريعة

الأخ نشوان عبدالوهاب آدم - ٢٨٧ جامعة إب - اليمن:

نشكر لك ثقتك بمجلتك «الفيصل»، وسوف تصل إليك بعض الأعداد القديمة، لعلك تستفيد مما فيها في بحوثك الجامعية.

الأخ ع. الصانع - كلية العلوم - جامعة الملك سعود:

يمكنك الاتصال على قسم الاشتراكات بالمجلة لتحصل على ماتريده من معلومات عن طريقة الاشتراك، وقيمة الأعداد التي تحتاج إليها مادمت تقطن في الرياض، ولا يمثل الاتصال الهاتفي مشكلة بالنسبة إليك، ورقم الهاتف، ٤٦٥٢٢٥٥، والتحويلة الداخلية رقمها ٦٦٢٤، وعموماً، أحيلت رسالتك إلى هذا القسم لإجراء اللازم لتلبية طلبك.

الأخ إبراهيم رباط السماوي - رفحاء:

نشكر لك وصف المجلة بالمعين العذب، وثقتك بالقائمين عليها، وتقديراً لما تعايشونه من ظروف، فإننا سنحاول إرسال بعض الأعداد القديمة إليك، ونرحب بمشاركاتك الشعرية، ولعلها تجد طريقها إلى النشر.

الأخت نوهرالي - إم - كلية أنوار الإسلام العربية للبنات - كيرالا - الهند:

سرنا ماجاء في رسالتك عن الكلية وغاياتها، والتي نأمل أن تبلغها، وجميل أن يتخرج فيها ٨٠٠ فتاة مسلمة يقمن بالدعوة إلى الله بين النساء، ويسعدنا أن نرسل إليها بعض أعداد المجلة، وكنا نأمل أن نستطيع دعم هذا الجهد الذي تُشكرين عليه بأكثر من ذلك.

الأخ سي أحمد ناصر - غليزان - الجزائر:

ترحب المجلة بمشاركات جميع الإخوة القراء، ونفيدك أن الموضوعات المرسلة إليها تخضع إلى تحكيم علمي لإجازة المناسب منها للنشر، كما يعتذر كتابياً إلى الذين لا تقبل موضوعاتهم، وتشجيعاً لك سوف نرسل إليك بعض أعداد المجلة، لعلك تجد فيها ما يفيد.

الصين بين التقدم العلمي والتدهور الاقتصادي

أبو بكر خالد سعدالله

إذا كانت الصين تعرف تقدماً علميًا متزايداً منذ عدة سنوات، فإن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بالجانب الاقتصادي. لقد بدأت بعض الأنظار تتجه مؤخراً نحو هذا البلد بعد الأزمة المالية التي ضربت جيرانه الآسيويين. ويتساءل الجميع هل الصين قادرة على الخروج من هذه الأزمة كقوة اقتصادية عظمى أم إنها ستخرج منها منهكة لا تقوى على سد رمق أبنائها لمدة طويلة؟ من يستطيع اليوم تفنيد ما ذهب إليه بعضهم عندما أكدوا أن المستهدف الأول من تحريك الأزمات الاقتصادية في آسيا هو في آخر المطاف الصين؟



الصين تغطي الخضرة أغلب أراضيها

لم تعد الصين منشغلة بالعمق الأيديولوجي كما كان الحال أيام الزعيم ماو تسي تونغ. فما تضعه الصين اليوم على رأس قائمة الأولويات، هو الحفاظ على الوحدة الوطنية، واستعادة مجدها بفرض نفسها قوةً عالمية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وعلميًا. والعالم الخارجي ليس الوحيد الذي يسأل هل الصين



منظر من المناظر التي تدل على أن الصين دخلت عهدًا تنمويًا جديدًا

ستصبح، خلال القرن الحادي والعشرين، القوة العظمى الثانية؟ بل إن المواطن الصيني والسلطة صارا يعبران باحتشام عن هذا الطموح. ففي الماضي القريب، كانت السلطات تركز في الخطب الرسمية على حالة الفقر التي تعرفها البلاد. أما اليوم فهي تخطط لإخراج البلاد من نفق التخلف وبلوغ مرتبة القوى العظمى بعد عشرين سنة أو تزيد.. وربما صادف ذلك الذكرى المئوية لتأسيس جمهورية الصين الشعبية، أي في منتصف القرن القادم.

هل تصبح الصين يابانًا؟

وتكفي الإشارة، فيما يخص القوة العسكرية، إلى الزيارة التي قام بها الرئيس الأمريكي بيل كلينتون إلى الصين في منتصف العام الماضي. إنها زيارة يفسرها الملاحظون على أنها تعني بأن الصين وصلت مستوى من القوة العسكرية يفرض على أمريكا سلوك طريق التعايش معها بدل المواجهة. ومن المؤشرات الأخرى، عدد موظفي معهد الطاقة الذرية الذي يصل إلى ٤٠٠٠ عامل؛ ولا ينوي مدير هذا المعهد تسريح أي عامل على الرغم من الاتجاه العام للبلاد القاضي بتقليص عدد الموظفين، كما سيأتي لاحقًا. وعلى كل حال، فالخبراء الصينيون يدركون جيدًا أن المؤثرين الحقيقيين في السياسة الأمريكية نحوهم هي كبريات الشركات، مثل بوينغ، وفورد، وجنرال الكتريك، إلخ.

وقد يكون من الخطأ أن نقارن الخلافات التي تنشب بين الولايات المتحدة وأوروبا بالخلافات بين الولايات المتحدة والصين. فالخلاف مع أوروبا يسوى في إطار التكامل على المدى البعيد، وعلى أساس التوازن في المبادلات، والتداخل في الاستثمارات. أما الخلاف مع الصين فهو أشبه بالخلافات المتكررة التي تقوم بين أمريكا واليابان والمتميزة بطابع الديمومة. والواقع أن ما يخيف بعض الدول هو أن تصبح الصين «يابانًا تجاريًا» بحجم أكبر.. إلى جانب قوتها العسكرية.

تعطش عن التعليم

لقد سجلت الصين في المدة الأخيرة تقدمًا علميًا لفت إليه أنظار البلدان الغربية. ونتج من ذلك بداية إصلاح عميق للتعليم العالي والبحث العلمي. وتبيّن تقارير البنك الدولي أن الجامعات الصينية، التي يزيد عددها على ألف جامعة، تتحول بسرعة كبيرة. وأصبح نظام الانتقاء متشددًا



معهد الطاقة الذرية الذي يشغل ٤٠٠٠ عامل



مدينة شانغهاي، نيويورك الصين، التي قصدها ١٥٠٠٠ طالب من جملة تسعين ألفا عادوا من الخارج بعد إنهاء دراستهم

وشبيهاً بذلك المتبع في اليابان وكندا. وعلى سبيل المثال فإن نسبة الطلبة الذين يواصلون دراستهم بعد شهادة الليسانس لا تزيد على ٤٪. ولعل أوضح دليل على هذا التقدم عودة تسعين ألف طالب من الخارج، خلال السنوات الخمس الماضية، بعد أن أنهوا دراساتهم العليا. وللموازنة، نشير إلى أن عدد الطلبة الصينيين بالولايات المتحدة وحدها يقارب خمسين ألف طالب. أما عدد الطلبة الذين غادروا البلاد منذ انفتاح الصين، عام ١٩٧٨م، فيقدر بحوالي ثلاثمئة ألف طالب جلّهم يتابعون دراستهم على حسابهم الخاص، حيث


جامعة العلوم والتكنولوجيا بهونج كونج التي دشنت سنة ١٩٩١م، وهي تسعى إلى أن تكون قطباً علمياً في آسيا

إن الدولة أوفدت ٤٤٠٠٠ طالب للدراسة بالخارج عاد منهم ٣٥٠٠٠ طالب.

ومن المعلوم أن الصين اتخذت منذ ١٩٨٥م إجراءات جديدة فيما يخص نظام الدراسة، والمنح الدراسية. وهكذا صار الطلبة يدفعون حقوق الدراسة، ولا تخصص المنح إلا للطلبة المعوزين. وفي بعض الحالات تدفع الدولة منحاً للطلبة على شكل سلفة يعيدها الطالب بعد التخرج. وبهذا الشأن، منحت السلطات العليا صلاحيات واسعة لرؤساء الجامعات لتحديد المستفيدين من المنح والمبالغ التي تمثل حقوق الدراسة، إلخ...

وصلاحيات رئيس الجامعة لا تتوقف عند هذا الحد، بل يمكنه أن يوظف من يشاء من سلك التعليم وغيره، ويوقف راتب الأستاذ أو يضيف إليه علاوات تضاعف راتبه أحياناً ثلاث مرات. وباستطاعة رئيس الجامعة أيضاً إنشاء اختصاص علمي من جامعته أو إزالته.

عدم الاستقرار مشكلة تواجه الجامعة

وأكبر مشكل تعاني منه الجامعات الصينية هو انخفاض الرواتب، وافتقار المخابر إلى التجهيزات. وما يزيد الطين بلة هو أن الإصلاحات الجارية وتسريح العمال أدّيا إلى تزايد كبير في عدد المتقاعدين.

ومن الآثار السلبية لضعف الرواتب عدم استقرار الأساتذة، حيث يستقيل الأستاذ من منصبه كلما وجد جامعة أو مؤسسة تدفع راتباً أعلى. وحتى تقلص الدولة من مصاريفها طالبت الجامعات بالبحث عن تمويلات من داخل البلاد أو خارجها بتقديم خدمات علمية، كالبحث في مواضيع اقتصادية تهم رجال الصناعة والصيدلة والطب والزراعة. كما تشجع الحكومة، الآن، فتح جامعات خاصة.

وفي مجال البحث العلمي، يرى بعض الخبراء الصينيين أنه من الأفضل «تثبيت عدد صغير من الباحثين الكبار في العلوم الأساسية (النظرية)، وتشجيع باقي الباحثين على القيام ببحوث تطبيقية». وطبقاً لذلك، نجد أكاديمية العلوم الصينية بمخابرها التي يزيد عددها على خمسين مخبراً، قد تحولت خلال العشرين سنة الماضية ليصبح فيها البحث التطبيقي والتنموي يحتل المكانة الأولى بعد أن كان البحث الأساسي هو الغالب داخل هذه المؤسسة. لكن أكاديمية العلوم الصينية التي تعدّ مركز بحث كبيراً مازالت تسير على النمط الشيوعي البيروقراطي، ولم تعرف بعد التحول الكبير الذي تعيشه مختلف الجامعات. ومع ذلك بدأت رياح التغيير تهب على هذه المؤسسة العلمية. ومن بين الإجراءات التي اتخذتها الإدارة إلغاء طريقة التوظيف على مدى الحياة. وتهدف التغييرات، في آخر المطاف، إلى أن يفوق عدد الباحثين المدعوين إلى الأكاديمية عدد الباحثين الدائمين فيها.

تمازج الشباب والخبرة

ولكي يتجدد أعضاء الأكاديمية لجأت الإدارة إلى تشجيع مغادرة الأعضاء القدماء وتعويض ثلث

المحالين إلى المعاش بباحثين شباب لا يتم ترسيمهم إلا بعد خمس سنوات. وبذلك تقلص عدد المنتسبين إلى الأكاديمية بشكل واضح منذ ١٩٩٢م. وكان الوزير الأول الصيني، الذي نصّب في أبريل/نيسان ١٩٩٨م، قد أعلن أنه يتعين على الإدارات العمومية كافة أن تقلص عدد العاملين بها بنسبة ٥٠٪ وتطبيقا لهذا القرار صرحت إدارة الأكاديمية بأنها تنوي بلوغ هذا الهدف عام ٢٠١٠م.

ويرى رئيس الأكاديمية أن العمل بهذه المؤسسة سيكون على النحو التالي: فريق يتشكّل من كبار الباحثين، وفريق ضخم يضمّ باحثين شباباً يعملون بنظام التعاقد، إضافة إلى الباحثين الزائرين الذين يأتون من داخل الصين وخارجها. كما أشار رئيس الأكاديمية مؤخراً إلى أن الإصلاح سيتجسّد أيضًا بتخفيض عدد المعاهد في الأكاديمية بحيث ينتقل من ١٢٣ إلى ٨٠ معهداً عام ٢٠٠٠م. ومن جهة أخرى، ستوضع مقاييس صارمة لتقويم البحث بالمؤسسة. فإذا لم يبلغ أحد هذه

مدرجات على الجبال زرعها الصينيون



ناطحات السحاب تستوعب الزيادة السكنية الهائلة



.. حتى الماء لا يخلو من السكن!

المعاهد مستوى معينًا فسيضطر إلى البحث عن تمويل من خارج الأكاديمية.

ولكن الصين لم تؤسس بعد نظاماً فعالاً للحماية الاجتماعية مثل علاوات البطالة وغيرها، على الرغم من وجود خدمات تقدمها الشركات والمصانع العمومية للعمال بعد تسريحهم. ولذا فإن من المتوقع أن تجد إجراءات تقليص الموظفين صعوبات عندما تدخل حيّز التنفيذ، ذلك أن مجتمع اقتصاد السوق يحتاج إلى نظام تأمين متكامل للعاطلين تجنبًا للغليان الشعبي. وقد فكرت السلطات الصينية في هذا المشروع، غير أن بعض الأحداث (مثل الفيضانات والأزمات الآسيوية إلخ..) جعلت الحكومة تؤجل تطبيقه.

اجتذاب الطاقات العلمية الوطنية

ومن المعروف عالميًا أن أحد المقاييس المهمة لإدراك مدى تقدم الجامعات هو عدد البحوث المتخصصة التي ينشرها المنتسبون إلى تلك الجامعات في المجلات العالمية. وتشير الإحصاءات إلى أن الصين ضاعفت حضورها في هذا المجال خلال ثماني سنوات، على الرغم من أن عدداً كبيراً من الباحثين الصينيين بقوا في مراكز البحث الغربية. ففي جامعات الولايات المتحدة مثلاً يبلغ عدد الموظفين الصينيين ٩٢٠٠ موظف. وعليه تسعى السلطات الصينية إلى جعل أحسن الباحثين الصينيين يعودون إلى البلاد.

البحث العلمي في هونج كونج

ولا يمكننا الحديث عن وضعية البحث العلمي في الصين من دون الإشارة إلى جزئها، هونج كونج، الذي استردته من بريطانيا عام ١٩٩٧م. لم يكن هناك بحث علمي بجامعات هونج كونج قبل عام ١٩٩١م، وسبب ذلك - فيما يبدو - هو طول سنوات الدراسة؛ لأن الشباب الجامعي تمتصه الوظائف قبل الشروع في تحضير الرسائل الجامعية. وعندما شيّدت جامعة العلوم والتكنولوجيا في مطلع التسعينيات بدأت الأمور تتغير حيث وظفت هذه الجامعة عدداً كبيراً من الأساتذة والباحثين ذوي الخبرة الطويلة القادمين من بلاد الغرب.

والواقع أن البحث العلمي بدأ

يتحرك بهونج كونج عندما قدم فريق باحثين أمريكيين وصينيين وحدّد معالم الجامعة الجديدة لكي تكون لها المواصفات نفسها التي يتمتع بها المعهد الأمريكي الشهير، «معهد ماساشوستس للتكنولوجيا» (Massachusetts Institute of Technology M.I.T)

العمق الأيديولوجي لم يعد يشغل الصين كأيام ماو تسي تونج



كيف ينظر كبار السن إلى المستقبل؟

وبمساعدة أحد أثرياء المدينة، وحكومة هونج كونج أخذ هذا المشروع يتجسد منذ عام ١٩٨٨م في تشييد جامعة العلوم والتكنولوجيا التي فتحت أبوابها عام ١٩٩١م.

وقد أسست بهذه الجامعة، عام ١٩٩١م، هيئة مستقلة لتشجيع البحث العلمي تضاعفت ميزانيتها أربع مرات خلال سبع سنوات. وانتقل عدد مشاريع البحوث المقدمة إلى هذه الهيئة من ٢٠٦ مشاريع عام ١٩٩١م إلى ١٤٠٠ مشروع عام ١٩٩٧م. وتجدر الملاحظة أن نصف المشاريع التي تمت الموافقة على إنجازها خلال السنوات الخمس الماضية مشاريع «تطبيقية». كما أن نصف المشاريع المقدمة تم رفضها بعد دراستها. وتقوم أعمال البحوث والمشاريع باللجوء إلى آلاف الخبراء الأجانب. ومن ثم تبيّن أن ١٥٪ من تلك المشاريع كانت في قمة المستوى العالمي.

ولذلك تدعمت العلاقة بسرعة بين هذه الجامعة وأكاديمية العلوم والجامعات الصينية. وهكذا نجد مشاريع تشترك في إنجازها جامعة العلوم والتكنولوجيا بهونج كونج مع جامعات صينية، مثل المشاريع المتعلقة بالمورّثات البشرية، وأمراض القلب والسرطان. ومن المعلوم أن رئيس جامعة العلوم والتكنولوجيا بهونج كونج كان رئيساً لجامعة سان فرانسسكو الأمريكية؛ وقد قام بمعية مساعديه بجولة في عدد من الجامعات الصينية لتوطيد التعاون في مجال البحث العلمي. ومن المنتظر أن تستفيد الصين من هذه التجربة الرائدة في آسيا المتمثلة في إنشاء هذا القطب العلمي بهونج كونج.

مؤتمر الرياضيين الدولي

ومن الدلائل التي تثبت أن الصينيين ماضون قدماً لتحقيق إنجازات علمية كبيرة استضافتهم المؤتمر الدولي الرابع والعشرين للرياضيين (International Congress of Mathematicians) الذي سيعقد ما بين ٢٠ و ٢٨ أغسطس / آب من عام ٢٠٠٢م. ويجمع هذا المؤتمر آلاف الرياضيين، ويتم تنظيمه مرة كل أربع سنوات. وخلال انعقاده، تمنح ميدالية فيلدس، أعلى جائزة عالمية في مجال الرياضيات (تعوّض جائزة نوبل التي لا تمنح للرياضيين). وقد قرر تنظيم المؤتمر الرابع والعشرين في بكين خلال دورة المؤتمر الثالث والعشرين الذي انعقد ببرلين في آب/ أغسطس ١٩٩٨م.

وما يلفت الانتباه في هذا الموضوع ليس استضافة الصين لهذا المؤتمر فحسب - وإن كان في حدّ ذاته حدثاً عظيماً - بل اللافت أكثر هو أننا نجد موقعاً في الإنترنت خاصاً بهذا المؤتمر فتح منذ أواخر أغسطس / آب الماضي، أي بعد بضعة أيام من صدور قرار عقد المؤتمر بالصين. وينشر هذا الموقع عدداً من الوثائق، مثل: رسائل الترحيب التي وجهها كل من شيخ مدينة بكين، ووزير الدولة للعلوم والتكنولوجيا الصيني إلى أسرة الرياضيين في العالم، كما يقدّم معلومات حول مكان انعقاد المؤتمر، والفنادق المخصصة للمؤتمرين، والبرنامج الثقافي الذي سينظم بهذه المناسبة، إلخ.

وأكثر من ذلك، هناك وثيقة تقدم قائمة المولين للمؤتمر مع تفاصيل صرف الأموال. وتقدر تكاليف إقامة هذا المؤتمر بمليون ونصف المليون



جزء من سور الصين العظيم

دولار. تدفع منها الحكومة قرابة نصفها. وتشير إحدى الوثائق إلى أن الحكومة تعهدت بدفع كل المصاريف التي يعجز عن تسديدها المنظمون. نجد كل هذه التفاصيل قبل انعقاد المؤتمر بأربع سنوات!!!

الحاجة إلى مبادرات عاجلة

وإذا ما نظرنا إلى الجانب الاقتصادي في الصين فإننا سندهش إذا ما قورن بالتقدم العلمي المتواصل الذي يحققه هذ البلد يوماً بعد يوم. لقد أدت الأزمة المالية في آسيا إلى تراجع النمو الاقتصادي الصيني، فالإحصاءات الرسمية تشير إلى انخفاض في الناتج القومي يقدر بـ ٧٪ خلال الشهور الأولى من العام الماضي، إنه أسوأ معدل تسجله الصين منذ عام ١٩٩٢م؛ ولذا فإن البطالة المنتشرة في الصين تحتم على السلطات اتخاذ مبادرات عاجلة كيلا يستمر هذا النمو في الانخفاض؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى اضطرابات اجتماعية يصعب التحكم فيها.

ويقدر بعض المراقبين عدد العاملين بأجر أقل مما يكفي حاجاتهم الأساسية بـ ٧٠ مليون شخص.

أما نسبة البطالة فإن الاقتصاديين الصينيين يقدرون أنها ستصل إلى ١٨ مليوناً في المدن خلال العام الجاري،

النسبة المئوية لحصة الصين في نشر البحوث العلمية بالنسبة إلى النشر العالمي في المجلات المتخصصة

الاختصاص	١٩٨٧	١٩٩٠	١٩٩٥
البيولوجيا الأساسية	٠ر٢٪	٠ر٢٪	٠ر٣٪
البحث الطبي	٠ر٤٪	٠ر٤٪	٠ر٦٪
البيولوجيا التطبيقية	٠ر٢٪	٠ر٤٪	٠ر٦٪
الكيمياء	٠ر٥٪	١ر٢٪	٢ر٤٪
علوم الكون	١ر٠٪	٠ر٩٪	٠ر٩٪
علوم الهندسة	٠ر٩٪	١ر٦٪	٢ر٠٪
الرياضيات	١ر٦٪	٢ر٣٪	٣ر٣٪
الفيزياء	١ر٣٪	٢ر٦٪	٣ر٦٪
المجموع	٠.٦٪	١ر٠٪	١ر٣٪







ملامح للحياة الجديدة في الصين

وهذا من دون الحديث عن القطاع الزراعي. ذلك ما نتج من إصلاح الشركات العمومية الذي تطلب تسريح عدد كبير من العمال. ولكن هذه الشركات مازالت توظف أزيد من مئة مليون عامل، ومنهم من لا يزال يطارده شبح التسريح. وبالإضافة إلى هذه المأساة الاجتماعية، هناك عمال لم يتقاضوا أجورهم منذ شهور، وعددهم يتجاوز عشرة ملايين. وإذا كان الوضع لم يصل بعد إلى حدّ الانفجار فذلك يعود أساسًا إلى سيطرة السلطات على التنظيمات العمالية.

إلا أنّ الصين تبدو غير معرضة لأزمة مالية شبيهة بتلك التي حدثت في كوريا الجنوبية وإندونيسيا؛ لأن بنوكها لا تواجه ديونًا أجنبية كبيرة تجعلها فريسة سهلة للدائنين، زد على ذلك أن الاحتياطي من العملة الصعبة يبلغ حوالي ١٤٠ مليار دولار؛ لكن لا ينبغي على المستثمرين الأجانب الاعتماد على هذا الاحتياطي حسب تصريحات المسؤولين الصينيين، مما أدى برجال الأعمال - الخائفين من شبح تخفيض العملة - يتحركون لنقل أموالهم إلى خارج الصين. وتشير بعض الإحصاءات إلى أن رؤوس الأموال المهربة بلغت خلال السنة الجارية عشرين مليار دولار.

زيادة الصادرات

أما التجارة الخارجية وترابطها مع صادرات الجيران، فتشير إلى أن الصين كانت قد صدّرت أحذية عام ١٩٩٥م إلى الولايات المتحدة بمقدار ستة مليارات دولار، أي نصف ما تستورده الولايات المتحدة من هذا المنتج. أما صادرات كوريا من الأحذية، آنذاك، إلى أمريكا فلم تتجاوز ٣٪ من الأحذية التي تستوردها أمريكا، بينما وصلت هذه النسبة، في مطلع التسعينيات، إلى ٢٥٪ وهناك مثال آخر حول صادرات الصين إلى أمريكا: إنها الألبسة التي قفزت نسبة



الشعارات وحدها لم تعد كافية لتحقيق تقدم الصين

صادراتها إلى أمريكا خلال السنوات العشر الماضية من ٣٪ إلى ١٦٪، وهذا في الوقت الذي تراجعت فيه نسبة كوريا من ١٥٪ إلى ٣٪.

وفي عام ١٩٩٦م بلغت صادرات الصين ١٥١ مليار دولار حيث سجّل زيادة تقدر بـ ١٣ مليار دولار بالنسبة إلى عام ١٩٩٥م. وقد ارتفع معدلها في بداية العام الماضي أيضاً، غير أنه سرعان ما انخفض بسبب انخفاض الطلب على السلع الصينية في الدول الآسيوية. وبالموازاة مع ذلك امتلأت الأسواق الصينية بسلع آسيوية رخيصة الثمن استوردها تجار أجانب، فأحدثت ضغطاً على البضاعة المحلية وعلى القدرة الإنتاجية للمصانع الصينية.

والملاحظ أن النظام التجاري الذي يربط آسيا بالولايات المتحدة يعمل على شكل مثلث: فبينما يسجل اليابان فائضاً كبيراً في ميزانه التجاري مع أمريكا وبقية الدول الآسيوية، نجد ميزان هذه الأخيرة يعرف عجزاً كبيراً مع اليابان (بلغ عجز الصين مع اليابان عام ١٩٩٥م أكثر من ٢٥ مليار دولار)، لكنها تصل إلى مستوى التوازن بفضل مبيعاتها المصنعة إلى أمريكا (في عام ١٩٩٥م، بلغت صادرات الصين إلى أمريكا ٤٥ مليار دولار). وهكذا فالولايات المتحدة تؤدي في آسيا دوراً تجارياً بارزاً، حيث تظهر كالممتص للفائض من هذا النظام التجاري المعقد.

وفي هذا الجو المقلق يحذر رئيس الوزراء رجال البنوك بالقول: إن «الأزمة المالية الآسيوية توجه لنا تحدياً خطيراً، وعلينا أن نسعى لمواجهته». وتقوم الدولة بحماية مؤسساتها تجنباً لحدوث كارثة على النمط الروسي، وهي تعلم أنها محط أنظار العالم، ولا سيما أنظار أصحاب رؤوس الأموال الذين يدركون أن العدد الهائل لسكان الصين يوفر لهم عدداً لا يضاهى من المستهلكين.. ومن العمال أيضاً. ومهما يكن من أمر فالصين تسير في طريق الحداثة بنهضتها العلمية، كما أنها عرفت كيف تتأقلم مع «العولمة» والمستجدات الأخرى على المستوى الدولي، وهذا من دون التفريط في هويتها ومقوماتها حضارتها الضاربة في التاريخ.

المراجع:

1 - Chevalier gerard: Naissance d'un systeme de recherche, la recherche, October, 1998.

2- Chen-Lu Tsou: science and scientists in China, Science, April 24,1996.

3- Chesnaux jean: Hong Kong sous les drapeaux, La Monde diplomatique, August, 1998.

4- Cohen Stephen: Le commerce mondial otage de la Chine? Le monde diplomatique, January, 1998.

5- Rocca jean-Louis: Paradoxale modernisation de la Chine, Le monde diplomatique, March 1997.

6- Postel-vinay olivier: La reforme de la science chinoise, La recherche, October, 1998.

7- University Grants committee of Hong Kong: Higher education in Hong Kong, reports, October, 1996.



مقالات

أي مستقبل للبشرية في القرن القادم؟

أ. إفانوف



ونحن على مشارف الألفية الميلادية الجديدة الثالثة يثير مستقبل البشرية مجموعة كبيرة من التساؤلات في الأوساط السياسية والعلمية في أنحاء العالم كافة. وما يحدد اتجاهات المناقشات الحامية حول هذا الموضوع الجدلي، والمصيري في الوقت نفسه لبني البشر كلهم، هو المتغيرات العميقة التي حدثت، ولا تزال تحدث في أهم مجالات حياة المجتمع الإنساني، التي يخفيها عن أعين الرأي العام بهرج السياسات الجارية، والسيل الجارف الذي لا نهاية له من أحداث ومستجدات يومية عارمة ومقلقة أحيانًا.



إلى أين يتجه العالم في ظل الحروب المستمرة؟

فإذا حاولنا أن نبرز طابع المستجدات العالمية، وقدّرنا جوهرها فسنجد أنه متضارب، ومتناقض. فحقًا قد أحرزت البشرية تقدماً لا مثيل له في سير العقود الأخيرة من هذا القرن، ومن الممكن أن نعده قفزة عظيمة إلى الأمام في مجالات التقنية والعلوم لم يعرفها التاريخ الإنساني من قبل، ولم يستطع حتى كتّاب الروايات الخيالية أن يتصوروها ويتنبؤوا بها .

وعلى سبيل المثال، هل توقع أحد هذا التطور السريع الذي نشاهده في أيامنا هذه في وسائل النقل والمواصلات، التي جعلت المسافات الشاسعة بين القارات والشعوب تتضاءل إلى هذا الحد، إذ أصبح في استطاعة كل إنسان أن يتصل بمن يشاء من أي مكان في العالم، من دون أي عرقلة، مهما تباعدت المسافة بينهما. وهذا التقدم من شأنه تحقيق رفاهية البشرية وسعادتها.

عالمان لا عالم واحد

ولكننا نجد - مع الأسف الشديد - صورة أخرى محزنة وكئيبة في الواقع، فلم تعد التكنولوجيات العالية الجديدة، والمنجزات العلمية العجيبة قادرة على رفاهية البشرية كلها. بل إنها تعمّق الاستقطاب بين الدول والشعوب، وتوسع الهوّة من حيث مستوى المعيشة بين البلدان النامية والمتقدمة.

وبموجب الإحصاءات العالمية الأخيرة يتركز ٨١٪ من الإنتاج العالمي للسلع وللخدمات في سبع وعشرين دولة فقط. ويبلغ عدد السكان فيها ١٧٪ لا أكثر، من إجمالي عدد سكان العالم كله، ولا يزيد الدخل اليومي لنصف سكان الأرض على دولارين فقط(١).

فالتوسع من يوم إلى يوم آخر يؤدي إلى اتساع الهوة بين أرباح الأغنياء وحاجة الفقراء، فتزداد مكاسب الأغنياء مثلاً في قمة المجتمع الأمريكي بنسبة ٢٠٪، مما يعادل تسعة أمثال إيرادات الفقراء الذين يشكلون ٢٠٪ من السكان(٢)، هذه الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية اليائسة لفقراء العالم أصبحت مصدراً لخيبة الآمال والتطرف في محاولات المسحوقين الانفلات من أحابيل الضنك.

إن الظروف المعيشية القاسية كانت ولا تزال سبباً في الهجرة من الدول النامية والفقيرة إلى الدول الصناعية الغنية. فالمهاجرون من بلادهم بلغ عددهم نحو مئة مليون شخص خلال العقود الأربعة الأخيرة، وكان الدافع الأول وراء هجرتهم الوضع الاقتصادي العصيب في العالم الثالث(٣).

سباق التسلح وخطر الإرهاب والتطرف

وتبتكر البشرية أنواعاً جديدة من الأسلحة الأكثر تدميراً وفتكاً، وفي الوقت نفسه تعمل جاهدة من أجل منع انتشار الأسلحة الذرية والنووية والكيماوية، والأنواع الأخرى من أسلحة الدمار الشامل. وحسب تقارير الخبراء الأمريكيين، فإنه قد تراكمت في ترسانات الدول المختلفة الذخائر النووية المتساوية بقدرتها التدميرية ٩٠٠٠٠٠ (تسعمئة ألف!) قنبلة من النوع الذي محا مدينة هيروشيما. وإخفاق العالم في منع انتشار التقنية النووية يزيد الخطر من وقوع هذه التقنية العسكرية السرية في أيادي العناصر الإرهابية، والقوى السياسية المتطرفة.

ولا نهاية لسباق التسلح الذي لا يمكن أن يكون فيه فائز بحكم طبيعة التكنولوجيا العسكرية نفسها التي تصبح غير ذات جدوى بعد مرور خمس سنوات على اختراعها بحسب الخبراء في هذا الميدان.



الثورة التقنية العالية.. لماذا لم تسعد البشرية؟

وتصبح النفقات الهائلة على تطويرها، وإنتاج النماذج منها مفقودة وذاهبة أدراج الرياح.

وتتصدر الولايات المتحدة مركز الصدارة في هذا المجال، فتنفق على عجلتها العسكرية ما يعادل إنفاق عشر دول عسكرية كبرى مجتمعة تأتي بعدها في المرتبة والأهمية.

ويذهب معظم الإنفاق على توليد الأجيال الجديدة من «الأسلحة الذكية» مثل المقاتلات الخفية التي لا يرصدها الرادار، والقنابل الموجهة بالليزر. وقد وظفت الولايات المتحدة ستين مليار دولار في إنتاج، «القنابل الذكية» وتطويرها وحدها(٤).

وبلغت الميزانية العسكرية الأمريكية في العام المالي السابق ستة وستين ومائتي مليار دولار أي بزيادة قدرها أحد عشر مليار دولار على الميزانية التي أبدى الكونجرس استعداده للموافقة عليها(٥). وذلك على الرغم مما ورد في التقرير المفصل الذي صدر في واشنطن، وكان نتيجة أربع سنوات من الدراسات والأبحاث المكثفة للهيئة الحكومية العامة للحسابات،

ويقول التقرير: إن هذه الأسلحة المتطورة لم تحقق كل الأهداف المرجوة في أثناء حرب الخليج الثانية. وإن الأزمات والنزاعات المحلية المستمرة المتعددة في الدول النامية تقود إلى سباق التسلح، الذي يشكل سعياً في حلقة مفرغة، تستنزف الوارد، وتؤدي إلى النفقات الزائدة، وتعمق حالة الفقر في هذه الدول، بينما يربح منتجو الأسلحة من هذه الحالة المحزنة أرباحاً أسطورية.

وقد ارتفعت حصة الولايات المتحدة الأمريكية في أسواق الأسلحة العالمية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي - منافسها الرئيس السابق - من ٢٥٪ في عام ١٩٨٧م إلى ٥٢٪ في العام الماضي. وفي الوقت نفسه تحتل أمريكا منذ عام ١٩٥٠م المرتبة الأخيرة بين إحدى وعشرين دولة صناعية متطورة في حجم مساعداتها لنهوض البلدان النامية. فجريدة «إنترناشونال هيرالد تريبيون» كتبت تقول في سخرية لاذعة: «إن الولايات المتحدة تعد دولة أولى بين دول العالم المتطور في مجال توريد أسلحة تقتل الناس، ودولة أخيرة في مجال تقديم المساعدات لإشباع الناس»(٦).

تناقض الواقع وغموض المستقبل

ويقترب عالمنا من أبواب القرن الميلادي الجديد وهو في حالة غير مشجعة اقتصادياً، وفي حالة تمزق سياسياً. وتنبثق من هذه الازدواجية في تطوره، وعدم التوافق والتوازن فيه قافلة كاملة، وطويلة من المشكلات، والمصائب الإضافية التي تلقي الأعباء على مستقبل الشعوب.

فكيف تنسجم الثورة التقنية العالية مع توزع ملايين الناس يومياً على الكرة الأرضية بين صواريخ ومدرعات حديثة وعشش الفقراء؟

وقد حثت هذه المظاهر العالمية المتناقضة بعض العلماء على الاستنتاجات والتنبؤات المتشائمة في لبها. فاستدلوا استدلالاً فحواه:

لا تبقى للبشرية إلا ستون أو ثمانون سنة على الأكثر من حياتها. وقد شكل هؤلاء العلماء مدرسة علمية تسمى بـ«المدرسة الكونية»؛ لأنها تعالج قضايا وجود الجنس البشري ككل.

ولكن ما الذي يعتمد عليه مثل هذا الاستنتاج الرهيب؟ يشير أتباع «المدرسة الكونية» إلى الفجوة الشاسعة التي لا تزال

تتعمق بين الدول المتقدمة والبلدان النامية في مجال التطور الاقتصادي.

ومن أجل اجتذاب هذه البلدان التي يُعد الوضع المتفاقم فيها قنبلة موقوتة مزروعة تحت بنية العالم كله، ولتبلغ هذه الدول مستوى الدول المتقدمة - لابد - حسب إحصاءات معتدلة؛ من مضاعفة إنتاج الطاقة كل عشر سنوات، وهذا أمر مستحيل في المستقبل القريب.

البطالة ومشكلات أخرى

وتعد المعدلات العالية لازدياد عدد سكان العالم في رأي هؤلاء العلماء مشكلة ثانية لن نتغلب عليها. فإذا بلغ هذا العدد في العام الماضي خمسة مليارات تقريبًا فمن المتوقع أن يتجاوز على مر عشر سنوات قادمة عشرة مليارات(٧)، وتترتب على كثرة سكان الأرض سلسلة من المشكلات التي لا تقل خطورة. ومن بينها مشكلة البطالة، وهي مشكلة يعاني منها العالم الثالث إضافة إلى الأزمات العديدة القائمة، إذ يقترب عدد العاطلين عن العمل في العالم اليوم من ٨٥٠ مليون نسمة وأكثريتهم في البلدان النامية. ومن المنتظر أن يؤدي تطور التقنيات العالية إلى تضخم في أسواق الأيادي العاملة في الدول المتقدمة ناهيك عن تدهور الأوضاع في هذه الأسواق في البلدان النامية(٨).

ويعاني الملايين من الناس من مآسي الجوع يوميًا، وينضم إلى صفوف هؤلاء البائسين ملايين وملايين آخرون من أجيال جديدة، بسبب ضعف الهياكل الاقتصادية في بلدان العالم الثالث، وديونها المتراكمة، وشح مواردها المالية، وغيرها اللازمة لدفع عجلة التقدم، وإنعاش عملية التنمية.

وباشتعال النزاعات الجديدة المعقدة، فإن الأضرار الناجمة من هذه الأزمات والنزاعات فوق قدرات الشعوب وقياداتها. وهي تبدو واضحة ومفهومة حتى لمن لا يفهم في السياسة ومشكلاتها المتشابكة. ويعتقد علماء «المدرسة الكونية» أن مشكلات البلدان النامية في وسعها أن تنسف توازن العالم واستقراره كله.

ويؤكد مؤيدو نظرية «كارثة البشرية المقبلة الشاملة» أن الطبيعة وبيئة الإنسان لن تتحملا الضغوطات المتزايدة عليهما، الناجمة من تدخلات التقنيات الحديثة والمضرة أحيانًا. وهؤلاء العلماء يعتقدون أن التقدم العلمي والتقني يؤثر سلبًا في المستقبل، وهو طرف تدميري. فيطرحون حوادث العطل المتكررة في المحطات الذرية مثل نكبة «تشرنوبيل» إثباتًا لهذا الرأي، ووفقًا لهذا المنطق تصبح البشرية بين النارين: فمن ناحية لا تستطيع أن تتقدم وتسوي مشكلاتها الراهنة، والمقبلة، دون التطور التكنولوجي، ومن ناحية أخرى، فإن هذا التطور يهدد وجودها.

التكنولوجيات العالية الجديدة، والمنجزات العلمية العجيبة لم تعد قادرةً على رفاهية البشرية كلها، بل إنها توسع الهوة بين البلدان النامية والمتقدمة

فهل يوجد مفر من هذا المأزق الكوني الرهيب؟

المدرسة البديلة

تقترح المدرسة العلمية الأخرى المنافسة بديلاً لأفق البشرية العابسة، وهو إدراك المشكلات والمهام كافة واستيعابها عن طريق واع من البشرية، وإيجاد حلولها بجهود مشتركة وفعالة. وتشير هذه «المدرسة البديلة» إلى أنه دار الحديث نفسه حول كارثة آتية للبشرية على عتبة قرننا العشرين الجاري، بسبب نقص الاحتياطات البترولية في جوف الأرض، ولكنه في نهاية المطاف بقيت البشرية بعد سلسلة من أزمات الطاقة الشرسة.

ويؤيد أصحاب «المدرسة البديلة» فكرة أن «لكل داء دواء». فيدعون على سبيل المثال إلى إعادة النظر في استهلاك الطاقة على نطاق العالم كله، وتطوير مصادرها الأخرى البديلة غير البترولية كطاقة الشمس والماء إلخ. وسوف تساهم مثل هذه الإجراءات - في اعتقادهم - في تقليص الاعتماد على الموارد النفطية العالمية، من ناحية، وفي تخفيف العواقب الوبيلة لاستخدام المنتوجات النفطية على البيئة، من ناحية أخرى.

وفيما يخص المخاطر المزعومة الناجمة من نمو عدد سكان الأرض الهائل، فإن تجارب السعودية والهند ودول آسيا الأخرى تدل على أن الارتفاع بمستوى الإنتاج الزراعي قد يكفل احتمال وإمكانية التغلب على هذه المخاطر، ومكافحة الجوع على كوكبنا.

أما مشكلة البطالة المزمنة في البلدان النامية، فإنها مشكلة معقدة وجدية وحادة حقًا ومتعلقة بعوامل اقتصادية، واجتماعية وسياسية متنوعة، ومختلفة. ولكنها ليست مشكلة عويصة.

إن تطور الاقتصاد العالمي المستمر سوف يتطلب المزيد من الأيادي العاملة، والمهمة الرئيسة تكمن في إعادة توزيع الفروع الاقتصادية، وتعديل الهياكل التقليدية الموجودة في البلدان، مع معدلات البطالة العالية. ولابد هنا من تغيير موقف هذه البلدان في النظام العالمي الإنتاجي وتحويلها من دورها التصديري للمواد الخام والقوى العاملة الرخيصة إلى دور منتجي مجموعات واسعة من بضائع وخدمات شتى. والتيار نحو التقارب والتكامل الذي يعزز الاقتصاد العالمي الحديث سوف يساعد في دفع هذه العملية الحيوية للبلدان النامية وللعالم بأسره.

وانطلاقًا من استيعاب الواقع البسيط، فإن مستقبل كل دولة وكل شعب مهما كان غنيًا أو فقيرًا يتوقف في عصرنا على رفاهية جميع الدول والشعوب وازدهارها. ومن الممكن التوصل إلى هذا الاستنتاج البسيط والمهم للبشرية كلها، وهو أهمية توحيد جهودها في بحث عن حلول مناسبة للمشكلات والتحديات كلها التي تواجهها.

على ناصية الطريق

زياد بن عبدالرحمن السديري



عندما كنت أكتب عن رحلتي ورفاقي على الركائب في شتاء عام ١٤١٦هـ كنت أتوقف مراراً فأسأل: هل هذا موضوع لي؟ هل يجدر بي حقيقة أن أطرق هذا المجال في هذا الزمان والمكان؟ أليست الكتابة عن رحلات القوافل عبر الصحراء لرحالة أجانب في عصر مضى؟ لغرباء كانوا يقدمون إلى هذه البلاد ليرتحلوا فيها على مطايا الإبل إلى أماكن لم يسبقهم إليها أحد من أبناء جنسهم، فيكتشفوا بعض أسرارها، ويضعوا أولى الخرائط لها، ويكتبوا عن سكانها ونباتاتها وجغرافيتها لقراء لا يعرفون شيئًا عنها. ألست وقرائي أبعد ما نكون من هؤلاء؟ عربي يكتب لعرب عن رحلة على مطايا العرب عبر صحراء من صحاري العرب حيث هم يقطنون.

ما معنى هذه الكتابة؟ وماذا سيقوله القراء؟ كنت أسأل بارتياب. أكملت كتابتي ودفعت بها إلى «الجوبة»(١) على استحياء متحفز لسماع النقد، مشغول البال أتأمل الجواب. كنت أطمئن نفسي فأقول: إن الجوبة تصدر بطبعة محدودة، وقراؤها أقل عددًا من طبعتها، فلعل هذه الكتابة تمر من دون دراية كثيرين، ولربما أنجو من أشد النقد. وكنت أعود بالذكرى إلى رحلتنا، لعلي أجد فيها بعض جواب عن

أسئلتي، فإذا أنا كأني أرتحل إلى عالم آخر بعيد عني، عالم أكاد لا أجد من معالمه شيئاً في متناولي. وبينما أنا كذلك، بين مد وجزر، وتوقف وسؤال، صدرت الجوبة كعادتها في الوقت المناسب، وأخذت بعض نسخها طريقها إلى قرائها. ولكن بعد صدور الجوبة بوقت قصير نشرت المقالة مرة أخرى في صحيفة يومية، ثم في مجلة شهرية لتصبح في متناول عدد أكبر من القراء، وتحظى بكامل نصيبها من النقد والتعليق.

هل نحن فقدنا كل صلة مباشرة لنا بالماضي ؟ وهل نحن على بينة من ذلك ؟ وهل هذا ما نريده ؟

وخلاف ما توقعت، فإن النقد الذي سمعته لم يصل إلى المسائل التي كنت قد توقفت عندها وأشرت إليها: شكي بملاءمة المقالة لكاتبها، وشعوري بعدم انتسابها إلى زمانها، وسؤالي عن فائدتها لقرائها. بل إنني سمعت بعض من خشيت نقدهم يقررون أن الموضوع كان يستحق أكثر بكثير مما أعطيته، ويقولون: إنهم شعروا وهم يقرؤونه كأنهم في حلم بعيد، ويتساءلون بعد أن قرؤوه هل كانوا يستطيعون أن يخوضوا مثل هذه التجربة اليوم؟

هذا كله استوقفني مرة أخرى، وقادني إلى المزيد من الأسئلة. نعم، الأسباب التي دفعت القراء إلى الاهتمام بهذه الرحلة هي الأسباب ذاتها التي دفعتني ورفاقي إلى القيام بها والكتابة عنها. ولكن ما هذه الأسباب؟ ولماذا يحظى هذا الموضوع بهذا القدر من الاهتمام منا ومنهم؟ ما الجديد أو الغريب في هذا الأمر؟ ولماذا شعرت وأنا أكتب عنه بأهمية الحديث عن بعض التفصيلات التي قد تعد من البديهيات؟ لماذا تكلمت على أصول الهجن؟ وأسلوب التدرب على ركوبها، وأسماء عدتها، والمسافات التي تقطعها؟ وفطنت إلى ذكر نمط رحلتنا ومواقيتها ومستلزماتها، وعنيت بالإشارة إلى سكان النفود وعاداتهم وظروف بيئتهم؟ لماذا كنت أكتب عن هذه الأمور؟ ولماذا كان القراء يفضلون لو كان لي نفس أطول مما ملكت فأذهب بهذا البحث إلى أبعد مما فعلت، وأضيف مزيداً من التفصيل إليه؟ هل وصل الأمر بنا إلى الحد الذي جعلنا نحن أبناء هذه البلاد لا نعرف عن الحياة في بيدائها، وهي وثيقة الصلة بنا، قريبة العهد منا، واضحة الأثر فينا، سوى هذا القدر اليسير مما نطالعه في مثل تلك المقالة القصيرة؟ هل هذا كله يعني أننا أصبحنا من تلك الحياة كالغرباء عنها؟ كالأجانب لا يحيطون بها إلا مقدار ما ينقله لهم من وصل إلى صحرائنا من موفديهم؟ هل نحن فقدنا كل صلة مباشرة لنا بتلك الحياة؟ وهل نحن على بينة من هذا؟ وهل هو ما نريد؟

واقع مشوه

هذه الأسئلة. مع ما قد يبدو فيها من تطرف، قد لا تكون بعيدة عن الواقع. وهذا الواقع قد لا ينتسب إلى أهل المدن وحدهم. ها هم أولاء أبناء البادية ممن حلّوا في بعض القرى والهجر اليوم، الكثير منهم ما عادوا يحسنون أدنى الأمور مما يفترض فيهم معرفتها: كالعيش في البيداء، أو أسماء المواقع والنباتات فيها، أو حتى أسماء الإبل، دع عنك ركوبها أو العلم بأصولها. بل ها هم أولاء آباؤهم البدو بعيونهم تشهدهم كل مساء متسمرين حول الرائي ملتصقين به يتابعون ما تقدمه إحدى القنوات من مسلسلات «بدوية» أنتجها أناس، كثير منهم لا يعرف عن البدو إلا نزراً يسيراً من أزيائهم، ولا يقدم في مسلسلاته إلا أضعف الموضوعات وأبعدها عن حقيقة حياتهم، ولا يظهرهم إلا بأهزل صورهم. ها هم أولاء وأبناؤهم يتابعون هذه المسلسلات، كأنها أصبحت الصلة الوحيدة المتبقية لهم لربطهم بماضيهم.

أتأمل هذه الحال المثيرة للأسى، وأنتهي إلى أنها ليست قضية معنوية أو مسألة ثقافية - بالمعنى الضيق لهذه الكلمة - فقط. ليس الموضوع أن واجبنا أو وطنيتنا أو حتى إشباع غرورنا يحتم علينا أن نبقى على صلتنا بأمسنا كي لا نبدو من الجاهلين فيه، أو لنتمكن من الإسهاب في الحديث عنه للآخرين. بل الموضوع هو أن انقطاع تلك الصلة بذلك الماضي ربما له من التبعات ما هو أهم وأبلغ من القضية المعنوية المجردة.



هل هي حياة ولّت من غير رجعة؟

كم أرهقني ثسيجر!!

قبل نحو نصف قرن من الزمان قدم إلى جنوب الجزيرة العربية رحالة إنجليزي اسمه ويلفرد ثسيجر أمضى فيها خمس سنوات في رحلات طويلة متتابعة على الإبل مع البدو، وكتب فقال: سوف أتذكر دائماً كم مرة شعرت بوضاعة موقفي أمام هؤلاء الرعاة الأميين الذين نالوا من الكرم والشجاعة والقدرة على التحمل والصبر والمروءة ما لا يمكن لي أن أدعيه!! إنني لم أشعر قط في حياتي مع أي قوم سواهم بهذا القدر من القصور الشخصي(٢)! ترونا اليوم بعد كل ما كسبناه من علم، ووصلنا إليه من حضارة، وملكناه من وسيلة، مازلنا نحمل ذلك النبل بالمقدارذاته وكل الصدق والأصالة التي حملها أسلافنا؟ ترونا لو نظرنا إلى المرآة الآن فهل نجد في صورتنا نسخة من صورتهم؟ أم نلمح في أنفسنا سمات من آخرين؟ ترون لو عاد ثسيجر إلينا اليوم، هل يشعر مجدداً بالقصور أمام من يلتقي بهم منا؟

كم أقلقتني هذه الأسئلة! وكم أرهقني ثسيجر بتلك المشاهدة! وكم عدت إليها كلما تذكرت تلك الأبيات المتأسية المتحسرة لشاعر نبطي وقف يتغنى بحياة مضت فاسترسل يصف أهلها، ويعجب بفراستهم ويقظتهم، ويعتز بكبريائهم وشهامتهم وشوكتهم!! ثم توقف فجأةً يبحث عنهم، فإذا هم على ناصية طريق في مدينة، وإذا هم على هيئة غير هيئتهم، وإذا هو يكاد لا يعرفهم، فانقبض فؤاده، ورأف بهم أن يسهب في وصف صورتهم، وانصرف عنهم ببيت واحد مضحك مبكٍ حكى فيه كل قصتهم(٣).

هل العيش في الحاضر يفرض علينا حتمًا أن نحتضن كل وافد غريب ونئد كل ما سواه ؟

ويبقى بعده الآخر

نعم، تلك حياة ولّت ربما من دون رجعة، ونعم ،ربما ليس كل ما في تلك الحياة مما يتوق إليه كثير

منا، ونعم، ربما لا مناص لنا من العيش في حاضرنا. ولكن هل هذا العيش يفرض علينا حتمًا أن نحتضن كل وافد غريب ونئد كل ما سواه؟ هل الحاضر من الكمال والمثالية ما يسوّغ زهدنا بكل ما سبقه، وهجرنا له، وتعالينا عليه؟ هل كل ما أخذنا به من جديد مصيب؟ وكل ما تركناه من قديم مخطئ؟ انظروا إلينا: في وقت يقصر عن عمر الإنسان نهضنا فكسرنا قيود بيئتنا، وخرجنا عنها، ثم مضينا فكدنا نغير ونستنفد ونتلف كل ما فيها، الإنسان والحيوان والماء والنبات. ثم انظروا إلى تلك الحياة كيف امتدت عبر الزمان الطويل، وتكيفت مع هذه البيئة القاسية، وبقيت وأبقت عليها؟ انظروا إليها: الأحياء والمزروعات والمواد المستخدمة فيها هي المناسبة لبيئتنا، غير الضارة بها. فهل كل ما استقدمناه مؤخرًا من هذا المتاع مناسب لبيئتنا غير ضار بها؟ الماء الذي كانت تستهلكه ماء متجدد زهيد الثمن. فهل كل الماء الذي نستهلكه اليوم يتجدد وثمنه زهيد؟ الإنسان ذاك الإنسان الذي كان يدير دفتها، ويسود فضاءها، ويهيمن عليها، هل ما زال الآن قادرًا وحده على تسيير آلته. أليس في هذه الموازنة بين هذه الأمثلة، مما كان وما هو كائن الآن، ما يشير إلى ما في الماضي من موعظة، ويكشف عما قد ينتاب الحاضر من قصور، ويفرض بعض التواضع علينا؟! ألا ترون أننا لو أمعنا النظر في هذه المسألة لربما وجدنا في أمسنا مرشدًا لغدنا؟! ودليلاً نستلهم منه بعض الحكمة، ونستعيد به ذاك التوازن، ويرشدنا إلى تلك المنزلات. إلى متى نظل ننظر إلى هذا الأمر فلا نرى منه إلا سطحه وكل ما هو سالب فيه، ويبقى بعده الآخر، البعد الأهم وكأنه أبدًا بمنأى عن وعينا؟

البدو يتابعون مسلسلات تلفازية لا تقدم إلا أتفه الموضوعات وأبعدها عن حقيقة حياتهم

ليس إبطاء في المسير

قد تبدو هذه الكتابة لبعض الناس كأنها دعوة للسير القهقرى، أو مفاضلة بين مادي ومعنوي، أو زفرة ملؤها تأسيات وتمنيات، إلا أنها في نظري وقفة لابد منها، وإشارة إلى مسائل لا يسعنا إهمالها، واستشراف لخواتم دروب باشرناها. وهي أيضًا فهم للتراث على أنه ليس مجرد طقوس نمارسها في المناسبات، ومقتنيات نحتفظ بها في المتاحف، وعادات لا طائل منها ولا معنى لها، ولكنه فوق هذا كله الشيء الذي يكوّن شخصيتنا المميزة، والمنظومة التي لازمت ولادة هذا المجتمع الآمن المترابط، والمنطق الذي أفرزه الواقع، وضرّسه الزمان، وأثبتته التجربة. فلعل بعض البحث عن الأمس ليس إبطاء في المسير، أو عودًا إلى الخلف، وإنما وقت لاسترداد النفس، واستعادة التوازن من أجل خطا أكثر ثباتًا إلى الأمام.

دعوني أعود بكم مرة أخرى إلى تسيجر، وأدعوكم في ختام هذه الكتابة إلى تأمل ما قاله عنا وتقويم رأيه فينا، يقول تسيقر: «كل ما هو رائع في العرب أتى إليهم من الصحراء: شعورهم الديني العميق الذي وجد تعبيرًا له في الإسلام، وإحساسهم بالانتماء إلى الجماعة الذي يجمع بينهم إخوة في الإيمان، واعتزازهم بعروبتهم، وكرمهم، ومضيافيتهم، وكرامتهم والحساب الذي يحملونه لكرامة الآخرين بوصفهم بشرًا مثلهم، ودعابتهم، وشجاعتهم، وصبرهم، واللغة التي يتكلمون بها، وحبهم المشبوب للشعر. ولكن العرب عرق لا ينتج أحسنه إلا في ظل ظروف من الشدة المتناهية، ويضعف نتاجه بمقدار ما تزداد ظروف معيشته رغدًا»(٤).

الهوامش والمراجع:

١ـ الجوبة دورية نصف سنوية كانت تصدرها مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية. والمقالة السابقة بعنوان «من سكاكا إلى جبه على ظهور الهجن» أعدت للجوبة.

2 - Wilfard Thesiger, Arabian Sands, Dubai, Motvate Pub., 1996 P. 287

٣ـ قصيدة للشاعر مرشد البذال، انظر عبدالرحمن بن أحمد السديري، القصائد، الرياض، مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م الأبيات ٦٦ ـ ٧٥ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

4 -Thesiger P. 87

الرسم المصحفي

محمد السيد علي بلاسي

لقد قدس الله - سبحانه وتعالى - قرآنه المجيد، ومن مظاهر ذلك : الرسم المصحفي، ويراد به الوضع الذي ارتضاه سيدنا عثمان - رضي الله عنه - في كتابة كلمات القرآن وحروفه؛ إذ إن الأصل في المكتوب أن يكون موافقًا تمام الموافقة للمنطوق، من غير زيادة ولانقص، ولا تبديل ولا تغيير..



ولكن المصاحف العثمانية قد أهمل فيها هذا الأصل، فوجدت بها حروف كثيرة جاء رسمها مخالفًا لأداء النطق؛ وذلك لأغراض شريفة ظهرت، ومنها ماهو مكنون على أسرار كتاب الله، التي تفسر يومًا بعد آخر(١)؟

مزايا الرسم المصحفي

للرسم العثماني مزايا وأغراض عديدة، منها(٢):

- أن الرسم العثماني يدلّ على القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة. ولتوضيح ذلك: رسمت: *تكادُ السمواتُ*. **الشورى**:٥. هكذا «ىكاد السموات ىىفطرں» من غير ضبط ولانقط، فهي برسمها هكذا تحتمل قراءة نافع والكسائي بالياء: «يكاد السموات» كما تحتمل قراءة الباقين من السبعة بالتاء: «تكاد». وقراءة حفص والكسائي «تتفطرن» بالتاء وفتح الطاء مشددة. وقراءة الباقين بالنون وكسر الطاء مخففة «تنفطرن».

- إفادة المعاني المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة . وذلك نحو قطع «أم » في قوله تعالى: *أم مَنْ يكونُ عليهمْ وكيلاً*. **النساء**: ١٠٩ . ووصلها في قوله تعالى: *أمّن يمشي سويًا على صراط مستقيم*. **الملك**:٢٢. إذ كتبت هكذا «أمّن» بإدغام الميم الأولى في الثانية، وكتابتهما ميمًا واحدة مشددة ؛ فقطع «أم» في الآية الأولى في الكتابة للدلالة على أنها أم المنقطعة التي هي بمعنى بلْ، ووصل أم الثانية للدلالة على أنها ليست كتلك !؟

- الدلالة على معنى خفيّ دقيق. كزيادة الياء في كتابة كلمة «أيد» من قوله تعالى: *والسماءَ بَنَيْنَاها بأييْد* **الذاريات**:٤٧. إذ كتبت هكذا «بأييد» - بياءين-، وذلكَ للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء، وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة: «زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى»!

ومن هذا القبيل: حذف الواو من قوله: *ويَدْعُ الإنسانُ* **الإسراء**:١١. *ويَمْحُ اللهُ الباطلَ* **الشورى**:٢٤، للدلالة على



سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل، وشدة قبول المنفعل للتأثر به في الوجود !؟

– إفادة بعض اللغات الفصيحة . مثل قوله سبحانه وتعالى : *يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه* **هود:١٠٥**، كتب بحذف الياء هكذا «يأت» للدلالة على لغة هذيل!

– حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال، ولا يتكلموا على هذا الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح في الجملة.

وينضوي تحت هذه الفائدة مزيتان:

– التوثق من ألفاظ القرآن وطريقة أدائه وحسن ترتيله وتجويده. فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف، مهما تكن قاعدة رسمه واصطلاح كتابته؛ فقد تخطىء المطبعة في الطبع، وقد يخفى على القارىء بعض أحكام تجويده، كالقلقلة والإظهار والإخفاء والإدغام والرَّوْم والإشمام ونحوها، فضلاً عن خفاء تطبيقها.

ولهذا قرر العلماء : أنه لا يجوز التعويل على المصاحف وحدها. بل لا بد من التثبت في الأداء والقراءة، بالأخذ عن حافظ ثقة. وإن كنت في شك فقل لي بربك: هل يستطيع المصحف وحده بأي رسم يكون، أن يدل قارئاً - أيا كان - على النطق الصحيح بفواتح السور الكريمة، مثل «كهيعص، حم، عسق، طسم»؟! ومن هذا الباب الروم والإشمام في قوله سبحانه : *مالك لا تأمنا على يوسف* **يوسف:١١ من كلمة «لا تأمنا»**.

– اتصال السند برسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وتلك خاصية من خواص هذه الأمة الإسلامية امتازت بها من سائر الأمم.

يرى فريق من العلماء، أن الرسم المصحفي توقيفي لا تجوز مخالفته ، لأن للرسم العثماني أسرارًا

هل الرسم المصحفي توقيفي ؟

لقد انقسم علماؤنا الأجلاء عند الإجابة عن هذا السؤال إلى فرق ثلاث:

الفريق الأول

يرى أن الرسم المصحفي توقيفي لا





تجوز مخالفته. وذلك مذهب الجمهور، واستدلوا بأن النبيّ – صلى الله عليه وسلم – كان له كُتّاب يكتبون الوحي، وقد كتبوا القرآن فعلاً بهذا الرسم، وأقرهم الرسول على كتابتهم، ومضى عهده صلى الله عليه وسلم والقرآن على هذه الكتبة لم يحدث فيه تغيير ولاتبديل. بل ذكر أنه صلى الله عليه وسلم كان يضع الدستور لكُتّاب الوحي في رسم القرآن وكتابته. ومن ذلك قوله لمعاوية – وهو من كتبة الوحي –: «ألق الدّواة وحرّف القلم، وانصب الباء وفرّق السين، ولاتعوّر الميم، وحسّن الله، ومدّ الرحمن، الرحيم، وضع قلمك على أذنك اليسرى، فإنه أذكر لك».

ثم جاء أبو بكر فكتب القرآن بهذا الرسم في المصحف، ثم حذا حذوه عثمان في خلافته، فاستنسخ تلك الصحف في مصاحف على تلك الكتبة، وأقر أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم – عمل أبي بكر وعثمان – رضي الله عنهم أجمعين، وانتهى الأمر بعد ذلك إلى التابعين وتابعي التابعين، فلم يخالف أحد منهم في هذا الرسم، ولم ينقل أن أحداً منهم فكّر أن يستبدل به رسماً آخر من الرسوم التي حدثت في عهد ازدهار التأليف، ونشاط التدوين، وتقدّم العلوم. بل بقي الرسم العثماني مُحتَرَماً متَّبعاً في كتابة المصاحف لا يمس استقلاله، ولا يباح حماه!(٣).

كما احتج هذا الفريق بأن للرسم العثماني أسراراً – كالتي سقناها آنفاً– ؛ لذا يجب التزام هذا الرسم، ويستشهدون على ذلك بقول إمامين جليلين من أئمة المذاهب.

فقد سئل الإمام مالك : هل يكتب المصحف على ما أحدث الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا على الكتبة الأولى.

والإمام أحمد بن حنبل يقول: «تحرم مخالفة خط عثمان في ياء أو ألف أو واو أو غيره»(٤). وجاء في حواشي المنهج في فقه الشافعية مانصه : «كلمة (الربا) تكتب بالواو والألف كما جاء في الرسم العثماني، ولاتكتب في القرآن بالياء أو الألف؛ لأن رسمه سنة متبعة»(٥).

وجاء في المحيط البرهاني في فقه الحنفية مانصه: «إنه ينبغي ألا يكتب المصحف بغير الرسم العثماني»(٦).

وقد أثيرت هذه المسألة في زماننا، وكان للجنة الفتوى بالأزهر الشريف إسهام فيها، إذ رأت الوقوف عند المأثور من كتابة المصحف وهجائه، واحتجت لما رأته: بأن القرآن كتب في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم– برسم كتبت به مصاحف عثمان. واستمر المصحف مكتوباً بهذا الرسم في عهد الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والأئمة المجتهدين في عصورهم المختلفة، ولم ينقل عن أحد من هؤلاء جميعاً أنه رأى تغيير هجاء المصحف عما رُسم به أولاً إلى تلك القواعد التي حدثت في عهد ازدهار التأليف في البصرة والكوفة...(٧).

ورأى حفني ناصف – عليه رحمة الله –: وجوب المحافظة على الرسم العثماني، لمعرفة القراءة المقبولة



نموذج من خط ناسخ المصاحف المشهور عثمان أفندي

والمردودة، وفي المحافظة احتياط شديد لبقاء القرآن على أصله لفظاً وكتابة، فلا يفتح فيه باب الاستحسان» (٨).

الفريق الثاني

يرى أن رسم المصاحف اصطلاحي لا توقيفي؛ وعليه فتجوز مخالفته. وممن جنح إلى هذا الرأي ابن خلدون في «مقدمته»، وتحمس له القاضي أبو بكر الباقلاني في «الانتصار».

ويرى هذا الفريق « أن ما في الرسم العثماني من زيادات أو حذوف لم يكن توقيفا أوحي به من الله إلى رسوله. ولو كان كذلك لآمنا به وحرصنا عليه، بل إن هذا الفريق ليذهب إلى ماهو أبعد من ذلك؛ فيرى أن هذا الرسم بما فيه من زيادات أو حذوف أو غيرها هو خطأ من الكتّاب!!(٩).

يقول ابن خلدون: «فقد كان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط؛ لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع، وانظر ماوقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها»! (١٠).

هذا ولقد رُدّ على هذا الفريق بما يلي: (١١):

- بالأدلة التي ساقها جمهور العلماء لتأييد مذهبهم، والتي كان بعضها من السنة، وبعضها الآخر من إجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم.



نموذج آخر من خط عثمان أفندي

– أن ما ادعاه بعضهم من أنه ليس في نصوص السنة مايوجب ذلك، ويدل عليه – مردود بما سبق من إقرار الرسول كتّاب الوحي على هذا الرسم، ومنهم زيد بن ثابت الذي كتب المصحف لأبي بكر، وكتب المصاحف لعثمان.. والحديث الآنف، وفيه يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – لمعاوية : «ألق الدّواة وحرِّف القلم.. إلخ»؛ فإنه حجة على أنه صلى الله عليه وسلم كان واضع دستور الرسم لهم.

الفريق الثالث

ويتزعمه سلطان العلماء العز بن عبدالسلام، وتبعه صاحب «التبيان»، ومن قبله صاحب «البرهان».

وذهبوا إلى أنه يجوز، بل تجب كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة الشائعة عندهم، ولاتجوز كتابته لهم بالرسم العثماني الأول، لئلا يوقع في تغيير من الجهال. ولكن يجب في الوقت نفسه المحافظة على الرسم العثماني، كأثر من الآثار النفيسة الموروثة عن سلفنا الصالح، فلا يهمل مراعاة لجهل الجاهلين، بل يبقى في أيدي العارفين الذين لا تخلو منهم الأرض (١٢).

يقول الشيخ عز الدين بن عبدالسلام: «لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسم الأول باصطلاح الأئمة؛ لئلا يوقع في تغيير من الجهال، ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه؛ لئلا يؤدي إلى دروس العلم، وشيء قد أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين. «ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة» أ. هـ (١٣).

فريق ثان من العلماء - من بينهم ابن خلدون - يرى أن رسم المصاحف اصطلاحي لا توقيفي؛ وعليه فتجوز مخالفته

ولقد مال إلى هذا الرأي من المحدثين الدكتور عبدالفتاح إسماعيل شلبي؛ إذ يقول: إن كل دعوة لإضافة أي جديد للرسم العثماني كانت تتلقى بالتحرج أولاً، ولكنها - على الرغم من ذلك - أخذت طريقها إلى الرسم؛ إيماناً من القائمين بها بأن فيها بياناً وتوضيحاً..

لقد كان المصحف خالياً من النقط، ولما اتجه بعضهم إلى نقطه رأينا من يقف دون ذلك ويقول: جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء، ثم كان أن ترخص العلماء فيه، وقالوا: العجْم نور الكتاب، وأنه لا بأس به مالم تبغوا.

وبدأ أبو الأسود الدؤلي بالنقط في الحركات والتنوين لاغير. وجعل الخليل بن أحمد الهمز والتشديد والروم والإشمام ، وقفا الناس في ذلك أثرهما، واتبعوا فيه سنتهما(١٤).

أقول : إن رسم القرآن سر من أسرار الله المشاهدة، خصّ الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية! وبما أن الإعجام والضبط ظاهرة لغوية عامة طرأت على العربية؛ فلاحرج أن يلحق ذلك بالرسم المصحفي - فيما أرى - مادام هذا لايغير شكل الرسم العام، الذي هو مكمن السر. أما كتابة القرآن بالطريقة الإملائية ففيه من الخطر ما فيه، حيث يكتب هؤلاء بطريقة وأولئك بأخرى، وتتطور الطرق؛ مما يحدث اللبس ؟! فيتعلم كل مسلم أصول الرسم المصحفي كما يتعلم أصول العبادات، والله أعلم.

المراجع:

١ – مناهل العرفان في علوم القرآن: للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، ٣٦٩/١ بتصرف، ط. عيسى البابي الحلبي، د.ت.
٢ – انظر : المرجع السابق: ٣٧٣/١ ومابعدها. وراجع: رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات: د. عبدالفتاح إسماعيل شلبي، ص ١١٤ومابعدها، ط. دار نهضة مصر سنة ١٣٨٠هـ ؛ تجد مزيداً من التفصيل.
٣– مناهل العرفان في علوم القرآن: ص ٣٧٧، بتصرف يسير.
٤– رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات: ص ١١٦، ١١٧، نقلاً عن المحكم: ص ١٥.
٥– مناهل العرفان في علوم القرآن: ص ٣٧٩.
٦– المرجع والصفحة نفساهما.
٧– رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات: ص١١٨، نقلاً عن مجلة الرسالة: العدد ٢١٦، سنة ١٩٣٧م.
٨– المرجع السابق: ص ١١٨، نقلاً بتلخيص عن مجلة المقتطف : عدد يوليو / تموز سنة ١٩٣٣م .
٩– المرجع نفسه: ص ١١٩، بتصرف يسير.
١٠– مقدمة ابن خلدون: ص ٤١٩، ط. مصطفى محمد.
١١– مناهل العرفان في علوم القرآن: ص ٣٨١ –٣٨٢، بتصرف يسير، وراجع مابعدهما من صفحات تجد مزيدا من التفصيل.
١٢– مناهل العرفان في علوم القرآن: ص ٣٨٥، بتصرف، وراجع: رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات: ص١٢١ ومابعدها؛ تجد مزيدا من الإيضاح.
١٣– مناهل العرفان في علوم القرآن: ص ٣٨٥.
١٤– رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات: ص١٢١.

التلاعب بالعقول
فنونٌ وفنونٌ !!

غسان حتاحت

العقل البشري معجزة يعجز العلم عن إدراك مداها فضلاً عن معرفة أسرارها. وهذا العقل هو الذي يميز الإنسان من سائر المخلوقات، ويرفعه فوقها درجات ودرجات. وهو مركز التعلم والإبداع، والعواطف والذاكرة، والإدراك والمحاكمة، ويغدو الإنسان من دونه كالبهائم السائبة أو الجمادات العاطلة.



التأثير في العقل الباطن هدف الدعاية

ومع ذلك، فهذا العقل - على قوته وأهميته - مُعرَّضٌ للتلاعب به، والتأثير فيه بطرق شتى كثيرة ومتنوعة.

من هذه الطرق مثلاً الدعايات التي يعرضها التلفاز لترويج سلعة ما، أو إقناع المرء بشراء بضاعة لا يكون في حاجة إليها غالبًا. وترى هذه الدعايات تستخدم معطيات التقنية الحديثة، فتبهر المشاهد بألوانها البراقة وموسيقاها الصاخبة. فضلاً عن الصبايا الحسان اللاتي يتحدثن بدلال وغنج عن مزايا ما يُعلنّ عنه، ثم يُتْبعن حديثهن بأغنية لطيفة أو رقصة رشيقة.

مشاهد لا تراها العين

ومن هذه الطرق ما يعمد إلى استخدام وسائل غير سليمة، كأن يضمنوا الدعاية لقطات متقطعة تعرض مدة وجيزة أقصر مما تحتاج إليه العين، كي تبصرها، فتؤثر هذه اللقطات في العقل الباطن مباشرة من دون أن تراها العين أو يدركها العقل الواعي. ويكون مكتوبًا في هذه اللقطات عبارات تحضّ على الشراء وترغّب فيه. ولقد استعملت هذه الطريقة في بعض أفلام الرعب، فكانوا يضمنون الفيلم صوراً مرعبة، كصورة شخص قتيل، أو خنجر مدمٍ، أو دماء سائلة. فلا ترى العين هذه الصور، لكن العقل الباطن يحس بها مما يجعل الفيلم أكثر رعباً وأشد إثارة على أن ثمة طرقًا أخرى للتلاعب



كيف ينجو المرء من تأثيرات المتلاعبين بالعقول؟

بالعقل، ولإقناع المرء بأفكار أو آراء على الرغم منه. ولقد أبدع الاختصاصيون فيها حتى غدت فنًا قائمًا بذاته.

سجناء وسجانون

وسأعرض هنا تجربتين أجراهما علماء النفس لبيان كيفية التأثير في العقل بطرق شديدة القسوة حتى لتكاد تبلغ ما يسمى بغسيل الدماغ.

أجريت التجربة الأولى على مجموعة من المتطوعين من طلاب إحدى الجامعات في الولايات المتحدة، إذ قسم الاختصاصيون هذه المجموعة المتماثلة إلى فئتين، عاملوا الفئة الأولى وكأنهم مسجونون، بينما جعلوا الفئة الثانية سجانين.

ثم وضعوا المسجونين في غرف جماعية، وعرّضوهم لضغوط نفسية وجسمية، وأصدروا إليهم جملة تعليمات كلفوهم تنفيذها، في حين طلبوا من السجانين مراقبة تلك التعليمات وتطبيق العقوبات التي يرونها ضرورية عند مخالفة المسجونين لذلك. وفوجئ الدارسون؛ فقد تحول السجانون (وهم في الواقع زملاء المسجونين وأصدقاؤهم) إلى سجانين حقًا. إذ أخذوا يطبقون العقوبات بمنتهى الشدّة، بل يقترحون عقوبات أصعب حاولوا تنفيذها بعنف وقسوة.

وهنا أُنهيت التجربة قبل أن يحصل ما لا تحمد عقباه.

نوع من غسيل الدماغ

أما التجربة الثانية فأُجريت في الولايات المتحدة أيضًا على طلاب من الجامعة تطوعوا لذلك. إذ انتقى الدارسون مجموعة متماثلة من الشبان، ثم قسموها فئتين أيضًا، وضعوا إحداهما في غرفة جماعية ووضعوا الثانية في غرفة أخرى.

أما الفئة الأولى فأخذوا يقسون عليها في المعاملة، ويهينونها بكلام جارح، ويحاولون أن يحطموا ثقتها بأنفسها، وينقصوا من احترامها لذواتها بالسباب والشتائم والإهانات المتكررة. فضلاً عن عزلها عن المحيط، إذ منعوا عنهم الصحف والمجلات وسماع الإذاعة ومشاهدة التلفاز والمحادثة فيما بينهم.

أما الفئة الثانية، فتركوا لأفرادها حريتهم وكأنهم قاعدون في ناد من النوادي. وسمحوا لهم بمشاهدة التلفاز وسماع الإذاعة وقراءة الكتب ومطالعة المجلات، والتدخين، على ما فيه من ضرر لمن أراد ذلك، ولم يوجهوا إليهم أية إهانات أو كلام قاس.

وحان وقت الطعام، وجلب الدارسون أطباقًا تحوي طعامًا، وقدموه إلى الفئة الثانية على أنه

يحوي ديدان الأرض، فما كان من أفراد هذه الفئة إلا أن ثاروا واعترضوا على ذلك، ورفضوا تناول الطعام، وأسمعوا الفاحصين كلاماً قاسياً.

وفي الوقت نفسه قدم الدارسون هذه الأطباق إلى الفئة الأولى التي تعرضت من قبل لضغوط نفسية وأحوال سيئة، فما كان من أفرادها جميعاً إلا أن مدوا أيديهم لتناول الطعام المكون كما يعتقدون من دود الأرض. فكان أن أنهى الدارسون التجربة عند ذلك الحد.

يلاحظ من هاتين التجربتين أن وضع المرء في موضع يتعرض فيه لضغوط نفسية، أو أحوال سيئة يجعله يفقد الكثير من احترامه لذاته وثقته بنفسه مما يجعله مؤهباً للإيحاء والتأثير السيئ في العقل أو ما يسمى بغسيل الدماغ.

كما يلاحظ أن وضع المرء في موضع ما يجعله مباشرة يتخذ الصفات الملازمة للمكان الذي وضع فيه، أو المهمة التي أوكلت إليه سيئة كانت أم جيدة.

إن هذه التجارب وأمثالها ترشدنا إلى ما يمكن أن يفعله المرء كي ينجو ممن يحاول أن يتلاعب بعقله وتفكيره ويحوله إلى ما يشبه «الزُمبي» وهو ذلك المخلوق ذو الملامح الجامدة الذي لا يحس ولا يفهم ولا يفكر وكأنه بهيمة من البهائم السائبة.

وبما أن التجارب الآنفة كانت عن السجون ووضع المرء في موضع يحد من حريته لذلك سأذكر كيف يمكن التغلب على التلاعب بالعقول في المثال نفسه.

إن أول ما يساعد على ذلك أن يكون المرء معتمداً على قاعدة نفسية سليمة، فالذي ينشأ في أسرة متماسكة محبة، يرتبط أفرادها بعلاقات قوية، يكون أقدر على التحمل من شخص نشأ في أسرة مفككة لا تجمع بين أفرادها محبة أو مشاركة وجدانية أو تضامن.

ومما يساعد أيضاً أن تكون ثقة المرء بنفسه وإمكاناته قوية، وأن تكون لديه القدرة على السيطرة على سلوكه وتصرفاته ورغباته ومشاعره.

الإيمان بعقيدة دينية يعطي المرء قوة وصلابة وعزمًا، ويجعله يحتمل ويصبر

ففي تجربة المسجونين والسجانين مثلاً تتحول العلاقة بين المسجون والسجان إلى علاقة تشبه علاقة الطفل بأبيه، إذ يعتمد المسجون على السجان في طعامه وشرابه، والإذن له بالذهاب إلى المرحاض مثلاً. وهنا يمكن لمن كان قوي الثقة بنفسه وإمكاناته أن يظل محافظاً على السيطرة على سلوكه وتصرفاته، فعندما يجلب السجان الطعام إليه، يمكن أن يرفض تناول بعض أنواعه مما يجعله يحس أنه قادر على الاختيار، وليس عبداً مسيراً لسجانه ينفذ كل ما يقوله له.

ومن الصفات التي تجعل التلاعب بالعقول صعباً أن يحترم المرء نفسه، ذلك أنه عندما يشعر بالاحترام لذاته، فإن الإهانات والسباب لن تؤثر فيه؛ لأنه يعلم أن ذلك غير صحيح. وأن من يوجهه إليه أقل منه قدراً وقيمة وأهمية.

وإن المحافظة على حالة صحية جيدة، وممارسة بعض التمارين الرياضية، ومحاولة وضع برنامج للنشاطات اليومية المحدودة، كل ذلك يقوي من شخصية المرء.

ومن ذلك أن يشغل المرء فكره بأشياء تجلب إليه الرضا، كأن يفكر بالأيام الماضية السعيدة، أو يسترجع في ذاكرته ما يحب أن يتذكره من ذكريات الطفولة، أو كتاب قرأه فأعجبه، أو فيلم شاهده، فنال استحسانه، مما يشغل فكره فيجعله غير قابل للتأثير فيه بسهولة.

كما أن التعاون بين المرء وزملائه الذين يعيشون مشكلته نفسها يخلق جواً من الأخوة والمودة مما يخفف من صعوبة المعاناة.

ولا شك في أن الإيمان بعقيدة دينية يعطي المرء قوة وصلابة وعزماً، ويجعله يحتمل ويصبر، فلقد صبر أيوب من قبل، لأنه كان راسخ العقيدة، ولقد صبر أولو العزم من الرسل وما ذلك إلا لقوة إيمانهم ومتانة عقيدتهم وشدة عزمهم.

إن ما ذكرته يجعل التلاعب بالعقول وغسيل الدماغ أكثر صعوبة، ولكنه لن يجعله متعذراً أو مستحيلاً. فالمتلاعبون بالعقول اختصاصيون بارعون في علمهم وعملهم، ولديهم في هذا المجال فنون وفنون.

ولكن لا بأس في جعل مهمتهم أشد صعوبة وتعباً، وجعل الوصول إلى غايتهم أكثر مشقة.

استطلاع

سويسرا
عناق الحضارة والجمال

عمر فوزي نجاري

بدأت الطائرة في الهبوط تدريجيًا مخترقة طبقة الغيوم المنخفضة، فأصبح بالإمكان رؤية طبيعة سويسرا الرائعة من خلال نافذة الطائرة، الأرض بساط سندسي من العشب الأخضر، تجمعات سكنية بأشكالها الهندسية الجميلة متناثرة عبر الطبيعة، نهر يسير متلويًا عبر السهول الخضراء، جزر من البحيرات المتناثرة بمساحات مختلفة، غابات من الأشجار هنا وهناك.. وعن بعد تشاهد مجموعات من الجبال بارتفاعات مختلفة تغطي قممها الثلوج البيضاء.



طبيعة شديدة التنوع والجمال معًا

الوصول إلى مطار زيوريخ

يعدّ مطار «زيوريخ» من أكبر المطارات في العالم وأضخمها، وهو المطار الرئيس في سويسرا، ويقدر عدد العاملين فيه بنحو اثني عشر ألف موظف، أمّا حركة الطائرات فهي بمعدل طائرتين في الدقيقة تقريباً؛ ولذلك فإن عدد بواباته يصل إلى التسعين تقريباً لتأمين سهولة حركة الركاب ذهاباً وإياباً، وعلى الرغم من الأعداد الضخمة للمسافرين التي تصل إلى عشرات الآلاف والتي تعبر المطار يومياً، فإنّ المطار يحافظ على نظافته الفائقة والتي يندر أن تشاهدها في مطار آخر، علاوة على سهولة عبور المسافر للحواجز الجمركية والأمنية في المطار؛ إذ بإمكان المسافر أن يتجاوزها خلال دقائق معدودة، وبكل سهولة ويسر ليصبح خارج المطار.

سويسرا والشعب السويسري

تتألف سويسرا من ٢٦ كانتونا، ويعدّ كانتون شفايتز SCHWYZ نواة الاتحاد السويسري، فهو يقع جغرافياً في منتصف سويسرا، وقد أخذت سويسرا اسمها من اسم هذا الكانتون SCHWYZ؛ لأن سويسرا تعني بالألمانية شفايتز SCHWYZ. أما مساحتها فتقدر بنحو ٤١ ألف كم٢، ويصل عدد سكانها إلى نحو ستة ملايين نسمة ونصف المليون، وهي بلد غني جداً بمصادر المياه، فحيثما توجهت تصادفك البحيرات والأنهار والشلالات.. مما يضفي على طبيعتها الرائعة رونقاً خاصاً يجعلها تمتلك لب كل زائر لها.











مناظر متنوعة من (سيير)

وسويسرا بلد لم يخض حرباً منذ ثلاثمئة عام تقريباً؛ ولعل هذا أحد العوامل التي ساهمت في ازدهارها وقوتها واستقرارها. وهي تخضع لنظام حكم فيدرالي - لا مركزي - إذ يحكمها سبعة أشخاص منتخبون، وهم موظفون برواتب عالية لأجل تمثيل الدولة تجاه الدول الأخرى. ولتسيير أمور الجيش والاقتصاد والسياسة، أما بالنسبة إلى الأمور الداخلية فالمواطنون يسيّرونها بالتصويت!!.

ومن الجدير ذكره هنا أن صحفيَّيْن قاما بزيارة لرئيس الدولة في شقته الكائنة في أحد الأبنية فاستقبلهما بنفسه، وقام هو شخصياً بإعداد القهوة لهما، لأنه لا خدم عنده ولا حشم ولا مرافقين ولا حراس، علاوة على أنه لا يقيم في قصرٍ ولا دارة (فيلا)، وإنما في شقة عادية كبقية المواطنين.

ويغلب على المجتمع السويسري الطابع الأخلاقي، ولذلك فهم شعب متحضر، فالفرد منهم يربى منذ الصغر على الصدق والأمانة، واحترام النظام والقانون، وعلى رقابة سيطرة الضمير، والكل هناك يعرف حقوقه وواجباته، ويعي أنّ الآخر شخص له قيمته وأهميته، وله حقوقه وواجباته أيضاً.

هم قوم لهم طريقة تفكير خاصة بهم، وهي مختلفة تماماً عن طريقة تفكيرنا نحن عرب القرن العشرين، لهم عقلية تشجع العمل المنتج وتحترمه أيّاً كان.. إنّه مجتمع يحب العمل، ويحب إتقان العمل، ويعطي للعمل حقه، فوقت العمل هو للعمل فقط، ولعل هذا أحد أسرار نجاحهم.. هم قوم ينامون باكراً ليستيقظوا باكراً لكي يتجهوا إلى أعمالهم.

هم قوم عشقوا النور فبددوا الظلام.. واستبدلوا الورد بالشوك، والحقيقة بالسراب، وبظلمة الليل ضياء النهار.. وطبقوا المثل



تتألف سويسرا من ٢٦ كانتوناً أهمها كانتون شفايتز الذي أخذت منه اسمها

الأمريكي القائل: «إذا لم تأت الفرصة إليك فالأفضل أن تذهب أنت إليها»، إنها الروح الحضارية التي تحرص على إنجاح أي مشروع يقومون به.

هم شعب مسالم ودود، يلقي عليك التحية كل من تصادفه في الطريق!! ألم يأمرنا بذلك رسولنا الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: «أفشوا السلام بينكم»!!

وقد تفشت بينهم مؤخراً صرعة الزواج من الزنجيات والآسيويات، وغالباً ما يكون الزوج رجلاً تجاوز الخمسين عاماً، وأمّا الزوجة فهي في العقد الثالث من عمرها وبصحبتهما أولادهما، وهم مزيج من الشقرة الأوروبية، والسواد الزنجي، والصُّفرة الآسيوية!.

اليد العاملة عندهم غالية، ولذلك فإنّ الأمور الخدمية مكلفة، ومن ثم تكون المواد المصنعة محلياً مرتفعة الأثمان، أمّا المواد المستوردة فهي رخيصة الثمن.. وهم بخفضهم لأسعار المواد المستوردة يذلونها!! ويكرمون منتجاتهم الوطنية برفع أسعارها.

الاستعداد للقرن الحادي والعشرين

يوجد في سويسرا أربعة مطارات، ولكل منها موقعه المميز ومهامه الخاصة به، فمطار لوغانو الواقع في الجنوب قرب الحدود الإيطالية يصل شمال إيطاليا بأوربا عبر سويسرا، ومطار جنيف الواقع قرب الحدود الفرنسية يربط إفريقية والشرق الأوسط بأوربا وفرنسا، أمّا مطار بال القريب من الحدود مع ألمانيا فهو صلة الوصل بين أوربا وألمانيا، وأما مطار زيوريخ فهو المطار الرئيس في سويسرا إذ يصل سويسرا بالعالم أجمع، وهو يقع بالقرب من مدينة زيوريخ السويسرية التي تشكل أحد رؤوس المثلث الجغرافي المؤلف من (زيوريخ، ميونيخ، شتوتغارد)، الذي



الجيش السويسري من أكثر جيوش العالم تدريباً

هو أرقى منطقة في أوربا قاطبة؛ إذ يعدّ هذا المثلث مركز إشعاع للرقي والمدنية. يتراجع نوره ويخفت تدريجياً كلما ابتعدنا عن أضلاعه.

إن الكثير من الأوربيين لا يعرفون حقيقة أنّ برن هي عاصمة سويسرا، وقد لا يعرف هذه الحقيقة سوى سكان سويسرا، ذلك أن مدينة زيوريخ هي المدينة المسؤولة عن علاقات سويسرا مع أوربا، ومن ثم فهي بالنسبة إلى الأوربيين عاصمة سويسرا!!.

أمّا جنيف فهي المدينة المسؤولة عن العلاقات مع إفريقية والشرق الأوسط، وبقية أنحاء العالم، وحقوق الإنسان!!.

كما تشهد سويسرا حالياً حركة استعداد ناشطة لاستقبال القرن الحادي والعشرين عن طريق تجديد المطارات والاتصالات والمواصلات والبنية التحتية كاملة، من دون أن يؤثر ذلك في الحياة اليومية للمواطن أو السائح، أي من دون أن يشعر أحد بذلك!!

فبعد عبورك مطارزيوريخ تستقبلك سويسرا بجوها المعطر بعبير الطبيعة البكر حيث الخضار بساط سندسي رائع الجمال يمتد على جانبي الطريق، على امتداد البصر، وحيث الأزهار والورود تتدلى من شرفات المنازل ونوافذها؟!.. وحيث الهدوء الشديد والصمت المطبق اللذان لا يعكرهما سوى زقزقة العصافير وأزيز الحشرات.. نظافة فائقة للتصور، إذ لا يوجد غبار؛ لأنه لا يوجد تراب! فالأرض بأكملها مغطاة ببساط سندسي أخضر!.

الطريق الواصل بين المطار ومدينة زيوريخ واسع ومستو ومريح، وكذا بقية طرق سويسرا، وهي على الرغم من اجتيازها للأودية والجبال والبحيرات والأنهار عبر الجسور والأنفاق، إلاّ أنها تحافظ على استقامتها واستوائها وسهولة السير عليها، وهذا عائد لكون نظام السير والمرور فيها متقناً إتقاناً قلّ أن تجد له مثيلاً في العالم، ومن ثم فحوادث المرور نادرة جداً على كثرة السيارات، وغالباً ما تنجم الحوادث المرورية عن عوامل جوية!..

كانت السماء صحواً إلا من غيوم متناثرة هنا وهناك في كبد السماء مما سمح لي بالاستمتاع بجمال الطبيعة على جانبي الطريق إلى زيوريخ، حيث بإمكان المرء أن يلاحظ أن السويسريين عملوا على استغلال كل شبر من أراضيهم أفضل استغلال، فقطعان الأغنام والأبقار ترعى في المروج، وأمّا أماكن تخزين حليبها ففي صهاريج عمودية إلى جانب المنازل، وأمّا كروم العنب فقد زرعت بامتداد شاقولي لافت للانتباه.. إنهم يسعون لاستغلال أكبر مساحة ممكنة من الأرض.

وعلى الرغم من صغر رقعة سويسرا (فهي تعادل ربع مساحة سورية مثلا) فإنك تشعر في أثناء تنقلك بين أرجائها بأنها بلد كبير جداً، ولعل هذا عائد إلى البراعة في تنظيم شبكة المواصلات الواسعة جداً، فلكل مدينة عدد من المداخل والمخارج، وكل طريق يصل بين بلدتين لابد أن يجتاز عدداً من البحيرات والأودية والبلدات الصغيرة المتناثرة على كامل رقعة سويسرا!.


تجديد المواصلات من مظاهر الاستعداد للقرن القادم

وتمتاز سويسرا بكونها بلد الشركات الضخمة، والمجمعات التجارية المتعددة الشركات، ولعل أشهرها وأكثرها شعبية شركة MIGROWS وهي شركة وطنية لها أكثر من ٢٠٠٠ فرع في سويسرا، وهي ليست شركة لبيع المنتجات فحسب؛ إذ لها فروع تشمل (الضمان) التأمين، والسياحة، والمصارف (البنوك). وهناك شركة GLOBUS تمتاز بغلاء أسعار بضائعها وسلعها.. ومن الشركات الأخرى المشهورة شركة ABB، وهي شركة سويدية - سويسرية مشتركة للتقنيات العالية، ولها فروع في مختلف أنحاء العالم، ولديها قرابة مليوني عامل.

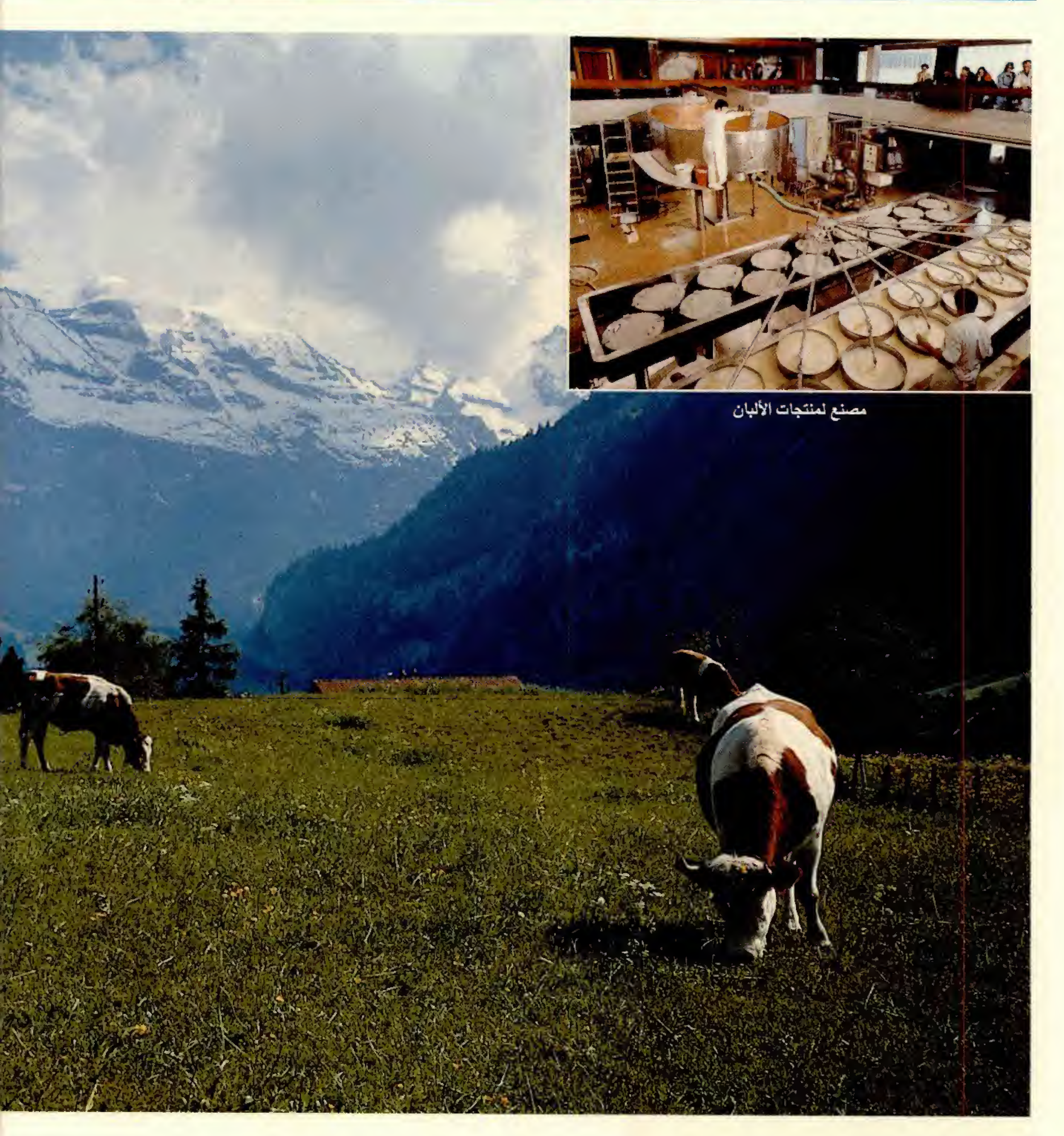
وعند دخولك إلى أحد هذه المجمعات الضخمة تواجهك لوحة كتب عليها بمختلف اللغات (انتبهوا إلى محافظكم) بسبب السرقات التي كثر حدوثها في الآونة الأخيرة، والتي يقوم بها الأوربيون الشرقيون، وأغلبهم قدم من المجر أو التشيك أو بولونيا، وهؤلاء يدخلون سويسرا من دون تأشيرات دخول (فيز)، وقسم منهم يأتي لأجل السرقة وحسب.

قديما قالت العرب: «إذا رأيتم الرجل قد أقبلت عليه الدنيا فالصقوا به فإنّه أجلب للرزق»، وهذا ما حدث مع سويسرا حيث أصبحت ملاذاً وملجأً للمهاجرين من مختلف البلدان، وخصوصاً من الشرق الأوسط وأوربا الشرقية، وقد بدأ هؤلاء المهاجرون يشكلون عبئًا على الحكومة السويسرية التي بدأت بوضع قوانين ضابطة للهجرة والتسلل واللجوء.

زيوريخ

تقع مدينة زيوريخ على بحيرة زيوريخ، ويبلغ عدد سكانها قرابة ٣٠٠ ألف نسمة، وبسبب امتدادها الأفقي على مساحة واسعة فإنك لا تشعر بكثافة سكانها، وعلى الرغم من عدد السيارات الهائل الموجود في زيوريخ إلا أنك لا تواجه مشكلة في التنقل بأية واسطة للنقل كانت بسبب دقة نظام المرور والسير فيها، ولكثرة الأماكن المخصصة لتوقف السيارات والآليات.


التلفريك من وسائل جذب السائحين



مصنع لمنتجات الألبان

وأبنيتها مهيأة للحرب النووية، إذ تحت كل بناء ملجأ مخصص لطوارئ الحرب النووية، ومع أنهم لا يفكرون بخوض أي حرب على الإطلاق، فهم يهتمون بالجيش يدربونه باستمرار، ويجهزونه بأحدث الأسلحة والتقنيات، ومن اللافت للانتباه في هذا المجال اعتماد جيشهم في تنقلاته السريعة على الدراجات الهوائية، وهي دراجات بمواصفات عالية جداً تساعدهم على الحركة بحرية أكثر من السيارات أو الدبابات، وهذا عائد إلى طبيعة بلادهم الخاصة (بحيرات، أنهار جبال، غابات وأودية) مما يجعل تحرك الآليات الثقيلة عبرها بطيئاً.

وقد جهزت أبنية السكن في زيوريخ، علاوة على ملاجئ الحرب النووية، بمرآبات ومغاسل للسيارات تحت الأبنية مباشرة، وذلك لاستغلال رقعة الأرض على أكمل وجه.

الخارجية...إلخ. وهي تقدم لمراجعيها أحدث الخدمات الطبية.

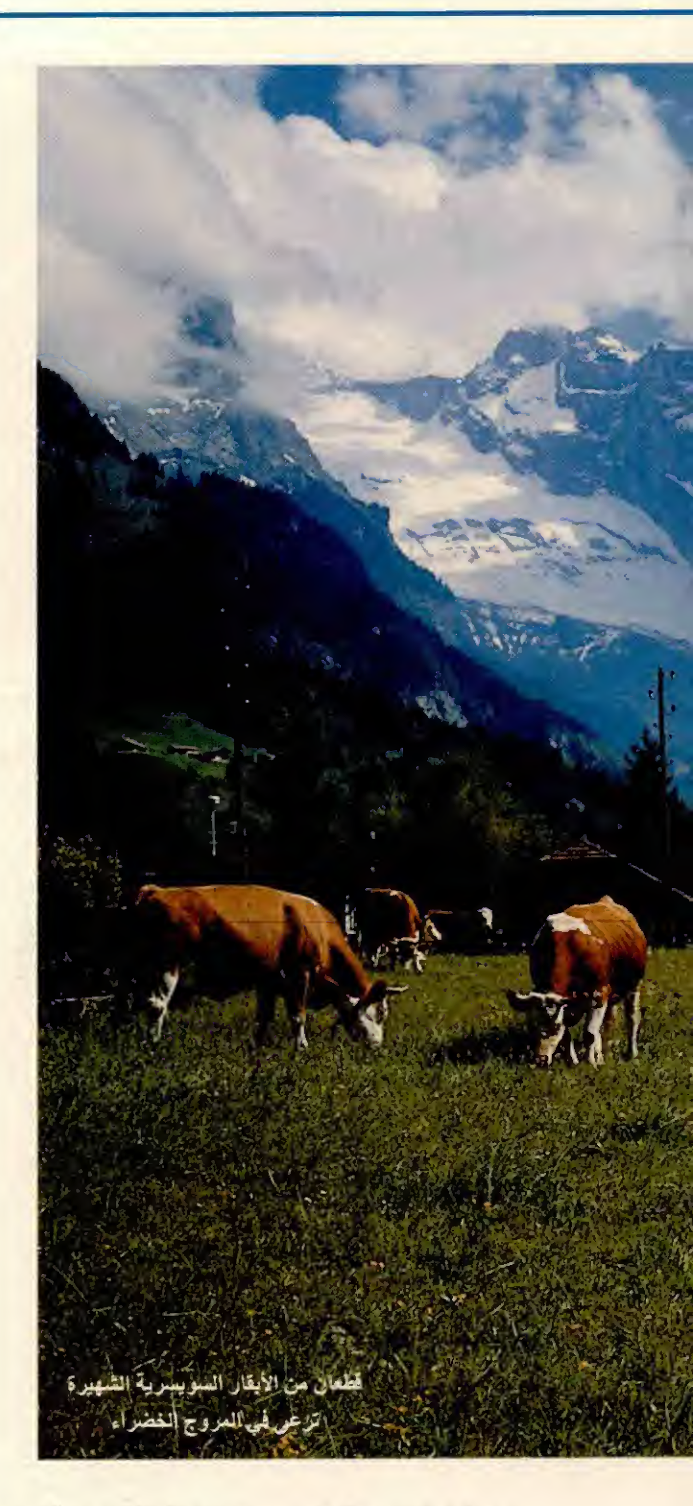
كما تمتاز زيوريخ بمجمعاتها الضخمة، مجمع لتجارة مختلف أنواع السجاد، ومجمع للبلياردو، ومجمع ضخم لدور الصور المتحركة (السينما)...إلخ. وعدد من معارض السيارات الحديثة والمستعملة.

أمّا منطقة (دولدر وجبل الشمس) فهي أغلى وأرقى منطقة في زيوريخ، إذ نظمت أبنيتها على شكل دارات (فيلات) صغيرة يحيط بها الاخضرار والأزهار، وقد تم تشييد حوض اصطناعي للسباحة لكل مجموعة من (الفيلات). وهنالك فندق دولدر لمن يرغب في الإقامة في هذه المنطقة من السياح، وإلى الأسفل منه توجد ملاعب الغولف الواسعة الامتداد على بساط سندسي أخضر.

ولليهود في زيوريخ وجودهم ونفوذهم، وهم يتمركزون في حيين معروفين: الأول: وهو الأرقى، ويعرف باسم حي الأنغا ENGE، حيث يقيم فيه أغنياء اليهود، وهم اليهود الغربيون على الأغلب، والثاني لإقامة اليهود الفقراء، وهم الشرقيون وغالبيتهم من الروس، وهو حي فيديكو WIEDIKON، ويعدّ هذا الحي (فيديكو) من أقذر شوارع سويسرا، وهو حيّ قديم تملأ جدرانه الخربشات، وإلى جانب الأرصفة تجد حاويات القمامة الممتلئة،



من الفلكلور السويسري



قطعان من الأبقار السويسرية الشهيرة ترعى في المروج الخضراء

وحيثما وليت وجهك في زيوريخ تصادفك المصارف التي يقدر عدد فروعها في سويسرا بنحو ٢٠٠٠ فرع، وهي تقدم لزبائنها خدمات غاية في السهولة.

من معالم زيوريخ البارزة جامعتها (جامعة زيوريخ) والمشافي التابعة لها: مشفى للأطفال، ومشفى للأمراض الجلدية، ومشفى للروماتيزم، وبناء ضخم للعيادات

التي لم تعد تتسع إلى المزيد منها، فتلقى القمامة إلى جانب الحاويات على جوانب الطريق، وهي ظاهرة غير مشاهدة في سويسرا إلاّ في هذا الحي. وإلى جانب حاويات القمامة يلفت نظرك باب كبير مكتوب عليه بالحروف العبرية وقد رسمت عليه نجمة داود السداسية، وتشير الكتابة إلى أنّ هذا المكان مدرسة لأبناء اليهود في ذلك الحي.

وفي كلا الحيين تغلق المحال، وتتوقف الأعمال اعتباراً من مساء الجمعة إلى صباح الأحد، كما يمنع مرور السيارات والآليات عبرهما خلال هذه الفترة..وكل ذلك لأجل يوم السبت. ومن غرائب تصرفات اليهود المأخوذة عليهم أنهم لا يركبون سيارات المرسيدس، ربما لأنها ألمانية.

ومن الديانات الأخرى الموجودة في زيوريخ جماعة (هاري كرشنا)، وهي جماعة مهزوزة، وغالباً أتباعها من ذوي العقول غير الناضجة أو المختلين عقلياً.

أمّا المسلمون فلهم وجودهم إلا أنهم مشتتون لاختلاف ثقافاتهم ولغاتهم وجنسياتهم، ولعل (طائفة الأحمدية) أي (القاديانيين) هي الأقوى مادياً لكونها تتلقى إعانات من دول غربية عديدة وعلى رأسها بريطانيا، وتضم هذه الطائفة هنوداً مسلمين يؤمنون بالنبي محمد أو المجدد، وهو مرزا غلام أحمد القادياني - نسبة إلى قرية القاديان التي كان يسكنها - وكان قد ادعى النبوة بدعم من الحكومة البريطانية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وطالب أتباعه بطاعة بريطانيا، وأنها ظل الله على الأرض. وأنّ الجهاد والحج قد نسخا بنبوته. وقد ازداد أتباعه لدرجة شكلوا معها خطراً على الإسلام في الهند والباكستان مما دعا أعضاء مجلس الأمة الباكستاني إلى اتخاذ قرار يعدّ القاديانية فرقة كافرة، وتم فصلها عن جماعة المسلمين في سبتمبر/أيلول ١٩٧٤م.

شاف هاوزه SCHAFFHAUSEN

تقع مدينة شاف هاوزه على مسافة ٤٠ كم شمال مدينة زيوريخ على الحدود الألمانية، ويمتاز أهلها بكونهم محافظين، وهي المدينة السويسرية الوحيدة التي تعرضت للقصف الجوي من قبل الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ظنّاً منهم أنها مدينة ألمانية.

تشتهر هذه المدينة بشلالاتها المعروفة باسم شلالات راين، وقد أقيم بالقرب من هذه الشلالات استراحة كبيرة لبائعي (البوظة والفيشار) والمرطبات، وبما أن المكان يعج بالسياح فقد جرى تنظيم دقيق لحركة السير والتنقل لكل من السيارات والدراجات النارية والهوائية، وحددت أماكن مخصصة لوقوف كل من هذه الآليات، ومن الطريف أنني وجدت أماكن قد خصصت لوقوف عربات الأطفال ذات العجلات الأربع، وللوصول إلى مكان الشلالات لابد من اجتيازك جسراً لتشعر بعده وكأنك في إحدى قلاع القرون الوسطى، ثم تبدأ بعدها بالهبوط على درجات سلم حجري يصل عددها إلى ما يقرب من ٢٢٥ درجة، وقد أقيمت عدة أماكن للاستراحة من عناء هبوط السلم الحجري أو صعوده، ومن خلاله بإمكانك أن تمتع ناظريك بمنظر الشلالات الرائع ومن خلفها تظهر لك مدينة شاف هاوزه المحاذية للشلالات.


منظر عام يتمازج فيه جمال الطبيعة وجمال العمارة



وتعدّ منطقة الشلالات من المعالم السياحية البارزة في سويسرا حيث يؤمها أعداد كبيرة من السياح من مختلف البلدان بما فيها أوربا الشرقية واليابان، ومن اللافت للانتباه أن أغلب السياح من الكهول والمسنين، ويتخللهم عدد من السياح اليهود

الطوال القامة بنظارات بيضاء ولباس أسود نظيف وأنيق. والقبعة الصغيرة التي تغطي ذروة الرأس.

جنيف

الطريق بين زيوريخ وجنيف طريق سهلة وميسرة مع جمال



السياحة تشكل مصدراً رئيساً للدخل الوطني

الطبيعة من حولها حيث الجسور والأنفاق والسهول والأودية والجبال والبحيرات.. والخضرة والجمال حيثما وليت بصرك أو اتجهت بناظريك.. وإذا ما رفعت نظرك إلى السماء يستوقفك منظر الطائرات الشراعية بجمالها حيث تجرها في عنان السماء طائرات مروحية.. إنها إحدى الرياضات التي تستهوي قلوب السويسريين.

وقبل أن تصل إلى مدينة VEVEY، وهي مدينة شركة نسلة المشهورة بإنتاج الحليب، ستقر عيناك برؤية المروج الخضراء والمراعي الواسعة الامتداد حيث تربى فيها قطعان الأبقار.. وبإمكانك، وبكل سهولة ويسر، أن تشاهد الصهاريج التي يجمع فيها الحليب قرب كل منزل؛ وذلك تمهيداً لنقله إلى مصانع شركة نسلة.

وعلى الطريق إلى جنيف عليك بالمرور قرب مدينة FRI-BOURG التي تشتهر بكونها مدينة الجامعات، حيث توجد فيها جامعة كاثوليكية، وهي الجامعة الكاثوليكية الوحيدة في سويسرا، وبالقرب منها تقع معامل شركة CARTEIR للذهب والساعات والأشياء الثمينة، وهي ملك لشركة فرنسية.

وقبل أن تصل إلى جنيف بمسافة طويلة تستقبلك بحيرة جنيف (بحيرة ليمان) الواقعة على الجانب الأيسر من الطريق، وقد أقيم عليها استراحة للمسافرين رائعة الجمال بخدماتها الكاملة من محطة وقود إلى مطاعم وملاعب للأطفال ودورات مياه وحدائق.. خضرة وأزهار ومياه أينما اتجه نظرك.

وعندما تتجاوز منطقة البحيرة وقبل أن تصل إلى جنيف عليك بالمرور قرب مدينة لوزان الشهيرة، وعلى جانبي الطريق إلى لوزان تمتد مزارع التفاح والدراق وكروم العنب وبساتين الذرة ودوار الشمس.. خضار وأزهار.. وفي هذه المنطقة السهلية إلى جنيف يلفت انتباهك الدراجات الهوائية المحمولة على ظهر السيارات المتجهة إلى جنيف حيث يستعملها السويسريون للتنقل ضمن المدن، أو للرياضة المسائية قبل النوم.

تعدّ جنيف عاصمة سويسرا بالنسبة للإفريقيين والشرق أوسطيين حيث تتركز فيها أموال هذه البلدان وأرصدتها المصرفية - ربما بسبب تأثرهم باللغة الفرنسية، التي هي لغة سكان جنيف - حيث يأتي إليها نخبة أهالي تلك البلاد وبخاصة من يرغب منهم بغسل أمواله واستبدالها.. وقد تنبه السويسريون إلى ذلك مؤخراً فبدؤوا بمحاربة عمليات غسل الأموال.

إنّ ما يعادل ربع رقعة مدينة جنيف تملكه الأمم المتحدة. هذه المنظمة التي جاءت إلى الوجود في ٢٦ يونيو/حزيران ١٩٤٥م إثر الحرب العالمية الثانية، وقد خلفت عصبة الأمم التي تشكلت في ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩١٩م عقب الحرب العالمية الأولى. وقرب أبنية هيئة الأمم المتحدة، وفي منتصف ساحة كبيرة أقيم نصب ضخم لكرسي خشبي بثلاث أرجل، أما الرجل الرابعة فهي مهترئة، ولعل هذا إشارة إلى الوضع الذي آلت إليه كراسي عروش الأنظمة التسلطية في بلدان العالم الثالث عقب الانفتاح والنظام العالمي الجديد.

وتشتهر جنيف بـ (نافورتها) المقامة ضمن بحيرة جنيف والتي يصل ارتفاع تدفق الماء منها إلى (١٢٠) متراً، كما تشتهر بكثرة فروع المصارف فيها، ومنها البنك العربي الإسلامي، والبنك العربي السويسري المحدود، وكلها مسميات لها صلة بالعرب، كون العرب يشكلون عصب السياحة والاقتصاد في جنيف مع أنّ أعداد السياح منهم قد تراجع مؤخراً عما كان عليه قبل حرب الخليج الثانية.. وقد بدأ يحل محلهم السياح الروس - من أثرياء العهد الشيوعي البائد - حيث يدفعون أموالاً طائلة نقداً كما كان عليه حال العرب خلال طفرة النفط في السبعينيات من هذا القرن. ومع ذلك، فإن السياحة في جنيف لاتزال تعتمد على العرب، فالموسم السياحي لصيف هذا العام ١٩٩٧م لم يكن جيداً بسبب عدم مجيء الشيخ زايد بن سلطان وصحبه في إجازاتهم الصيفية، لكون الشيخ استبدل باستراحته في جنيف لهذا العام قصره في لندن والذي كان قد اشتراه مؤخراً.

وتعد المنطقة المطلة على البحيرة في جنيف أغلى منطقة في العالم، حيث بني عليها (فيلات) فخمة ورائعة يملكها أثريا.



نافورة بحيرة جنيف الشهيرة

وللوصول إلى لوغانو لابد لك من أن تعبر نفق القديس GOTTHARD أو أن تتسلق جبل GOTTHARD، وفي كلا الطريقين متعة لا توصف، فتسلق الجبل يكشف لك مساحات واسعة من الأراضي السويسرية حتى الحدود الفرنسية والإيطالية، وقد أقيمت عليه استراحات للسياح تمتاز بكون مراحيضها من الطراز العربي، ذلك أن المناطق الجنوبية من أوربا وإيطاليا وفرنسا تتبع الأسلوب العربي وأسلوب المناطق الحارة في بناء المراحيض.

أما نفق القديس GOTTHARD فهو أهم وأطول نفق في أوربا، إذ يبلغ طوله (١٧) كم، وهو مجهز بأجهزة تصوير (كاميرات) لمراقبته، وبأنظمة تهوية متطورة وهواتف SOS للطوارئ، وبفاصل ١٠٠م بين الهاتف والآخر.. ويمتاز هذا النفق بكونه صلة وصل بين جنوب أوربا وشمالها.

وفي مدخل مدينة لوغانو تستقبلك كروم العنب. وأبنيتها ذات الطراز الشرقي، وهي أبنية أكثر فخامة من أبنية باقي المدن السويسرية لكونها أكثر شبهاً بالطراز الإيطالي والشرقي.

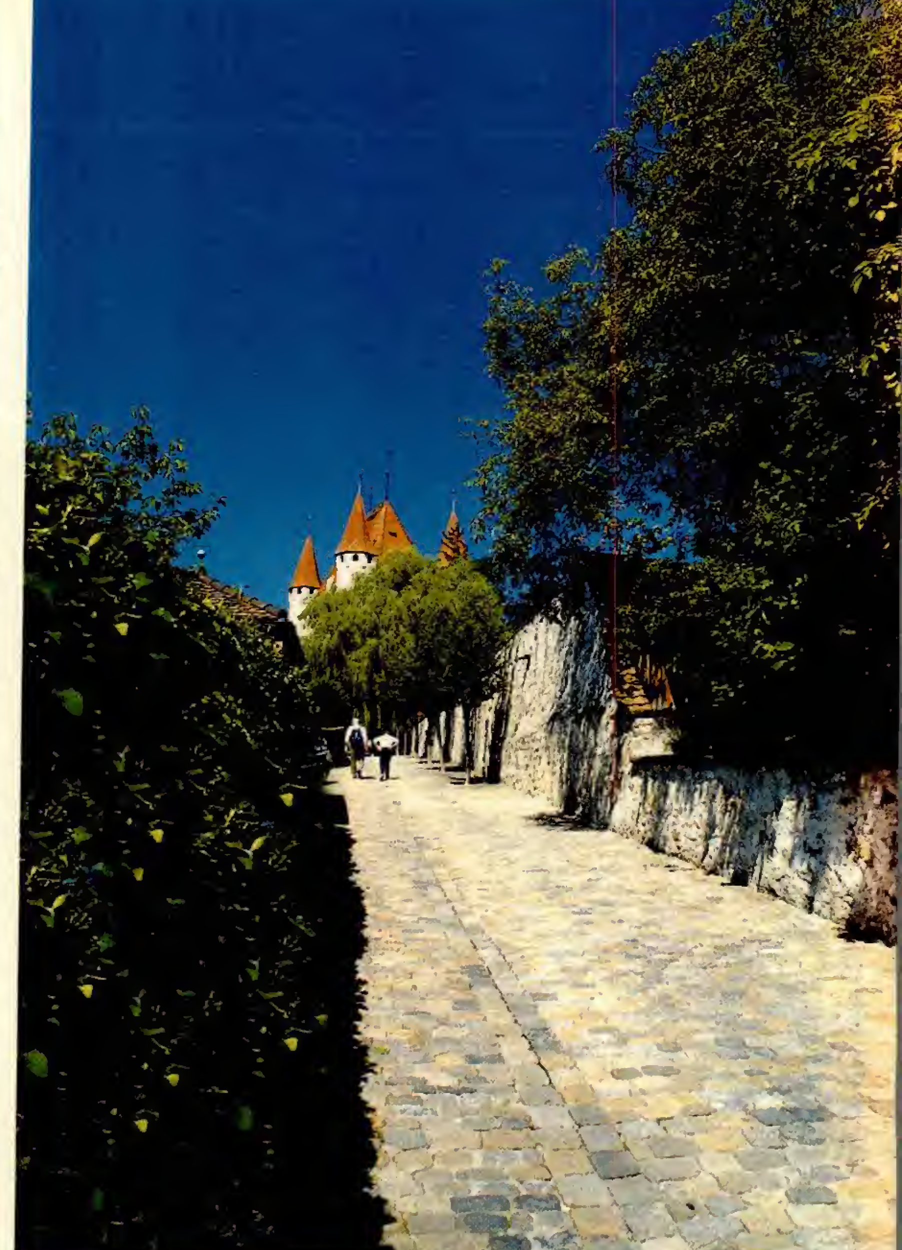
لوغانو مدينة سياحية والحركة فيها تسير على قدم وساق، حيث ضجيج الطليان والشرقيين الذين يملؤون شوارع المدينة، وهي أقل نظافة من باقي المدن السويسرية، تكثر فيها مقاهي الشوارع كالمشاهدة في بلدان الشرق الأوسط، كما تنتشر فيها أشجار الدفلة بزهورها الوردية والحمراء، كتلك المشاهدة في بعض المدن السورية والشرق أوسطية.

أمّا أكثر ما تشتهر به مدينة لوغانو فهو البوظة والبيتزا، وعلى كل من يزورها أن يتذوقهما، وأما أهالي لوغانو فهم شعب يحب الحياة، وهو أقرب بطبعه إلى الشعب الإيطالي، ربما بسبب تحدثه باللغة الإيطالية.

ومما يزيد المدينة جمالاً تلك البحيرة الكبيرة ذات الامتداد الواسع. ذلك أنّ بحيرة لوغانو تصل إيطاليا بسويسرا وقد أقيم على ضفافها منتجعات وأماكن سياحية رائعة الجمال. أمّا أكثر ما يثير الانتباه على ضفاف تلك البحيرة فهو ذلك القصر الفخم الذي تعود ملكيته إلى عائلة سويسرية مشهورة.

وللتكسب في لوغانو طرق عديدة، ولعلّ أكثر ما استرعى انتباهي الطريقة التي اتبعها أحدهم حيث وقف كتمثال بزي عربي، وقد غطى وجهه بقناع وسط إحدى الساحات المكتظة بالسياح، وإلى جواره وعاء ما إن تضع فيه قطعة من النقود حتى يقوم ذلك الشخص المتنكر بزيه العربي بإجراء حركات تعبر عن الشكر والامتنان وكأنه تمثال آلي متحرك.

وعلى قمة الجبل المطل على لوغانو يقع عدد من القرى



الخضرة حتى في الممرات الضيقة في بلد سمته النظافة

ولدول الخليج العربي عامة، وللسعودية خاصة حضور قوي في جنيف في مجال نشر الدعوة الإسلامية، وكانت السعودية قد أسست في جنيف مسجداً يعدّ بحق مركز إشعاع إسلامي في أوربا.

أمّا جنيف القديمة فتقع على رابية مطلة على جنيف الحديثة والبحيرة، وتشتهر بكاتدرائيتها المقامة وسطها.

لوغانو LUGANO

الطريق بين زيوريخ ولوغانو جميل جداً، سهول وجبال وجسور وأنفاق وبحيرات تحيط بها الغابات والجبال والمروج الخضراء الرائعة الجمال.

بعد زيوريخ تصل إلى لوتسرن LUZERN وعندما تقطع LUZERN يزداد الطريق جمالاً، حيث تلوح لك عن بعد الجبال المغطاة بالثلوج.. إنه لمنظر رائع.

السياحية الرائعة الجمال، ولعل من أجملها قرية BRE، وعلى مسافة قصيرة منها تقع GANDRIA (وهي آخر قرية سويسرية على الحدود الإيطالية).

وفي لوغانو سمعت صوت بوق (زمور) السيارات لأول مرة في سويسرا، وكان ذلك الصوت صادراً من سيارة إيطالية، وفيها أيضاً شاهدت لأول مرة شرطة المرور، وهي تنظم حركة سير السيارات حوالى الخامسة مساء، أي: وقت الازدحام.

وفي لوغانو أيضاً علمت أنّ سير الشاحنات ليلاً سواء على الطريق اللاحب (الأوتستراد) أو طرق السفر المختلفة ممنوع في سويسرا لأنّ الدراسات أثبتت أن الحوادث تنجم عن سهو سائق الشاحنة في أثناء قيادتها ليلاً.

مدينة بال

مساء ٢٨ آب/أغسطس ١٩٩٧م عرض التلفزيون السويسري برنامجاً خاصاً عن الحركات اليهودية الإسرائيلية المتطرفة، ووصول (نتن ياهو) إلى الحكم، وذلك بمناسبة مرور



مقاه ذات مستويات مختلفة لراحة السائحين



التنقل بين مدن سويسرا لا يمثل مشكلة للسائح

مئة عام على مؤتمر بال. وقد صيغ ذلك البرنامج بشكل محايد ظهر فيه اليهود على أنهم شعب متخلف حضارياً، فهم عبارة عن عصابات من القتلة تشبه المافيا، شعب مسلح حاقد وعنصري، مجرم وقاتل، وأن الدولة اليهودية قامت على أكتاف مجموعات القتلة هذه ولا تزال.. كما أظهر التقرير كيف أن الشعب الفلسطيني شعب أعزل يقاوم الاحتلال بالحجارة. تقرير محايد يستدِّر العطف نحو الشعب الفلسطيني الأعزل، ويفضح حقيقة الكيان الصهيوني المجرم والقاتل.

ذكرني هذا التقرير بمدينة بال السويسرية، فقررت زيارتها في اليوم التالي، وكان ذلك صباح ٢٩ آب/ أغسطس ١٩٩٧م.

وعلى الطريق نحو بال كانت الأمطار تهطل بغزارة، والطبيعة بساط سندسي أخضر تغسله مياه الأمطار الغزيرة.. وعلى مشارف مدينة بال تستقبلك معامل شركة NOVARTIS (شركة سيبا سابقاً) بعد أن قامت بالاندماج مع شركة ساندرو لتصبح أقوى وأقدر على مواجهة المنافسة العالمية مع الشركات الأخرى في العالم.

تقع مدينة بال بالقرب من الحدود مع كل من فرنسا وألمانيا، ويخترقها نهر الراين حيث أقيمت عليه مجموعة من الجسور كي تصل شطري المدينة بعضها ببعض.

وتوجد في مدينة بال حديقة حيوانات ذات شهرة واسعة حيث يقصدها الزوار من مختلف أرجاء البلاد، كما وتشتهر مدينة بال بكونها مدينة المعارض، ولعل أشهر معارضها معرض المنتجات

الصناعية والتجارية المسمى MUSTER MESSE، والمعرض الدولي للساعات والذي يقام خلال شهري نيسان /أبريل وآيار /مايومن كل عام حيث تؤم المدينة وفود من مختلف أنحاء العالم للمشاركة بالمعرض أو للاطلاع على أحدث ما توصلت إليه التقنية في صناعة الساعات. ويقابل هذا المعرض معرض آخر للساعات يقام في هونج كونج خلال الشهر التاسع من كل عام.

وفي سويسرا يعد العرب - بالنسبة إلى الساعات - هم أقوى الأجانب في الملكية والصناعة، لدرجة أن اللغة العربية لغة معتمدة في معرض بال للساعات.. وهذا ما يجعل اليهود السويسريين يتميزون غيظًا لكونهم غير قادرين على احتكار سوق الساعات السويسرية.

وتعدّ مدينة بال مركزًا قويًا للبنوك، ويشتهر فندق هيلتون المقام فيها بشكله البرجي.

وكانت الساحة الرئيسة لمدينة بال مزدانة بأعلام إسرائيل البيضاء ذات النجمة السداسية وأعلام كانتون بال، ذلك أن الاحتفالات بالذكرى المئوية الأولى لمؤتمر بال قد أقيمت في الفندق المطل على تلك الساحة.. وكان (ماركس ليبي) قد افتتح المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال في ٢٩ آب ١٨٩٧م، وفيه تم إعلان قيام المنظمة الصهيونية العالمية.

وكان هرتزل - مؤسّس الصهيونية العالمية - قد كتب عشية انعقاد ذلك المؤتمر «في بال وجدت الدولة اليهودية».

ومن المفارقات التي تدعو للسخرية أن هرتزل - داعية قيام الدولة اليهودية - لم يكن يعرف شيئًا من الدين اليهودي ولا من اللغة العبرية؟! وأنّ عبارته المشهورة « صحراء بلا سكان» التي أطلقها منذ مئة عام قد ثبت للعالم أجمع أنها لم تكن حقيقة.



سويسرا بلد غني بمصادر المياه

مدينة ريبرسويل REPPERSWILL

بلدة صغيرة هادئة وذات طبيعة خلابة، تحيط بها كروم العنب وأشجار اللوزيات، ولا سيما التفاح، ومزارع دوار الشمس والذرة، وهي تقع بالقرب من مدينة زيوريخ، وتعدّ منطقة للاصطياف وممارسة الرياضات والهوايات المختلفة، وأهمها رياضة الفروسية.

تشتهر مدينة REPPERSWILL بوجود حديقة للحيوانات فيها،



مباراة في المصارعة السويسرية التقليدية



عرض للأجراس التي تعلق على رقاب الماشية



بيوت في أحضان الجبال

وهي مدينة للملاهي وحديقة للحيوانات بآن واحد، مخصصة للأطفال، وفيها مختلف أنواع الحيوانات، وقد استغلت الحيوانات الموجودة فيها بشكل يمكن الزائر من التمتع بمشاهدتها علاوة على إمكانية التمتع بالاحتكاك المباشر مع ذلك الحيوان كأن يمتطي الزائر ظهر الحصان ويدور به في حلقة أعدت خصيصاً لمثل هذه الممارسة، أو أن يركب على ظهر الفيل الذي أعد ظهره لركوب عدة أشخاص، ويقوم بنزهة ضمن حظيرة الفيلة، وكل ذلك يتم بإشراف اختصاصيين في ترويض الحيوانات والعناية بها، وأغلب هؤلاء من أفارقة شمال إفريقية ولا سيما المغرب العربي (مغاربة).

وبإمكان الزائر مشاهدة تمثال ضخم لحوت مصنوع من الإسمنت يدخل الأطفال باطنه ليتمتعوا بمشاهدة مختلف أنواع الأسماك والحيوانات المائية.

وإلى جانب الحيوانات، وفي إحدى زوايا الحديقة أقيم سيرك مائي حيث بإمكان الأطفال مشاهدة الدلافين والفقمات وهي تقوم بأدوار مسرحية فائقة الدقة ورائعة الجمال بإشراف اختصاصيين في تربية هذا النوع من الحيوانات وتدريبه.. إنّها بحق مدينة الأطفال.

التنابز بالألقاب

إن السويسريين، كبقية الشعوب الأخرى، يتفاخرون فيما بينهم، ويسخر بعضهم من بعض، علاوة على الصفات الخاصة بسكان كل منطقة، فسكان منطقة زيوريخ يعدون أنفسهم الأرقى والأكثر تمدناً وحضارة، أمّا سكان المناطق الجبلية فينظر إليهم على أنهم أقل انفتاحاً من بقية سكان سويسرا، وأنهم لا يرون إلا ما هو أمامهم فقط. أما أهل كانتون برن (العاصمة) فيتصفون ببرودة الدم والبطء والتثاقل في الحركة. أما كانتون آبن زللر APENZELLER فيمتاز رجالهم بوضع الأقراط في أذن واحدة ليمتازوا من النساء؟! وهم مشهورون بصنع الجبنة المعروفة باسم APENZELLER، كما يتصف أبناء هذا الكانتون بقصر قاماتهم لدرجة أنهم عندما يريدون الانتحار يقذفون بأنفسهم من على حرف السجادة.

أما أهل كانتون (أرغاو) ويرمز لهذا الكانتون بـ (AG) اختصاراً، فإنهم يتصفون بتهورهم في قيادة السيارات لدرجة أن رمز AG، والذي هو اختصار لاسم كانتون ARGAO، يعده السويسريون اختصاراً لكلمة ACHTUNG GEHFART وتعني (انتبه خطر) بسبب كثرة حوادث السيارات التي يسببها أهل هذا الكانتون، وذلك عائد لعدم استيعابهم لقوانين السير مما تسبب في عدد من حوادث السير.

يشتهر السويسريون الألمان بجديتهم وبطئهم. أما السويسريون الفرنسيون فيقولون عن السويسريين الألمان: إنهم بطيئو الحركة والفهم، والسويسريون الألمان هم السويسريون الناطقون بالألمانية، أما السويسريون الفرنسيون أو ما يطلق عليهم اسم السويسريين الرومان ROMAN فهم من أصول رومانية، وهم السويسريون الناطقون بالفرنسية.

نحو تأصيل لمفهوم الانزياح

أحمد محمد ويس

مثلما نسعى لاكتشاف ملكوت الفضاء علينا اكتشاف ملكوت اللغة. وربما كان هذان الكشفان أهمّ معالم هذا العصر. رولان بارت

يعدّ مفهوم الانزياح أهمّ ما قامت عليه الأسلوبية من أركان، حتى لقد عدّه نفر من أهل الاختصاص كلّ شيء فيها، وعرّفوها، بأنها «علم الانزياحات».

فإذا رمنا استجلاء المراد بالانزياح فسيكون فيما اصطنعناه له من وصف أوليّ فحواه أن الانزياح «استعمال المبدع للغة مفردات وتراكيب وصوراً استعمالاً يخرج بها عما هو معتاد ومألوف بحيث يؤدّي ما ينبغي له أن يتصف به من تفرد وإبداع وقوّة جذب وأسر»، وبهذا يكون الانزياح هو فيصلُ ما بين الكلام الفنّي وغير الفنّي.

وهذا بحث يحاول أن يؤسس للانزياح فلسفة من خارج السياق الأسلوبي؛ أي: بما هو ظاهرة عامة كبرى. ولم نُرد من هذا البحث أن يكون أكثرمن جملة إلماعات تنضوي تحت ما يُسمّى «تضافر العلوم» في تحليل الظواهر، وهو أمر من شأنه أن يجعل الظاهرة أكثر انكشافاً وجلاء. وطبيعيٌّ أن يتسع هنا مفهوم الانزياح أكثر من مجرد كونه ظاهرة أسلوبية تخصّ النصّ الأدبي فحسب.

الزمن الكوانتي العجيب

وليس استعجالاً أن نسارع إلى افتتاح البحث هذا بالقول: إن «الانزياح ظاهرة كونية»، أو إنّ «الكون عوالم في انزياح دائم»؛ ذلك بأنّها حقيقةٌ تستأهل أن يُفتتح بها بحثٌ يروم تأصيل الانزياح. وهي حقيقة ما كان لها أن تُعرف حقّاً إلا في زمن الكشوفات العلميّة، أو إن شئت: زمن الانزياحات الكبرى، الزمن الكوانتي(*) العجيب.



رولان بارت

أما إن الانزياح ظاهرة كونية، فإنّ الكون برمتّه مُذ قال الله له: «كن» راح ينزاح بعيداً بعيداً عن

نقطة البداية، وهي نقطة كانت قبيل انفجارها «أصغر كثيراً كثيراً من حيّز يشغله بروتون واحد»(١)، فمن هنا، من هذه النقطة العجيبة انبثقت جميع المجرات، وابتدأت تمدُّدًا ما توقّف قط.

ذلك أمر سُمّي الانفجار العظيم The big bang، وبه ابتدئ الكون قبل نحو عشرين مليار سنة. وقد سأل كارل ساغان في حيرة: «أمّا لماذا حدث هذا الانفجار؟ فذلك هو أعظم لغز يحيّرنا، وأما إنه حدث فعلاً، فهو أمر واضح بما يكفي(*)، فقد كان كل ما في الكون الآن من مادة وطاقة مركزاً بكثافة عالية إلى أبعد حد. وربما في نقطة رياضية لا أبعاد لها أبداً»(٢).

ثم راح ساغان يتحدث عن الطريق الذي قاد إلى اكتشاف الانفجار العظيم، فقال: «إن اكتشاف الانفجار العظيم وتراجع المجرات جاءا من ظاهرة عامة في الطبيعة تُعرف بـ «ظاهرة دوبلر Doppler effect»(٣)، وهي تشير إلى أن كل المجرات يبتعد بعضها عن بعض، ولكن المجرة كلما زاد بعدها ازدادت سرعة ابتعادها، وازدادت أطيافها احمراراً(٤)، ومن هنا فقد أُطلق على هذه التغيرات اسم «الانزياح الأحمر»(٥).

أمّا أسرع معدّل للابتعاد أمكن قياسه حتى الآن فهو أربعون ألف ميل في الثانية. وعلى هذا حسب العلماء متى بدأت المجرات هذا التشتت الابتعادي في فضاء الكون الرحيب، فقالوا: إنها قبل نحو عشرين مليار سنة(٦).

والحق أنّ للمتأمل في القرآن الكريم أن يجد تأكيداً لهذه النظرية ماثلاً في قول الله تعالى: *والسماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون*. الذاريات:٤٧.

التطور المبدع

وهكذا، فإن ميلاد النجوم والمجرات ملازم لاستمرار الكون، وتلك علاقة ألحّ على تأكيدها هنري برجسون (١٨٥٩ ـ ١٩٤١م) حين قال: «الكون، إذن علاقة ذات ديمومة، وكلما تعمقنا طبيعة الزمان أدركنا أن معنى الديمومة هو الاختراع، وإبداع الصور، وإعداد

الحياة تطور متلاحق في غير ما اتجاه، تطور لا يمكن لحاقه ولا تحديده



جوته

الجديد المطلق الجدة إعداداً متصلاً»(٧). وكذا حين قال: «إن ديمومة العالم، وفسحة الإبداع التي يمكن أن يكون لها محلٌ فيه، لا تؤلفان إلا شيئاً واحداً»، إلى أن يقول: «والزمان إمّا أن يكون اختراعاً، وإمّا ألاّ يكون شيئاً البتة»(٨). ولكنّ اللافت للانتباه أكثر في هذا السياق هو أنّا نراه في بعض كلامه قد اقترب، على نحو يثير الإعجاب حقاً، من نظرية «الانفجار العظيم» على الرغم من أنها لم تظهر إلا بعد صدور «التطور المبدع» فهو يرى أن الحياة ليست خطاً واحداً شبيهاً بخط ترسمه كرةٌ قُذفت من مدفع(*)، ولو كانت الحياة كذلك إذن «لكانت حركة التطور شيئاً بسيطاً، ولأمكننا أن نسرع في تحديد اتجاهها؛ غير أنّا نجد أنفسنا حيال قنبلة تفجرت مباشرة، فانبعثت منها قطع صارت هي نفسُها قنابل متفجرة تنبعث منها قطع أخرى متفجرة، وهكذا دواليك خلال حقبة طويلة من الزمان. وكذلك الأمر بالنسبة إلى تفتّت الحياة وانقسامها إلى فئات من الأفراد والأنواع»(٩).

ذلك هو شأن الحياة إذن، تطورٌ متلاحق في غير ما اتجاه، تطور لا يمكن لحاقه ولا تحديده، ولذلك كان حتماً على العلم ـ إذ هو يلاحق الحياة فيعجز عن لحاقها ـ أن «يجمّدها في نماذج مجردة، ويُفتتها إلى معطيات متفرقة، وبذلك يزيّفها، وهي في جوهرها شيء حركي متغيّر»(١٠)، وليس من الغرابة في شيء إذن أن يقال: إن العلم قرين الثبات أو الجمود ما دام عاجزاً عن لحاق الحياة في تطورها المستمر.

تفرد الإنسان

وإذا صحّ أنّ الإنسان هو جوهر هذه الحياة ـ وهذا لاريب صحيح ـ فإن الصحيح أيضاً أنه ذو ديمومة متغيرة ونفس متفردة ليست تنازعها في أمر فرديتها نفس أخرى؛ وبسبب من هذه الفردية رأينا العلم يعجز عن اكتناه حقيقتها على وجه من الدقة واليقين.

وهي، في الحق، في هذا التغيّر

المستمر، أشبه بهذا الكون الرحيب الذي يتسع ويتغيّر في كل لحظة وآن. ولعلّ الشاعر القديم لامس مثل هذا حين راح يسائل هذا الإنسان بالقول:

أتحسب أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر؟!(١١)

أجل فإن الإنسان هو أشبه بهذا الكون. ولعل برجسون قد تنبّه إلى شيء من ذلك، فهو حين قرن ديمومة الكون بدوام الإبداع والاختراع، فإنه من طرف آخر قرن ديمومة الحالة النفسية بدوام جريانها، فهو يقول: «إنّ الحالة النفسية إذا توقفت عن التغيّر توقفت ديمومتها عن الجريان، وهي كلما تقدمت في طريق الزمان تضخمت بالديمومة التي تجمعها تضخماً متصلاً، كأنها - إذا صح التعبير - كرةٌ من الثلج تدور على نفسها. والحق أن المرء يتغير دون انقطاع، وأن الحالة النفسية ذاتها ليست سوى تغيّر»(١٢).

أوَ ليس تضخُّم النفس على نحو ما تفعل كرة الثلج تلك هو في مثل تضخم الكون واتساعه؟ بلى، وإنّ لنا أن نرى رأي برجسون في أن الماضي مستمر البقاء في الحاضر، وأن ليس ممكناً مرور الشعور بالحالة نفسها مرتين، فالظروف - وإن تكن واحدة - «لا تؤثر في الشخص ذاته، لأنها تتناوله في لحظة جديدة من تاريخه، وهكذا فإن شخصيتنا التي تبنى في كل آنٍ بما تدّخره من التجارب لا تكفّ عن التغيّر. وهي كلما تغيّرت منعت الحالة النفسية من التكرر في الأعماق؛ وإن ظلت، وهي على السطح، مساوية لنفسها»(١٣)، ومن شأن هذا الكلام أن يذكّرنا، عن طريق التداعي ببيتين قالهما جلال الدين الرومي (ت: ٦٧٢هـ)، وهما قوله:

«إن الدنيا تتجدد في كل لحظة، ونحن لا نحسّ بتجددها، وهي باقية على هيئتها الظاهرة. والعمر وإن بدا مستمراً في الجسد، فإنه يتجدد في كل لحظة كما يتجدد ماء النهر»(١٤).

صيرورة مستمرة

بيد أن فكرة التغيّر المستمر فكرة قديمة في الفلسفة، إذ إنها ترجع في

الإنسان ذو ديمومة متغيرة ونفس متفردة لا تنازعها في أمر فرديتها نفس أخرى



هيغل

أصولها إلى تراث الإغريق، ولعل «هيراقليطس» (ت: ٤٧٥ق.م) أشهر من عُرف بها، وإن لم يكن أول من قال بها(*)، وعنده أن الأشياء في «صيرورة مستمرة» وفي هذه الفكرة أُثرت عنه جملة أقوال من مثل:

«كل شيء ينساب ولا شيء يسكن، كل شيء يتغير ولا شيء يدوم على الثبات».

«إنك لا تستطيع النزول مرتين إلى النهر، لأن مياهاً جديدة تنساب فيه باستمرار».

«الأشياء الباردة تصير حارة، والحارة تصير باردة، ويجف الرطب ويصبح الجاف رطباً».

«إن الأشياء تجد راحتها في التغير»(١٥).

ولكن مهما يكن من أمر هذه الأقوال فينبغي أن تُفهم في سياق عصرها، وهو عصر كان يعتمد النظرة التأملية الفلسفية المفتقرة إلى التجربة العلمية.

وإذا كان منطق هيراقليطس قد قام على التغير والتناقض، فإن أفلاطون التالي له (ت: حوالي ٣٤٧ق.م) رأى في الكثرة والتغير شراً(١٦). أما أرسطو (ت:٣٢٢ق.م) فإن منطقه قام على قانون عدم التناقض؛ وهو أن الشيء لا يمكن أن يكون هو هو وليس هو في الوقت الواحد من جهة واحدة، فهو منطق سكوني جامد. ولعل ما أوقع أرسطو في هذا الخطأ هو اعتقاده بعدم وجود الفراغ(١٧).

ولكنّ هذا المنطق انتهى منذ القرن التاسع عشر بحلول منطق هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١م) القائم على الجدل، والذي يرى أن الشيء يمكن أن يكون هو هو وليس هو في الزمن المستمر، فالرجل هو الطفل، وهو ليس الطفل الذي كان يوماً ما.

وهكذا، فإن الأشياء عند هيجل هي أيضاً في صيرورة مستمرة. وهي فكرة استقاها من هيراقليطس مباشرة، حتى لقد صرّح هو نفسه بقوله: «إنه ليس في أقوال هيراقليطس عبارة لا أستطيع أن أدخلها في صميم منطقي»(١٨)، فإذا علمنا أن أهم ما جاء به

هيراقليطس هو فكرته في التغير أدركنا مبلغ اعتداد هيجل بهذه الفكرة.

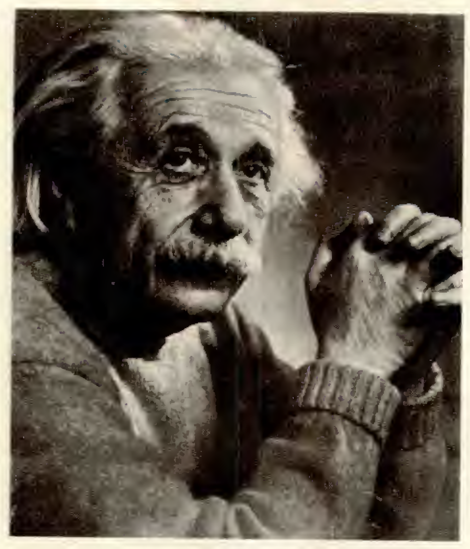
مفهوم أوسع وأكبر

ولعل في هذا الكلام على الصيرورة والزمان ما يقتضينا التوقف قليلاً عند أينشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥م) هذا الذي أضاف إلى الأبعاد الثلاثة المعروفة قبله بعدَ الزمان، فكان أن غدا مفهوم التغيّر والتطوّر أوسع وأكبر، ولعلّ ما قاله في «النسبية الخاصة» عام ١٩٠٥م من أنّ الزمان «ينساب على الأشياء السريعة الحركة بسرعة أبطأ ممّا لو كان على الأشياء الثابتة»(١٩)؛ أقول: لعلّ هذا يسوّغ القول بأن حظّ المتحرك في البقاء أعظم من حظّ الثابت، لأنّ المتحرك شارك الزمن صفة من صفاته وهي التغيّر، أوَ لم يقل برجسون: إن الحياة «هي في جوهرها شيء حركي متغيّر»(٢٠)، و«إن الذات التي لا تتغير لا تتصف بالديمومة»؟(٢١).

على أننا لو رمنا تتبع المزيد من ظواهر الانزياح المبثوثة في هذا الكون فسنواجه بما يقوله علماء الأرض من أن قارات الأرض الخمس لم تكن في أصل النشأة إلا قارة واحدة متصلة الأجزاء متراصة - سمّاها الفريد فيجنر صاحب النظرية قارة «بانجايا» - ثم إنها أخذت عبر ملايين من السنين تنزاح لكي تشكل ما نعرفه اليوم من قارات هي كالكون في انزياح دائم غير متوقّف(٢٢) والحق أن المرء يستأنس بكثير من آيات القرآن التي تؤكِّد، على نحو صريح، حقيقة انزياح الأرض(٢٣).

إن الثبات الذي هو نقيض الحركة يشير إلى أن ثمة قيداً، وأن الحياة متوقفة، فالقيد مانع للحرية، وهي هدف حيوي وإنساني، بل هي القيمة العليا للإنسان في حياته على هذه الأرض، ثم هي بعد ذلك شرط أوعنصر جمالي ليس عنه غناء. أمّا الانزياح فحركة، ولا يكون إلا بها، فهو إذن حرية أو تعبير عن الحرية، ثم هو نقيض للآلية التي هي أشبه بالثبات أو هي ثبات على نحو ما. ومن ثم وجدنا برجسون يقول: «إن حريتنا إذا لم تتجدد بجهد دائم ولّدت

العمر وإن بدا مستمراً في الجسد، فإنه يتجدد في كل لحظة كما يتجدد ماء النهر



أينشتاين

من الحركات التي تؤكد بها نفسها عادات تخنقها: فالآلية إذن تتربص بنا»(٢٤) وتراه يقول عن المذهب الآلي: إنه «لا يلحظ في الحقيقة إلا مظهر التشابه أو التكرار، فهو إذن خاضع لحكم القانون القائل: إن المثل لا ينتج إلا المثل»(٢٥).

ثبات القانون العلمي

والحق أن الآلية، وكذا اطراد القانون العلمي، لا يمكنهما أن يثيرا من الدهشة شيئاً، إذ هما ثابتان، أو في حكم الثابتين، وآية ذلك أن «القانون العلمي متى تقرر، لم يعد ينطوي على أية غرابة؛ لأن المتوقع هو أن تثبت صحته كلما توافرت شروطه»(٢٦).

بيد أن الدهشة والاستغراب والمفاجأة هي التي تلفت النظر إلى الظاهرة العلمية بادئ الأمر ومن قبل اكتشافها، وقديماً عبّر عن هذه الفكرة أرسطو بالقول: «إن الدهشة هي أول باعث على الفلسفة»(٢٧). وليس يخاف أن مفهوم الفلسفة كان يشمل كل العلوم قديماً. ولكن الفكرة تتحدد أكثر حين يكتب أندريه بروتون «لست أنا، بل م. جيفيه الذي يقرر في (بنية النظريات الفيزيائية الجديدة) عام ١٩٣٣م ما يلي: (ينبغي النظر إلى المفاجأة الناجمة عن صورة جديدة، أو تآلف جديد للصور، على أنها العنصر الأكثر أهمية في تقدم العلوم الفيزيائية،وذلك أن الدهشة إنما تحفز المنطق، وهو دائم البرود إلى حدّ ما، وتضطره إلى إقامة تناسقات جديدة)»(٢٨)، وتتأكد هذه الفكرة بقول العالم الأمريكي توماس كون: «يبدأ الاكتشاف مع إدراك الشذوذ، أو الخروج عن القياس، أي مع وجود انطباع بأن الطبيعة قد ناقضت، بصورة أو بأخرى ، التوقعات المرتقبة»(٢٩) وواضح أن هذا الشذوذ هو الحافز إلى البحث، وإلى الاكتشاف.

ديناميكية العلم

ومن جهة أخرى يتحدث كونانت عن نوعين من العلم: ثابت ومتغير، أو باستعمال المصطلح الأصلي: علم إستاتيكي Static وآخر ديناميكي Dynamic، فأما العلم الإستاتيكي

فهو العلم القائم على النشاط العلمي الذي يقدم لنا معلومات منظمة عن العالم الذي نعيش فيه، وأما الديناميكي فهو العلم الذي يساعد على اكتشاف نظريات جديدة، لكي تستخدم في بحوث علمية مستقبلية(٣٠).

ويعلّق أحد الباحثين بأن العلم لا يكون علماً إلا إذا كان ديناميكياً. وكذلك فإن الأستاذ لا تصح عليه التسمية ما لم يكن منه أن يحفز تلاميذه على اكتشاف نظريات خاصة مما تعلموه(٣١) وبديهيّ أن ذلك كله لا يتاح إلا في أجواء من الحرية.

والحقّ أنّ فضل المرء لا ينحصر في امتلاكه الحقيقة، بل في سعيه الدائب نحوها - كما يقول ليسينغ(١٧٢٩ - ١٧٨١م)، وملكات الإنسان لا تنمو بامتلاك الحقيقة، بل بالبحث عنها، «وكماله المتزايد ينحصر في هذا وحده. إنّ امتلاك الإنسان الشيء يميل به إلى الركود والكسل والغرور، ولو أن اللّه وضع الحقائق كلها في يمينه، ووضع في شماله شوقنا المستعر إليها، وإن أخطأناها دائماً، ثم خيرني، لسارعت إلى اختيار ما في شماله. وقلت: يا ربّ رحمتك! إنّ الحق الخالص لك وحدك»(٣٢).

وهذه فكرة نقف على مثلها عند أبسن (١٨٢٨ - ١٩٠٦م)، إذ يقول: إن الشيء الذي تملكه حقاً هو الذي فقدته إلى الأبد، فما هو كائن ليس له في الحقيقة وجود، وغير الكائن هو الموجود»(٣٢).

ولقد تبدو مثل هذه العبارة شطحة من شطحات الخيال إن هي فُهمت فهماً سطحياً، غير أن روح العبارة الذي يكمن وراءها متحقق؛ فامتلاكنا الأشياء يُفقدنا قيمتها؛ إذ ينهي لهفة البحث عنها، ويبدو أن هذه اللهفة هي التي تمنح الأشياء قيمة ما. ولعل في عبارة ليسينغ السابقة ما يفسّر عبارة إبسن. وكان جوته (١٧٤٩ -١٨٣٢م) قد قال: «إنني أبحث عن اللذة، حتى إذا حصلتها أسفت على الشهوة»(٣٣) وعلّق جوبو على هذا بأن «القلق الذي يُمضُّ بعض النفوس إزاء

حظ المتحرك في البقاء أعظم من حظ الثابت، لأن المتحرك شارك الزمن في صفة من صفاته وهي التغير



هنريك إبسن

اللانهاية. قد هيّأ لهذه النفوس، إلى جانب ذلك، متعاً مرهفة كل الرهافة. ولعل هؤلاء أن يترددوا بين هذا القلق والعلم الكلي»(٣٤).

ويبدو أن الخالق العظيم قذف في جبلّة النفس البشرية مثل هذه اللهفة نحو اللانهاية. وكان من آثار هذا أن حاول الإنسان في تاريخه المديد البحث عن الجوهر، غير أنه في كل مرة يحسب أنه وجده يدرك أنه قد أخفق في وجدانه، فلا يلبث أن يعاود البحث(*) ولربما كان هذا بعضاً ممّا رمى إليه إبسن.

نشوة ولذة

وعلى الرغم من ذلك فلا نكران في أن امتلاك الشيء له أن يمنح النفس، أول أمره، نشوة ولذة، ولكن النفس لا تلبث أن تملّ؛ فتروح تبحث عما يزيل مللها. ويبدو أن النفس الإنسانية يتنازعها على الدوام تياران اثنان، فهناك - كما يقول شكري عياد-«ميل دائم إلى الإتيان بالجديد، كما أن هناك ميلاً إلى المحافظة على القديم، وقوام الحضارة هو التكامل والتوازن بين هذين النقيضين»، بيد أن هذا التكامل والتوازن «قلما يتحققان في صورة مثالية... فنحن قلّما نسلك السبيل الوسط. والغالب أن ننحرف دائماً نحو اليمين أو نحو اليسار. وهكذا الشأن في قضية الإبداع والاتباع»(٣٥).

وليس يخفى أنّ إبداع الجديد - وإنْ كانت كل النفوس تولع به - لا تقوى عليه إلا قلة قليلة في الناس تختلف نسبتها إلى سواها باختلاف من الزمان والمكان. ولا يعنينا أمرُ هذه النسبة الآن بمقدار ما تعنينا محاولة التعليل لإبداع الجديد. فثمة رأي لبليخانوف يحاول فيه تعليل إبداع العبقريات الجديدة، ولماذا لا يستهويها القديم؟ فهو يرى أن «الجمهور، إنْ هو ظل راضياً عن القديم، فلن تجد العبقريات الجديدة الرواج لبضاعتها المستحدثة، ولهذا فهم يندفعون في ثورة محمومة ضد القديم دفاعاً عن الذات، وليس دفاعاً عن أية فكرة جديدة يافعة»(٣٦).

وعلى الرغم من أن هذا القول قد يصح بعض الأحيان، غير أن من شأنه أن يقلل من صفة الصدق لدى المبدع، أعني المبدع الحق، وهي صفة

لازمة له حالة إبداعه، وإلا فهو لن يبدع. ثم إن ثورة المبدع ليست دائماً دفاعاً عن الذات، بل هي في الغالب تصدر عن إرادة التغيير، وإرادة التغيير هي ـ كما يقول شكري عياد ـ: «العنصر المهم في سيرة كل عبقري»(٣٧)، بيد أنه لا ينبغي لها أن تكون إلا على أساسٍ من فهمٍ للواقع، ثم تحليل للماضي عميق. وهما أمران لا يتأتيان إلا في حضور من الحرية، فإذا ما غُيبت بات حقًّا على الإرادة أن تزول. وهكذا تدخل الذات في أسر العادة والتقليد؛ وهو ما من شأنه أن يعطّل الفكر، ويؤخر العقل، أو ليس التقليد هو «اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل معتقداً للحقيقة فيه من غير نظر وتأمل في الدليل؟»(٣٨)وإذن ليس عجباً أن نرى القرآن ينعى على المشركين اتباعهم من غير تفكير: *وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل اللهُ قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أوَلو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون* **البقرة: ١٧٠**، ليس غريباً أيضاً، أن



شكري عياد

وجدنا الفكر الإسلامي في مجمله ينبذ التقليد، فليس التقليد «طريقًا للعلم ولا موصلاً إليه، لا في الأصول ولا في الفروع»(٣٩)، ثم إن «أكثر أغاليط النّظّار هي من المألوفات والمسموعات في الصبا من الأب والأستاذ وأهل البلد المشهورين بالفضل»(٤٠). وفي ترك التقليد تمثلت خطة مصطفى صبري (١٨٦٩ ـ ١٩٥٤): «فخطتي وهي خطة النجاة للمسلم الجديد ـ ترك التقليد»(٤١) ولا أحسبه عنى بـ «المسلم الجديد» ههنا خلاف المسلم القديم، إذ الإسلام لا يقاس بمقياس من الجدّة أو القدم. والأقرب أن يكون هذا مجرد وصف زمني، أو ربما كان عنى به «المسلم المتجدد»، فإن يكن ذلك، فإن فكرة التجديد والتجدد فكرة معروفة ومقبولة لدى السلف المسلم، فلقد تناقلوا بينهم حديث: «إن اللّه يبعثُ لهذه الأمة على رأس كل مئة عام من يجدّد لها أمر دينها»(٤٢)، ثم راحوا يعدّون مجددي هذه الأمة من العلماء حينًا، ومن الأمراء والولاة حينًا آخر.

تميز لا يضاهى

ومهما يكن من أمر، فلعل ما نتحدث عنه من التقليد أن يكون منافيًا للإنسان بوجه عام، لأن من أخصّ خصائص هذا الإنسان أنه كائن فردي تتمثل الفردية فيه كأكثر ما يكون التمثل؛ ذلك بأن كل فرد يختلف عن سواه اختلافًا واضحًا

الهوامش:

(*) الكوانتي: نسبة إلى (الكوانتم) أو ميكانيكا الكم، وهو أحد فروع الفيزياء الحديثة.

١ـ أغروس، روبرت. وستانسيو، جورج: العلم في منظوره الجديد. ترجمة: كمال خلايلي. عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٩م، ص٦١، وللتوسع يمكن مراجعة الكتب الآتية: الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون «لستيفن وينبرغ، ترجمة: وائل الأتاسي، دمشق ١٩٨٦م.، والكون لكارل ساغان، ترجمة: نافع أيوب لبس، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٣م، ص٢١٩ ـ ٢٤٦، وطبيعة الحياة لفرانسيس كريك، ترجمة: أحمد مستجير، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٨م، ص٣٠ ـ ٣٩، وفكرة الزمان عبر التاريخ لمجموعة مؤلفين، ترجمة: فؤاد كامل، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٢م، والمادة كما ترى اليوم، لمجموعة مؤلفين، ترجمة: وائل أتاسي، دمشق ١٩٨٥م، ص٩٣ـ ١٠٦.

(*) وللمرء أن يستأنس بقول الله عز وجل: *أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون*. **الأنبياء: ٣٠**.

(٢) الكون، ص٢١٩. ويوشك أن يقول هو وغيره من العلماء: إنها لا شيء.

٣ـ الكون: ص٢٢٨، وفي الترجمة تأثير دوبلز ولعل الأدق ما أثبتناه.

٤ـ انظر الكون: ص٢٣٠.

٥ـ انظر الناغي، أحمد: الانفجار العظيم، مقال في مجلة العربي ع٤١٢ مارس ١٩٩٣م، ص٩٠، وقد سماها عبدالعليم خضر بـ «الانحراف الأحمر»، انظر كتابه: الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن، ط٢، الدار السعودية للنشر والتوزيع جدة، ١٤٠٥هـ، ص١٠١، وسماها فؤاد كامل «الزحزحة الحمراء»، انظر ترجمته بحث إيبن نيكلسون: الزمان المتحول، ضمن كتاب: فكرة الزمان عبر التاريخ: انظر ص٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٢.

٦ـ انظر: خضر، عبدالعليم: الظواهر الجغرافية، ص١٠٢.

٧ـ برجسون، هنري: التطور المبدع، ترجمة: جميل صليبا، ط١، اللجنة اللبنانية لنشر الروائع بيروت، ١٩٨١م، ص١٥.

٨ـ التطور المبدع، ص٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(*) نجد مثل هذا الكلام أيضاً عند محمد إقبال (١٨٧٣ ـ١٩٣٨م)، ولعله أن يكون متأثراً ببرجسون فهو يقول: وحركة الزمان لا يمكن تصورها على شكل خط قد رسم بالفعل، بل هي خط ما يزال يرسم، أو تحقيق لممكنات جائزة، ثم يقول: «فالعالم في نظر القرآن، كما بينت من قبل، قابل للزيادة، هو عالم ينمو صنعاً مكتملاً خرج من يد صانعه منذ حقب بعيدة، وهو الآن ممتد في الفضاء...».
تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة: عباس محمود، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٦٦.

٩ـ التطور المبدع، ص٩٣.

١٠ـ ويمزات، ويليام. ك. وبروكس، كلينث: النقد الأدبي: تاريخ موجز، ترجمة: محيي الدين صبحي مطبعة جامعة دمشق ١٩٧٣م ـ ١٩٧٦م، ج٤، ص٢٩ ـ ٣٠، والقول منسوب لبرجسون.

١١ـ لم أهتد إلى نسبة صحيحة للبيت.

١٢ ـ التطور المبدع، ص٧، والمعنى نفسه موجود في ص٩ و١٥ و٢٥.

١٣ـ التطور المبدع، ص١١.

١٤ـ مثنوي جلال الدين الرومي، ترجمة: محمد عبدالسلام كفافي، ط١ المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ١٩٦٦م، ج١، ص٤١.

(*) كانت لانكسيمندر (ت: حوالي ٥٤٧ق.م) أسبقية في ذلك انظر: رسل، برتراند: حكمة الغرب، ترجمة: فؤاد زكريا، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٣م، ج١، ص٤٨ ـ ٤٩.

١٥ـ ويلرايت، فيليب: هيراقليطس، ترجمة: عبده الراجحي، ضمن كتاب: هيراقليطس فيلسوف التغير، تأليف علي سامي النشار ومحمد علي ريان وعبده الراجحي، ط١، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م، ص٣٩.

١٦ـ انظر كتاب فؤاد زكريا: دراسة لجمهورية أفلاطون، دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٦٧م، ص١٥٧.

نتبينه أولاً في شكله الظاهري من وجه وعينين، ثم في شخصيته التي لا ينازعه في سماتها أحد. وهذا اختلاف ليس له من وجود واضح لدى الحيوان، إذ تسود ههنا صفات الجنس وملامحه دونما تفرقة أو تمييز، فصفات أسرة حيوانية بعينها نجدها متمثلة في كل فرد من أفرادها دون زيادة أو نقصان، بينما الأمر على عكس ذلك في النوع الإنساني، إذ لا بد من دراسة كل فرد على حدة دراسة خاصة. وحينذاك ربما أمكن التنبؤ بسلوكه. وهذا ـ كما يقول شوبنهاور ـ من أعقد الأمور وأعسرها، إذ يستطيع الإنسان في كل لحظة أن يخدع الناس عن نفسه بما يزوّر لهم من شخصيات زائفة(٤٣).

والدليل الواضح على هذه الفردية أن الإنسان يختار لغريزته امرأة معينة، وقد يتشدد في أمر هذا الاختيار حتى يستحيل إلى عاطفة جامحة، وحب عميق، بينما لا تختار



شوبنهاور

الحيوانات موضوع غريزتها. أما في النبات فلا يتحقق الاختلاف إلا وفقاً لظروف الطبيعة من ماء وتربة ومناخ... إلخ.وتختفي الفردية اختفاء تاماً في العالم اللاعضوي(٤٤).

إن هذا الامتياز الذي اختص به الإنسان تراه عند جلال الدين الرومي مرموزاً إليه على نحو آخر، إذ يقول في بعض شعره: إن الإنسان «ظهر ـ أول الأمر ـ في مرتبة الجماد ثم انتقل منها إلى مرتبة النبات ـ وعاش سنوات وسنوات نباتًا من النباتات ـ لا يذكر من حالته الجمادية الأولى التي لا تختلف عن حالة النبات اختلافًا كبيرًا ـ فلما انتقل من النباتية إلى الحيوانية ـ كان لا يذكر عن حالته النباتية ـ سوى الميل الذي أحس به إلى عالم النبات ـ وبخاصة عندما يأتي الربيع وتتفتح الأزهار الجميلة ـ كميل الأطفال إلى أمهاتهم ـ لا يعرفون السبب في ميلهم إلى صدورهن ـ ثم أخرجه الخالق من حالته الحيوانية ـ إلى الحالة الإنسانية ـ فانتقل الإنسان بهذا من مرتبة طبيعية ـ إلى مرتبة أخرى ـ حتى أصبح حكيمًا عالمًا قويًا كما هو الآن ـ ولكنه لا يذكر شيئًا عن نفوسه الأولى ـ ولسوف تتغير نفسه الحاضرة مرة أخرى»(٤٥).

ومثل هذا الوعد المفتوح من جلال الدين الرومي في تغير النفس الإنسانية ربما لن يكون له من تحقق ممكن على هذه الأرض؛ لأن سياق كلامه لا يشير إلى تغير بسيط ممكن

١٧ـ انظر: ستيس ولتر: تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبدالمنعم مجاهد، ط دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨٤م، ص٢٤٠.

١٨ـ إبراهيم، زكريا: هيجل أو المثالية المطلقة، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت، ص١٣٩.

١٩ـ نيكلسون، إيبن: الزمان المتحول، ضمن كتاب فكرة الزمان، مرجع سابق، ص١٩٢.

٢٠ـ سبق توثيقه في الحاشية(١١).

٢١ـ التطور المبدع ص٩.

٢٢ـ سميت هذه النظرية بالإنجليزية باسم Theory of Drifting Continents، وقد راوحت ترجمتها بين انزياح القارات أو تزحزحها أو انسيابها أو انجرافها كما في: القاموس الجغرافي الحديث، لحمد زكي الأيوبي، ط١، دار العلم للملايين ١٩٨٨م، ص١٠٨، وبين زحزحة القارات كما في كتاب: جغرافية البحار والمحيطات، لجودة حسنين جودة، ط٣ منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٤، ص٧٥ ـ ٨٠، وكتاب معجم المصطلحات الجغرافية، ليوسف توني، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٧م، ص٢٥١، وكتاب: الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن، لعبدالعليم خضر، ص١٠ـ ٣٧. وترجمها ظفر الإسلام خان بـ نظرية تباعد القارات في ترجمته كتاب: الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان، دون ذكر لمكان الطبع أو تاريخه، ص١٥٢.

٢٣ـ عرض لذلك بتوسع عبدالعليم خضر في: المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم، الدار السعودية، جدة ١٩٨٥م، ص٣٧٤ـ ٣٨٧ ومن الممكن أن نذكر بعض تلك الآيات كقوله تعالى: *والأرض فرشناها فنعم الماهدون* **الذاريات**:٤٨. وقوله تعالى: *وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارًا*. **الرعد**:٣. وقوله تعالى: *والأرض بعد ذلك دحاها*. **النازعات**:٣٠.

٢٤ـ التطور المبدع، ص١١٨.

٢٥ـ التطور المبدع، ص٤٦.

٢٦ـ عياد شكري: دائرة الإبداع، مقدمة في أصول النقد، ط١، دار إلياس، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٨٩.

٢٧ـ رابوبرت،ا. س: مبادئ الفلسفة، ترجمة: أحمد أمين، ط٦، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨م، ص٣.

٢٨ـ كاروج، ميشيل، أندريه بروتون والمعطيات الأساسية للحركة السريالية، ترجمة: إلياس بديوي، دمشق ١٩٧٣م، ص١٢٥ـ ١٢٦.

٢٩ـ كون، توماس: بنية الثورات العلمية، ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٢م، ص٩٤. وللتوسع في هذه الفكرة انظر الفصول: السادس والسابع والثامن من الكتاب نفسه.

٣٠ـ انظر: ظاهر، أحمد جمال: البحث العلمي الحديث، ط٢، دار الفكر، عمان ١٩٨٤م، ص٦٤ـ ٦٥.

٣١ـ دي بور،ت.ج: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، ط٤، القاهرة ١٩٥٧م، ص٣٨٨. عن مجموعة مؤلفات لسينغ، طبعة ليبتزج ١٨٥٩ ج٢ ص٢٧١.

٣٢ـ دوارة، فؤاد: هكذا كتبوا، تراجم ودراسات، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦م، ص٣٠٩.

٣٣ـ جويو، جان ماري: مسائل فلسفة الفن المعاصر، ترجمة: سامي الدروبي ط٢ دار اليقظة العربية دمشق ١٩٦٥م، ص١٢٣.

٣٤ـ المصدر السابق، ص١٢٣ ـ ١٢٤، ويقول جون لوك: «إن القلق الذي يشعر به الإنسان عندما يفتقد شيئًا يرغبه هو جوهر النفس، فالذي يدفعنا إلى الفعل ليس ما نملكه، بل ما نفتقده»، شكري عياد: المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، كتاب عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٣م، ص١٦٧.

(*) يلاحظ أن الاعتقاد بالنظرية الريبية ـ وهي التي تقابل النظرية الدوغماتية الوثوقية ـ قد ازداد في العصر الحاضر، على الرغم من تطور العلم وارتقائه.

٣٥ـ من محاضرته التي بعنوان «الإبداع الأدبي» ضمن الموسم الثقافي في جامعة اليرموك ١٩٨٧/٨٦م ط١٩٨٨م، ص٩٠، وفي النص المطبوع الابتداع بدلاً من الابداع،وهو خطأ طباعي.

الحدوث، بل هو تغير نوعيٌ لا يبدو متحققًا إلا في عالم آخر. على أن من حسن الفهم لهذا الشعر أن يؤخذ على رمزيته، وكذلك أردنا.

ومهما يكن من شيء، فإن فردية الإنسان تتجلى في مظاهر عدة، وقد ألمح إلى أحدها تمام حسان حين نبّه على أن «لكل فرد لهجته الخاصة، فلا يتفق متكلمان في كل شيء حتى ولو كانا شقيقين، وذلك يعطي اللهجة بعداً فرديًا ربما عزّز وجهة نظر علم الأسلوب في شأن فردية الأسلوب»(٤٦).

وما يقوله تمام حسان قد أثبتته الأجهزة الحديثة حتى أخذنا نسمع عن سمات للصوت مثل سمات الأصابع(*).

وأخيراً فثمة قضية انتبه إليها نفرمن علمائنا، ولها بالانزياح مساس ضعيف أو قويّ، وتلك هي أنهم أدركوا أن طرفًا من فصاحة الكلمة يرتد إلى تباعد - والانزياح تباعدٌ - مخارج حروفها، فنحن نقرأ عند ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) أن «الحروف كلما تباعدت في التأليف كانت أحسن، وإذا تقارب الحرفان في مخرجيهما قُبح اجتماعهما، ولا سيما حروف الحلق»(٤٧). وكما نجد عند ابن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦هـ) مقارنة بين الحروف والألوان، إذ يقول: «ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة، لقرب مابينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود، وإذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه، كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة»(٤٨). ومـمّا تجدر ملاحظته أن حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة لم يكن كذلك لأمر ذوقي أو اختياري من الإنسان، بل كان لأن آلة الكلام - وهي اللسان - رُكبت على أن تكون أقدر على نطق الحروف وهي في تباعد.

فردية الإنسان لا تبدو في شكله الظاهري فحسب، وإنما - أيضًا - في شخصيته التي لا ينازعه أحد في سماتها

وبعد، فلعل من شأن كل ما مضى أن يعاضد من مفهوم الانزياح بما هو مفهوم أسلوبي، وأن يقوّيه على نحو مباشر أو غير مباشر، فإن يكن الكون في انزياح دائم، وخلق جديد، فإن اللغة - وهي مادة الأدب - هي الأخرى فضاء وكون من العلامات منزاح.

ولئن بدا شكلها للنظرة الإجمالية ثابتًا فإن من وراء هذا الثبات الظاهر لتغيّرات مستمرة، فترى الدالّ ساكنًا، ولكنّ المدلول في حركة دائبة(*).

والحق أن انزياح اللغة وانزياح الكون ليدلان على أن كلا الكونين ناقص وغير مكتمل. وما الانزياح فيهما إلا سعي نحو آفاق الكمال، بيد أن استمرار الانزياح دالٌّ حتماً على أن النقص فيهما باق ومستمر. وإذن ليس ثمَّ كمال.

٣٦ـ بليخانوف: الأدب بين المادية والمثالية، ترجمة: حامد أبوحمداي، ط١ مكتبة المعارف بيروت ١٩٥٦م، ص٧٧.

٣٧ـ دائرة الإبداع، ص٩٩.

٣٨ـ الجرجاني، الشريف: التعريفات، المطبعة الحميدية، القاهرة، ١٣٢١هـ، ص٤٤.

٣٩ـ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط٣، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ج٢، ص٢١٢.

٤٠ـ الغزالي: محك النظر بيروت ١٩٦٦م، ص٨٤ وللغزالي كلام عن التقليد في رسالته: فيصل التفرقة، ص١٤٨.

٤١ـ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، ط١، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٠م، ج١، ص١٣.

٤٢ـ جاء في كتاب: كشف الخفاء ومزيل الإلباس، للعجلوني ٢٨٢/١ إن هذا الحديث رواه أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخرجه الطبراني في الأوسط عنه أيضاً بسند رجاله ثقات، وأخرجه الحاكم من حديث ابن وهب وصححه. وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث.

٤٣ـ انظر: كامل، فؤاد: الفرد في فلسفة شوبنهور، دار المعارف بمصر ١٩٦٣م، ص٢١.

٤٤ـ انظر: المرجع السابق والصفحة.

٤٥ـ إقبال، محمد: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص١٣٩، ونبهني أستاذي الدكتور عصام قصبجي على أن هذا النص قد ورد في صيغة أخرى، وهي قوله: أموت حجراً ثم أصير نباتًا، وأموت نباتًا وأرتقي إلى مرتبة الحيوان، وأموت حيوانًا ثم أبعث إنسانًا.. وأموت إنسانًا وأصير ملكًا، وأجاوز مرتبة الملك نفسه. لأن «كل شيء هالك إلا وجهه». أجل، سأرتقي، سأرتقي فوق الملك، وسأكون ما لا يمكن أن يرى، سأكون العدم، العدم، اسمع فالأرغن يرن: ألا إلى الله تصير الأمور؛ بامات، حيدر: مجالي الإسلام، ترجمة: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ص٣٥٨ - ٣٥٩.

٤٦ـ المصطلح البلاغي القديم: مجلة فصول مج٧، ع٣ و٤، ص٢٢.

(*) يقول عبدالسلام المسدي: «يقوم مفهوم الكلام على مبدأ الفروق الفردية، أي على اختلاف نطق أبناء المجموعة اللسانية الواحدة من حيث الخصائص التشريحية، وهو ما يعرف بالبصمات الشخصية التي هي ظاهرة نوعية لا تختلط، فمثلما أن خريطة التجاعيد التي تتسم بها بشرة الإنسان لا يمكن أن تتطابق كليًا بين آدمي وآخر، ولو في مساحة ضيقة كمساحة أنملة الإبهام - وهذا من معجزات الخليقة - فكذلك خصائص الأداء الصوتي المنجز للكلام. ولئن كانت للحروف والحركات خصائصها الذاتية من مخارج وصفات بما لا يتسنى معه أن يختلط أي صوت بآخر، فإن إنجازنا لها يضفي عليها سمات فردية تجعل تصويت الواحد منها لا يختلط بتصويت غيره، ولولا هذه البصمات الفردية لما تسنى للواحد منا أن يعرف مخاطبه من خلال صوته دون أن يراه، وليس من شرط لذلك إلا أن يكون قد ألفه. والسر في ذلك أن لكل حرف عند تصويته فضاء مرنًا من حيث تموج الدفع عبر الهواء. وتستقر خصوصيات كل فرد في مستوى الأداء عن طريق حدود فاصلة في موجات الدفع. بحيث إذا نطق شخصان بحرف «الباء» فإنهما ينجزانه في حيز فضائه الفيزيائي، ثم ينفرد كل واحد منهما بقياس دقيق يخص ارتفاع الموجة ومداها كما يخص انفكاك عقدها. اللسانيات وأسسها المعرفية، ط١ الدار التونسية للنشر والدار الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٨٦م، ص٢٠١ - ٢٠٢. ويمكن للتوسع مراجعة كتاب سعد مصلوح: دراسة السمع والكلام، عالم الكتب القاهرة، ١٩٨٠م الباب الثالث منه خاصة.

٤٧ـ سر صناعة الإعراب: تحقيق: مصطفى السقا ورفاقه، ط١، مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٤م، ٧٥/١.

٤٨ـ سر الفصاحة، تحقيق: عبدالمتعال الصعيدي، مكتبة صبيح القاهرة ١٩٥٣م، ص٦٦.

(*) ينظر للتوسع في تغيرات اللغة: مارتينيه، أندريه: مبادئ اللسانيات العامة، ترجمة: أحمد الحمو، طبعة وزارة التعليم العالي دمشق ١٩٨٥م، ص١٧٥ - ١٧٩.

من الأداء الحركي للتشبيه

محمد العيد الخطراوي

يظل الشعر أقدر الفنون جميعًا على تصوير المشاهد المتحركة، وتقديمها في إطار فاعل ومتحرك أخاذ، بحيث يكاد يدخل بالمتلقي إلى داخل الصورة، ويحوله إلى جزء منها، وذلك بما أوتي من قدرة متفردة على الدقة في الوصف، وحسن الاختيار للكلمات والتراكيب، والروعة في التصوير بالحقيقة تارة وبالمجاز تارات، والقدرة على رصد الحركات الدقيقة من أمور متعددة وفي أوضاع مختلفة، إلى درجة التضاد، من دون أن تضعف لديه وسائل الأداء، وذلك كما في قول امرئ القيس يصف سرعة حصانه:

مكرٍّ، مفرٍّ، مقبل، مدبرٍ، معًا
كجلمودِ صخرٍ حطَّه السيلُ من علِ



فقد أعطانا المشهد الحركي الناتج من سرعة الإقبال والإدبار في لحظة واحدة، حتى لا يكاد يختلط علينا إقباله وإدباره، وذلك ما نهضت به الكلمة الحقيقية (معًا)، ثم يأتي التشبيه في الشطر الثاني، لينهض ببقية معالم الصورة، يقول صاحب التلخيص معلقًا على هذا البيت: «إن هذا الفرس لفرْط ما فيه من لين الرأس وسرعة الانحراف، ترى كفله في الحال التي ترى فيها لَبَبه، فهو كجلمود صخر دفعه السيل من مكان عالٍ، فإن الحجر بطبعه يطلب جهة السُّفل، يُرى أحدُ وجهيه حين يُرى الآخر».

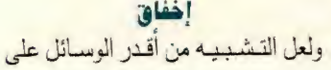
فالشاعر هنا عبر عن شدة سرعة حصانه في حالي الإقبال والإدبار بشكل يقف أمامه الرسامون مبهورين؛ لأنهم في أكثر حالاتهم توفيقًا إنما يعبرون عن ذلك في لوحتين منفصلتين. وقد رأينا في هذا البيت أهمية دور التشبيه في استكمال هذه الصورة الحركية الرائعة، مع تصويره لجسم الحصان ولياقته ومرونته.

إخفاق

ولعل التشبيه من أقدر الوسائل على القيام بهذه المهمة، وأغناها أداء في هذا المجال، أعني مجال نقل المشاهد المتحركة، مع الحفاظ على الجوانب الأخرى للصورة، ففي استطاعته - مثلاً - الجمع بين الحركة وغيرها من أوصاف الجسم، كالشكل واللون، ومن أمثلة ذلك قول عبدالله بن المعتز، أو أبي النجم العجْلي:

والشمسُ كالمرآة في كف الأشَلْ
لمَّا رأيتُها بدتْ فوق الجبَلْ

فإن الصورة المتكونة من هذا التشبيه تتمثل في «الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق، والحركة السريعة المتصلة، وما يحصل في الإشراق بسبب تلك الحركة من التموج والاضطراب، حتى يُرى الشعاع كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانب الدائرة، ثم يبدو له فيرجع الانبساط الذي بدا له إلى الانقباض، كأنه يجتمع من الجوانب إلى الوسط، فإن الشمس إذا أحدَّ الإنسانُ النظر إليها ليتبين جرْمها، وجدها مؤدية لهذه الهيئة، وكذا المرآة إذا كانت في يد الأشل»، فهو يشبه الشمس بذلك عند طلوعها فيركز على مظاهر ثلاثة في الجسم هي الاستدارة



والإشراق والحركة، وبالجمع بينها تتكون هذه الصورة الجميلة الرائعة.

ومع جمال هذه الصورة من الناحية الشكلية فإنني أرى أن ابن المعتز أخفق في هذا التشبيه من وجهة نظري، وذلك لعدم مراعاته لتباين الأثر النفسي بين طرفي التشبيه، فبينما هو يرمي من كلامه إلى إمتاعنا بمنظر طلوع الشمس، تنكمش نفوسنا لمنظر الضعف الإنساني المتمثل في عجز كف الأشل عن حمل المرآة، وشتان بين ما يحدثه فينا تشبيهه وبين ما أراده!.

ومثله قول المهلبي الوزير «هو الحسن بن محمد، ينتهي نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة/ ٢٩١ ـ ٣٥٢هـ/ من كبار الوزراء الأدباء الشعراء»:

والشمس من مشرقها قد بدتْ
مشرقةً ليس لها حاجب
كأنها بُوتَقَةٌ أُحْمِيتْ
يجولُ فيها ذهبٌ ذائب

المفردات: المراد بالحاجب: السحاب، لأنه يحجب الشمس من الظهور. البُوتقة: وعاء مستدير يذيب فيه الصائغ الذهب أو الفضة.

(التلخيص ٢٧ ـ ٢٩ شرح البرقوقي/ فإن البُوتَقة إذا أُحميت وذاب فيها الذهب، تشكل بشكلها في الاستدارة، وأخذ يتحرك فيها بجملته، تلك الحركة العجيبة، كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها لما في طبعه من النعومة، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض لما بين أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم، ولذلك لا يقع فيه غليان على الصفة التي تكون في الماء ونحوه، مما يتخلله الهواء)، فنلحظ أنه بنى تشبيهه على صفتي الاستدارة والحركة الانسيابية المتكررة، ولا أعتقد أنه كان سيتحقق لهذا التشبيه ما تحقق له من الجمال لو فقد عنصر الحركة.

ولكون التشبيهين السابقين أحدهما لملك ابن ملك هو عبدالله بن المعتز، وثانيهما لوزير ابن أمراء هو الحسن المهلبي، فإنهما يستثمران ما تقع عليه عيونهما من حياة المدنية وأدوات الحضارة العباسية (المرآة + البُوتقة).

ومن الأداءات الحركية للتشبيه قول المجنون:

كأن القلب ليلة قيل يُغدَى
بليلى العامريةِ أو يراحُ
قَطاةٌ عزَّها شَرَكٌ فباتت
تجاذبه وقد علِق الجناحُ

المفردات: القطاة: واحدة القطا، وهو نوع من اليمام، ملوّن بالصفرة، يؤثر الحياة في الصحراء، يضرب به المثل في الاهتداء إلى الماء. عزَّها: غلبها، قال تعالى: وعزّني *في الخطاب*. **ص:٢٣**. الشَّرك: حبالة الصيد، جمعها: أشراك، وشُرُك.

قد يعبر التشبيه عن الجانب الحركي وحده في الأجسام مجردًا عن أي وصف آخر مصاحب

ربط الشاعر بين الحركة الخفية العنيفة المستمرة في القلب، المترتبة على الإرجاف برحيل العامرية، والحركة الظاهرة العنيفة المستمرة لقطاة غلبتها حبالة الصائد على أمرها، وأمسكت بطرف جناحها، فلا هي حرة فتطير، ولا الحبالة متمكنة منها ممسكة بجناحيها معًا، فتشل حركتها، بل تظل طوال الوقت تحاول التحرر تهتز يمنة ويسرة، وفوقا وتحتًا. ولعل الشاعر من حيث يدري أو لا يدري استطاع أن يعبر عن طول أمد العذاب بهذه الحركة بالإطالة الفاصلة بين المبتدأ الذي هو القلب (اسم كأنّ)، والخبر، الذي هو (قطاة)، وإذا كان القدماء انطلاقًا من وجوب وحدة البيت عابوا على الشعراء ما سموه بالتضمين المراد به اعتماد البيت في دلالته على غيره اعتمادًا نحويًا، وذلك كما هو الحال هنا، حيث المبتدأ في بيت والخبر في البيت الثاني، فإنهم يغفلون عن مثل ما أشرنا إليه من دلالة ترتفع بقيمة مثل هذا الوضع الشعري المترتب على الوضع النحوي المشار إليه.

الحركة وغيرها

ومن هذه الأداءات الحركية للتشبيه قول الشاعر أبي بكر أحمد بن محمد الصنوبري (المتوفى سنة ٣٣٤هجرية) يصف روضة:

كأنّ في غُدْرانها
حواجبًا ظلت تُمَطّ

المفردات: الغُدران: جمع غدير، وهو القطعة من الماء يغادرها السيل. تُمطّ: تُمَدّ.

قال البرقوقي: يصف أرضا بأن غدرانها تهب عليها الرياح فيظهر على صفحاتها أشكالٌ كأنها حواجب لها تقوُّس وامتداد.

وقال صاحب التلخيص: «أراد ما يبدو في صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار، ثم تمتد امتدادًا ينقص من انحنائها، فينقصها من التقوس إلى الاستواء، وذلك أشبه شيء بالحواجب إذا امتدت، لأن للحاجب كما لا يخفى تقويسًا، ومدُّه ينقص من تقويسه».

إن الحواجب حين تمتد أو تنحني، ثم تتراجع فتتقوس، لا تكون أشكالها منفصلة عن العين، بل الحقيقة أن أشكالها لا تتكون في حالة التقوس والانحناء إلا منسوبة إلى العيون، وكذلك حوافي الغدران أو الاندياحات التي تحدثها الرياح على صفحة الماء إنما تتقوس وتنحني بحركة الرياح منسوبة إلى الماء الذي هو في مقابل العيون، فالتشبيه إذن قائم على متحرك ومستقر، في كلا الطرفين، وليس على المتحرك وحده، ومن هنا يتحقق الجمع بين الحركة وغيرها مما لم يُشر إليه الشُّراح، ولو كان المقصود الحركة وحدها، لكان للشاعر أن يشبه حركة تلك الخطوط بحية ماضية في رمال تمتد وتنحني ونحو ذلك مما يصلك الانبساط والانقباض، لا أن يربطها بحواجب العين. ولكنه لم يفعل، فدلّ ذلك على أن ما ذهبنا إليه في إيضاح التشبيه أولى في الفهم من غيره، بالإضافة إلى ما توحي به الحواجب من حماية للعين، وما

توحي به العين من رؤية وإبصار يجب الحفاظ عليهما، كما يجب الحفاظ على ماء الغدران شرباً ومنظراً وشريانَ حياة.

وقد يعبر التشبيه عن الجانب الحركي وحده في الأجسام مجرداً عن أي وصف آخر مصاحب، وبخاصة إذا اشتمل ذلك الجانب الحركي على حركات كثيرة مختلطة للجسم، متخذة لها جهات مختلفة منه، «وذلك كأن يتحرك بعضه إلى اليمين وبعضه إلى الشمال، وبعضه إلى العلو، وبعضه إلى السُّفْل»، ذلك أن بعض الحركات لا تركيب فيها، مثل حركة الرّحا، والدولاب، والسهم، لاتحاد الحركة جهة ونوعاً، بينما هناك حركات مركبة إما في نوعها أو في اتجاهاتها، وذلك كحركة المصحف في قول ابن المعتز:

وكأن البرقَ مصحفُ قارٍ

فانطباقًا مرةً وانفتاحًا

قار: أصلها قارئ، قلبت همزتها ياء تسهيلاً، فصارت قاري، فأخذت صورة المنقوص، كقاضي، فأُعلّت إعلالها بحذف الياء حسب القاعدة القاضية بذلك فحذفت الياء فصار (قارٍ).

لحظ الشاعر البرق يتسفّل ويعلو في حركته مع تكرُّرها، فارتبط في ذهنه بصورة المصحف الذي يتجه في انفتاحه إلى أعلى ثم يتجه في انطباقه إلى أسفل، مع تكرار الحركة أيضاً، وربما الذي أوحى إليه هذا الربط، وولّد في نفسه هذه الصورة هو الوشائج النفسية القائمة بين الطرفين في داخل ابن المعتز، هي هذه النورانية بين البرق والقرآن، وهي هذه العلوية في سماوية السماء وسماوية القرآن، وهي هذه النُّبوع والخيرات الآتية من البرق والناجمة من القرآن الكريم.

قال صاحب التلخيص: «وكلما كان التفاوت في الجهات التي تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد، كان التركيب في هيئة التحرك أكثر»، ومن لطيف ذلك قول الأعشى الكبير ميمون بن قيس يصف السفينة في البحر، وتقاذف الأمواج بها:

تقِصُ السفينُ بجانبيه، كمَا

يَنْزُو الرِّبَاحُ خَلاَلَهُ كَرَعُ

المفردات: تقص: مضارع وقَص، بمعنى تثب. السفن: اسم جنس جمعي مفرده سفينة. قال الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في أسرار البلاغة ص ٢١/مطبعة الاستقامة: (الرُّباح: الفضيل. والكَرَعُ: ماء السماء. شبه السفينة في انحدارها وارتفاعها، بحركات الفضيل في نزوه، فإنه يكون له حينئذ حركات متفاوتة، تصير لها أعضاؤها في جهات مختلفة، ويكون هناك تسفّل وتصعّد على غير ترتيب، وبحيث يدخل أحدهما في الآخر، فلا يتبينه الطرف مرتفعاً حتى يراه متسفلاً، وذلك أشبه شيء بحال السفينة وهيئة حركتها حين تتدافعها الأمواج).

تأويل بعيد

وعلى الرغم من أن البلاغيين بهذا الشرح ارتضوا كمال التشابه بين الطرفين، والتفتوا فيه إلى شدة الحركة في أبعاض الجسم، إلا أنني ألحظ أنه ليس للسفينة أبعاض متحركة، وإنما الأبعاض الشديدة الحركة متمثلة في الأمواج المتدافعة من حولها، فلا تستقيم الصفة الجامعة في المشبه إلا على تأويل بعيد، ولا يستقيم التشبيه إلا إذا احتسبنا الحركة في ذات السفينة بسبب تدافع الأمواج، فهي مرة تذهب يمنة، ومرة تذهب يسرة، وتارة تصعد بها الأمواج، وأخرى تسفّل بها. وهكذا وعددنا الحركة في المشبه به، في كامل جسم الفصيل نُزُواً وقفزاً هنا وهناك، ابتهاجاً بالماء أو ابتغاءله، من دون النظر إلى وضع الأعضاء، وربما كان الأنسب أن نتصور نزوه داخل الماء، ليكمل الشبه بين الطرفين، فالسفين تقص خلال البحر، والرباح خلال الماء، يقفز فيه بحرية، ولهذا أتى بعبارة (خَلاَلَهُ).

تفصيل دقيق

ومن هذا القتيل الذي يعبر عن شدة الحركة قول ابن المعتز وتنسب أيضاً لغيره:

حُفّتْ بسَرْوٍ كالقيان تلحّفت

خُضْرَ الحرير على قَوام معتدلْ

فكأنها والريح جاء يُميلها

تبغي التعانقَ ثم يمنعها الخجل

هو يصف روضة حفت بشجر السَّرْو المعروف، الذي اعتادوا أن يشبهوا به قوام الحسان، أو يشبهوا القوام به، وذلك حينما يريدون بث الحياة والحركة فيه، مفرده سَرْوة، وهو هنا يُشبّه أشجار السرو الخضراء المعتدلة بقيان رشيقات القوام متلحفات بحرير أخضر. والمراد بالحديث هنا التشبيه الوارد في البيت الثاني، قال عنه صاحب التلخيص معللاً جماله، وموضحاً شدة الحركة المتمثلة فيه: «فإن فيه تفصيلاً دقيقاً، وذلك أن راعى الحركتين: حركة التهيؤ للدنو والعناق، وحركة الرجوع إلى أصل الافتراق، وأدى ما يكون في الثانية من سرعة زائدة تأدية لطيفة؛

للتشبيه القدرة على الأداء الحركي في تصوير المشاهد والحالات النفسية، ومظاهر الجمال في الحياة

لأن حركة الشجرة المعتدلة في حال رجوعها إلى اعتدالها أسرع لا محالة من حركتها في حال خروجها عن مكانها من الاعتدال، وكذلك حركة من يدركه الخجل فيرتدع، أسرع من حركة من يهم بالدنو؛ لأن إزعاج الخوف أقوى من إزعاج الرجاء».

وإنها لصورة تؤكد بحقّ قدرة التشبيه على الأداء الحركي في تصوير المشاهد والحالات النفسية، ومظاهر الجمال في الحياة، مما يعطي للتشبيه أهميته اللائقة به في مجال التعبير وسيلةً وأداةً، ودراسةً وتحليلاً، وعلى هذا فليست الاستعارة أبلغ من التشبيه دائماً كما يقال، وإنما الأمر مرتهن بحسن اقتناص الصورة وعناصرها وطريقة التعامل معها، ولعلنا من خلال الأمثلة السابقة نزداد إيماناً بأهمية التشبيه الفنية بصفة عامة، وبخاصة في الجانب الحركي.

علم الدلالة وتراثنا العربي

سعد محمد الكردي

علم الدلالة SEMANTICS هو العلم الذي يدرس المعنى، وهو حديث النشأة نسبيًا؛ لأنه ثمرة من ثمرات الدراسة اللغوية الحديثة، وواحد من أهم نتائجها، اتضح مفهومه، وظهرت أصوله ومناهجه، وتفرّغ للعمل فيه علماء مختصون في أوربا منذ أواسط القرن التاسع عشر أمثال عالم اللغة الفرنسي ميشيل بريال (١٨٣٢ - ١٩١٥م)، والعالمين الإنجليزيين أوجدن وريتشاردز اللذين ألّفا كتابًا خاصًا في دراسة الدلالة هو «معنى المعنى» فصّلا فيه كل ما يتصل بطبيعة المعنى ومشكلاته وتعريفاته، ثم ظهر في فرنسا، وبعد سنين طويلة في الاتحاد السوفييتي، ثم شاع في أنحاء العالم(١).

وقد أخذ هذا العلم يسلك مسلكًا تطوريًا ملحوظًا على يد اللغوي المشهور استيفن أولمان الذي ألف كتاب «الدلالة»، وكتاب «مفهوم الدلالة»، وكتاب «الكلمات واستعمالاتها».

وتابع هذا العلم تطوره على يد اللغوي الشهير بلو مفيلد الذي راح يعالج موضوع الدلالة بالمنهج السلوكي(٢).

اختلاف في مضمونه وموضوعه

ويجد الناظر في الجهود الدلالية لهؤلاء العلماء أنهم قدموا تعريفًا لهذا العلم، وبيّنوا مضمونه، وموضوعه، وعددوا أنواع الدلالات للكلمة، وتحدثوا عن الوحدات الدلالية وعن أقسامها الأساسية، وأنواع المعنى (كالمعنى الأساسي أو المركزي، والمعنى الإضافي أو العرضي، والمعنى الأسلوبي، والمعنى النفسي، والمعنى الإيحائي)، ووقفوا عند مناهج تحديد المعنى، وعند تعدده، ومشكلاته، وعند أشكال تغيره(٣).

وعلى الرغم من ذلك كلّه مازال البحث مستمرًا في هذا العلم، ولم تستقرّ بعد أصوله ومناهجه، لتعدد الآراء حولها، واختلاف الباحثين في مضمونه، وموضوعه.

وعلم الدلالة أو دراسة المعنى موضوع أساسي من موضوعات علم اللغة، ويبقى البحث اللغوي من دون العلم مبنيًا على النظر في الشكل وحده، أي يبقى ناقصًا، أو مُغْفلاً لوظيفة اللغة التي يتحقق فيها الفهم، والتوصيل، والتعبير عن الأفكار، والأحاسيس، والحاجات(٤).

وعلم الدلالة يبحث في المفردات وما يحصل لها من تطور، فيبيّن معناها العام أو الخاص، ويؤرخ لها أحيانًا، بادئًا بأصولها، ومشيرًا إلى معانيها الحقيقية، ثم إلى معانيها المجازية، أو إلى معانيها الحسية، ومعانيها العقلية المجردة، كما يبيّن هويتها وأصلها إن كانت دخيلة على اللغة فيرجعها إلى اللغة الأم. ويدرس اللفظة المجردة بمعناها العام، كما يدرسها مركبة في السياق؛ ليبيّن معناها الخاص الدقيق. هذا بالنسبة إلى البحث اللغوي عند غير العرب.

وسيلة لا غاية

وأما بالنسبة إلى البحث اللغوي عند العرب، فكان البحث في دلالة الألفاظ من أهم ما لَفَتَ أنظار الباحثين واللغويين العرب، وأثار اهتمامهم في المراحل المبكرة، غير أن بحثهم في الدلالة كان على نحو متداخل في العلوم الدينية، كعلم التفسير، والقراءات، وغريب القرآن، وغريب الحديث، ولغات القرآن، والوجوه والنظائر، وغيرها من العلوم الدينية، أو كان ضمن اهتمامات لغوية أخرى، صنيعهم في معاجم المعاني، ومعاجم الألفاظ، فكان بحثهم في معاني المفردات والتراكيب ودلالاتها وسيلة لا غاية؛ ولذلك لم يكن لعلم الدلالة استقلاله الخاص بالتسمية، والمصطلح، والمفهوم، والمعيار، والمؤلفات، والباحثين(٥).

ولكن على الرغم من ذلك كلّه، فإن بذور الدراسات الدلالية تناثرت في تراثنا العربي الإسلامي بكثرة، كما أنّ أفكار علم الدلالة قد أُشير إليها في طوايا البحث اللغوي عند العرب المسلمين في مرحلة مبكرة إبّان قيام الحركة العلمية الناشطة حول القرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب المثالية، فارتبطت به ارتباطًا وثيقًا، ولما كان القرآن كتاب العرب المسلمين الأول الذي يفصّل لهم أمور دينهم ودنياهم، تعيّن عليهم قراءته وفهمه، وحين عرضوا لذلك استوقفهم بعض الألفاظ الغامضة، فمسّت الحاجة إلى تفسيره تفسيرًا يزيل غامضة، فكثرت الحاجة إلى معرفة المفردات ومعانيها، فزادت عناية العلماء بها، تلبية لتلك الحاجة، فالتفتوا إلى آثارهم الأدبية التي تحمل في طواياها ألفاظ العربية، وتراكيبها، وطرائقها في التعبير، بعدما جمعوها، وراحوا يستنبطون منها ما يحتاجون إليه في فَهْمِ كتابهم العزيز، وهكذا قامت حلقات العلم، التي غُرِسَت في تربتها بذور الدرس اللغوي، الذي كان فيه كثير من الأمور

والمسائل التي تتعلق بالدراسة الدلالية إلى حدٍّ كبير، مما أدى إلى استحضار اللغة ودراستها دراسة بيّنت معاني مفرداتها، ومعالمها الصوتية، والصرفية والنحوية(٦).

حركة علمية مرتبطة بالقرآن

وقد نمتْ هذه الحركة العلمية اللغوية ذات الصلة الوشيجة بدراسة الدلالة والمعنى التي دارت حول القرآن الكريم، على يد علماء الدين أول الأمر، الذين عكفوا على تلاوته ودراسته آناء الليل وأطراف النهار، باذلين من ذات أنفسهم أبلغ الجهد، لفهم مقاصده، وتبليغها للناس، وقد رأوا أنّ التعمق في دراسة اللغة أمر ضروري، يمكّنهم من فهم القرآن، وهذا ما صرح به دي بور بقوله: «وأكبر ما جعل التعمق في دراسة اللغة أمراً ضرورياً، هو اشتغال المسلمين بمدارسة القرآن وقراءته وتفسيره»(٧).

وفي الحقيقة إذا عدنا إلى تراثنا الديني واللغوي فسنجد أنّ الذين اهتموا بتفسير مفردات القرآن تفسيراً دلالياً معنوياً هم المفسرون، وعلماء القراءة وعلماء الغريب، والباحثون في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، فيما بعد، ومن هنا كانت كتب التفسير، والقراءات، والغريب... من المظان الغنية بالثروة اللغوية الدلالية، وبعد أن انفصلت اللغة عن علوم الدين، أخذت تصبُّ تلك الظواهر في المعاجم وكتب اللغة.

ومصداق ذلك أن علماء غريب القرآن على سبيل المثال لا الحصر، أمثال: أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت نحو ٢١٣هـ)، والأصمعي (ت: ٢١٦)، والأخفش الأوسط (ت: ٢١٥هـ)، وأبي عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤هـ)، ومحمد بن سلاّم الجمحي (ت: ٢٣١هـ)، وابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) وثعلب (ت: ٢٩١هـ).. وغيرهم ممن اشتغلوا بغريب القرآن، قد أسهموا في تفسير المفردات الغريبة فيه، وتوضيح دلالاتها، وبيان مراميها، وأساليبها، وعملهم هذا يُعَدُّ خطوة من خطوات الدراسة اللغوية عند العرب، يدخل ـ بقدر كبير ـ في حقل الدراسة الدلالية للألفاظ(٨).

كما نجد أن علماء القراءة الذين ضبطوا قراءة القرآن، ومخارجها، ووجوه أدائها أمثال أبي موسى الأشعري (ت: ٤٤هـ)، وأبي الأسود الدؤلي (ت: ٦٩هـ)، ويحيى بن يعمر (ت: ١٢٩هـ)، وعبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت: ١١٧هـ)، وأبي عمرو بن العلاء (ت: ١٥٤ هـ)... وغيرهم من القراء الذين اختلفوا في قراءة حروف القرآن، فالتفتوا إلى التماس معاني المفردات لدعم الوجه المختار، وتوجيهه وتوضيحه، مما أدّى بهم إلى أن يسهموا في تفسير مفردات عدد غير يسير من مفردات القرآن الكريم، وإيضاح دلالاتها(٩).

ونجد في جهود الباحثين في لغات القرآن الذين أشاروا إلى ما في القرآن من لغات القبائل أمثال الصحابي الجليل عبدالله بن عباس (ت: ٦٨هـ) صاحب كتاب «اللغات في القرآن»(١٠)، ومقاتل بن سليمان (ت: ١٥٠هـ)، وهشام بن محمد الكلبي (ت: ٢٠٤هـ)، والهيثم بن عدي (ت: ٢٠٩هـ)، والفراء (ت: ٢٠٩هـ)، وأبي زيد الأنصاري (ت: ٢١٥هـ)، وكلهم قد نسب إليهم كتّابُ التراجم تأليف كتب في لغات القرآن، وهؤلاء قد أسهموا في تفسير مفردات القرآن وتوضيح دلالاتها، من خلال تبيين معناها عند بعض القبائل العربية، أو من خلال بيان موافقتها للفظ من ألفاظ أجناس الأمم الأخرى غير العربية(١١).

ونلقى في جهود الباحثين في المشترك اللفظي في القرآن الذين بينوا المعاني المتعددة للفظ الواحد في السياقات المختلفة أمثال المبرد (ت: ٢٨٥هـ)، صاحب كتاب «ما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن المجيد»(١٢) وغيره ممن أسهموا في تفسير مفردات القرآن، وبيّنوا دلالتها المختلفة في إطار المشترك اللفظي، المحور الذي كانت تدور عليه كتبهم.

كما نقع في كتب المفسرين ـ الذين عُنوا بالجوانب اللغوية في القرآن الكريم، فنظروا في معاني ألفاظه ودلالاتها، وشرحوها إلى جانب عنايتهم بمعاني الآيات وما يتعلق بها من إيضاح ـ على دراسات دلالية غنية؛ لأن علم التفسير من أهم العلوم ذات الصلة الوثيقة بالمعنى.

وهذا القدر من الدراسات اللغوية التي دارت حول شرح ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه، وإيضاح دلالاتها ينهض دليلاً لا يجحد على ما بذله السلف في هذا الميدان، ويدلّ على غنى تراثنا العربي الإسلامي ببذور الدراسة الدلالية، التي تحتاج إلى تكاتف الجهود للبحث فيها لإقامة علم دلالة عربي.

المراجع والهوامش:

١ـ علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر: ١١ط١، دار العروبة الكويت ـ ١٩٨٢م، وعلم الدلالة العربي، د. فايز الداية:٦ دار الفكر دمشق ـ ١٩٨٥م.

٢ـ أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج: ٣٠٣ ـ ٣٠٤، د. مسعود بوبو، وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨٢م.

٣ـ لتفصيل هذا الإجمال يُنظر كتاب (علم الدلالة) للدكتور أحمد مختار عمر.

٤ـ دراسات في اللغة: د. مسعود بوبو: ٩٩ مطبعة ابن حيان ـ دمشق ـ ١٩٨٣م.

٥ـ علم الدلالة العربي: ٢١ ـ ٢٢.

٦ـ للتفصيل يُنظر: تهذيب اللغة للأزهري: ١/ ٤ ـ ٥، والمعجم العربي نشأته وتطوره، للدكتور حسين نصار: ١/٣١، وفي أصول النحو للأفغاني: ١٠٠، ورواية اللغة، للشلقاني: ٥٨، ٦٧، وفقه اللغة في الكتب العربية: ٣٣ ـ ٣٥، وفصول في فقه اللغة العربية، للدكتور رمضان عبدالتواب: ٥، ١٠٨، ودراسات في اللغة، للدكتور مسعود بوبو: ١٠٧ ـ ١٠٩.

٧ـ تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور: ٣٧.

٨ـ الفهرست: ٧٨ ـ ٩٦، والنهاية في غرائب الحديث والأثر: ١/ ٤ ـ ٥، وكتاب الدلائل في غريب الحديث، للسرقسطي، دراسة الدكتور شاكر الفحام: ٤، والتطور اللغوي التاريخي: ٤٢، وأثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج: ٣٥١، ومعجم الأدباء: ١/١٠٨، ورواية اللغة: ٩٠ ـ ٩١، ومصادر التراث العربي، للدكتور عمر الدقاق: ١٣٧.

٩ـ مشاهير علماء الأمصار للبستي: ٣٧، وطبقات الحفاظ، للسيوطي: ٧، ومحاضرات المرحوم أحمد راتب نفاخ على طلبة الدراسات العليا في (علم القراءات) في العام الدراسي ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩م في جامعة دمشق.

١٠ـ برواية ابن حسنون المقرئ (ت ٣٨٦هـ) بإسناده إلى ابن عباس، حققه الدكتور صلاح الدين المنجد، وطبعه في بيروت عام ١٩٧٢م.

١١ـ الفهرست: ٣٨.

١٢ـ حققه العلامة عبدالعزيز الميمني، وطبعته المطبعة السلفية بالقاهرة عام ١٣٥٠هـ.

النظرة العنصرية ضد العرب في الأدب العبري الحديث

سعيد عبدالسلام العكش

من المعروف أنه قبل أن تدخل الحركة الصهيونية بصفتها السياسية الميدان الفلسطيني ، كانت هناك جالية يهودية في فلسطين تتعبد في الأرض المقدسة دون أية مطامع سياسية. وقد تعايش أفرادها مع المواطنين العرب مسلمين ومسيحيين، وكانت لهم مطلق الحرية في ممارسة الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية، ولم يُظهر العرب لهم أي نوع من العداء، وعاملوهم أحسن معاملة، ونعموا بروح التسامح الديني(١). ولكن هذا الموقف تغير كليًا بدخول الصهيونية السياسية، وأصبحت أسس الحركة منذ البداية التفرقة بين اليهودي وغير اليهودي. وبدأ المستوطنون اليهود يتعاملون مع العرب معاملة سيئة. ويصف المفكر الصهيوني آحاد هاعام (١٨٥٦ ـ ١٩٢٧م) هذه المعاملة فيقول: «إن المستوطنين يتعاملون مع العرب بعداء وقسوة، يعتدون عليهم دون مسوغ، يضربونهم ويحتقرونهم»(٢).

ولقد أسهب الباحثون في الحديث عن الأشكال المختلفة من التمييز العنصري الصهيوني ضد العرب. ويمكن القول بإيجاز: إن الأمثلة الرئيسة لهذا التمييز على المستوى الرسمي تناولت السكن، وذلك بإجبار العرب على السكن في أماكن معينة، وفي أحوال سكنية سيئة، والتفرقة ضدهم في الخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية؛ وحرمانهم من كثير من الحقوق المدنية، ولا سيما ما يتعلق بحرية الحركة والتعبير عن الرأي، والتمييز ضدهم من حيث الجنسية والعمل، وحصر استخدامهم في ميادين الأعمال غير الماهرة والقليلة الأجرة. وقد كشف الكتاب السنوي لإسرائيل لعام ١٩٧١م أن عدد العرب المستخدمين كموظفين تنفيذيين في المؤسسات والوزارات بلغ سبعة فقط من مجموع ١٦٢٢(٣).

ويبرز الأديب الإسرائيلي أ.ب. يهوشواع المولود عام ١٩٣٦م ميادين الأعمال التي يعمل بها العرب فيروي في روايته «العاشق» نوعيات هذه الأعمال على لسان الشاب العربي «نعيم» فيقول: «عمال بناء، عمال حدائق، غاسلو أطباق، حفارو آبار، خادمات وعمال كراجات، كلهم يحملون أكياس بلاستيك فارغة وهويات جاهزة في الجيب الأيسر لإخراجها».

استفتاء شعبي

بيد أن الأهم من تلك الممارسات العنصرية ضد العرب النظرة السائدة بين الصهاينة عن العرب وموقفهم الآيديولوجي منهم. وربما جاء خير عرض لهذا الموقف في الاستفتاء الشعبي الذي جرى عام ١٩٧١م بين مجموعة ممثلة للمجتمع الإسرائيلي عن آرائهم بشأن العرب. وكانت الإجابات بهذا الشكل(٤):

	نعم	لا
العرب أحط من الإسرائيليين	٦٧٪	٢٣٪
العرب أكثر قسوة من الإسرائيليين	٧٥٪	١٧٪
أكثر العرب يحملون حقداً أعمى ضد الإسرائيليين	٦٨٪	٢٦٪

ومن أمثلة هذه الآراء الشخصية في الأدب العبري الحديث ما ورد في رواية «العاشق» للأديب يهوشواع الذي يصف فيها الشاب العربي «نعيم» بأنه إنسان بعيد عن النظافة والتحضر، ولكنه تعلم فيما بعد كيفية المحافظة على النظافة على يد العجوز اليهودية فيدوتشا، ومن ثم فهو من وجهة نظره أحط من الإسرائيليين فيقول: «يعود العربي في آخر الليل قذراً، حذاؤه مليء بالطين، ولكنه تعلم أن يخلع حذاءه عند المدخل والدخول بجواربه فقط إلى الشقة».


هرتزل

وفي قصة «أنقذ إسرائيل» يصف الأديب آهارون أمير (١٩٢٣ ـ ....) العرب بالقسوة، وبأنهم مخربون وسفاحون فيقول: «العرب! العرب يحطمون كل شيء. سفاحون سفاحون».

ويشير الأديب حاييم هزاز في رواية «ياعيش» إلى حالة العداء بين العرب واليهود في اليمن، وأن العرب يحملون حقداً أعمى ضد اليهود، فيروى أنه مر أحد أثرياء العرب بجماعة من اليهود يغنون ويرقصون على قارعة الطريق، فنهرهم وسبهم، ثم تفرقوا على الفور وهم يهمسون فيما بينهم: «ليمح الله اسمه واسم ذكرى الكلب ابن الكلب، إنه يحسد سعادة إسرائيل».

إنهم عرب!!

فإذا كان هذا هو الشعور الرسمي، والشعبي بين سواد الجماهير فإن المفكرين الصهاينة لم يكونوا أقل تعصباً من رجل الشارع. فقد روى النائب البريطاني مكسويل هيلسوب كيف انطلق الدكتور هاكوهين رئيس لجنة الشؤون الخارجية للكنيست في قذف قاس على العرب. وعندما اعترض النائب البريطاني على قسوة الكلام بحق اللاجئين الفلسطينيين، أجابه الدكتور هاكوهين: «إنهم ليسوا

بمخلوقات بشرية. إنهم ليسوا بأناس. إنهم عرب»(٤).

وتظهر هذه الصورة في الأدب العبري الحديث. ففي قصيدة «هنا» يتهكم الشاعر أفراهام شلونسكي (١٩٠٠ - ١٩٧٣م) من إسماعيل (العرب) وأمه هاجر من خلال حوار يدور بين الإله وإسماعيل، حيث يصف ابن هاجر بأنه يعيش بين الحيوانات فيقول:

«من أنت؟ يسأل الرب إسماعيل.
ويرد عليه إسماعيل:
ابن هاجر
الجار الذي يسكن بين الجراء».

ومن الكلمات الشائعة على ألسنة المفكرين الصهاينة في الإشارة إلى العرب وصفهم بالوحوش والمنحطين وغبار الإنسانية، وتظهر هذه الأوصاف كثيراً في الأدب العبري الحديث مثال ذلك قصيدة «وقت الحراسة» للشاعر شاؤول تشرنيحوفسكي (١٨٧٥ - ١٩٤٣م) التي يجسد فيها الرؤية الصهيونية للشخصية العربية الفلسطينية، ويظهرها في صورة متوحشة متعطشة للدماء فيقول:

«من أجل أب تقدم به العمر، ومن أجل أم عجوز
قدسا الرب في قوتهما وبأسهما
وباركا الابنة، وتركا ابنهما
للحرب المقدسة ضد وحوش البشر
ضد إنسان الصحراء المزدري والمتعطش للدماء».

غبار الإنسانية

وفي قصة «أراضي ابن آوى» يجعل عاموس عوز (١٩٣٩ -) العرب غبار الإنسانية، وأعداء الحضارة، ويرى أنهم إذا جاؤوا إلى منطقة متطورة معمورة دمروها، وجلبوا إليها القمل والبراغيث، فيقول على لسان شاب يهودي يدعى متاتياهو: «جمهور عفن مكفهر ذو عظام بارزة ينشر القمل والبراغيث، وتفوح منه - بلا شك - رائحة كريهة، والجوع والكره سبب جفاء وجوههم، تتقد عيونهم اتقاداً جنونياً. غمر اندفاعهم المتدفق السهول الخصبة، وهم يمرون على القرى الخربة المهجورة ولا يعوقهم شيء. وفي تدفقهم نحو الغرب يجرفون كل ما يصادفهم، ويقتلعون الأوتاد، ويتلفون الحقول، ويحطمون الأسوجة، ويدوسون الحدائق، ويحولون لون البساتين الأخضر إلى أصفر، ويتسلقون الجدران كالقرود المتوحشة، ويمضون في السير إلى الأمام نحو الغرب إلى رمال البحر...».

وهكذا، فإنه يمكننا القول: إن الأمثلة التي ذكرناها تثبت - بلا شك - النظرة العنصرية التي ظهرت في الأدب العبري الحديث ضد العرب، مما يتنافى مع الدور الإنساني الذي يفترض أن يؤديه الأدب للإنسانية.

عبيد وسط حرية بلا حدود

وكان آحاد هاعام من أول المفكرين الصهاينة الذين لفتوا نظر الحركة الصهيونية لأخطائها في حق المواطنين العرب في مقالات نشرها بعد زيارته لفلسطين عام ١٨٩١م، ومن ذلك قوله في مقال بعنوان «حقيقة من فلسطين»: «نحن في الخارج نظن أن العرب متوحشون وعلى مستوى الحيوانات، ولا يعرفون ما يدور حولهم. ولكن ذلك خاطئ تماماً. إن العرب، وخصوصاً أهل المدن، يرون نشاطاتنا في بلدهم وأهدافنا، ولكنهم يصمتون ولا يتحركون؛ لأنهم لا يرون الآن خطراً على مستقبلهم في ما نحن بصدده. ولكن إذا حان الوقت وطور شعبنا حياته في فلسطين لدرجة تجعل السكان الأصليين يشعرون بضيق، فإنهم عندئذ لن يفسحوا الطريق أمام شعبنا بسهولة».



من مظاهر العنف اليهودي اليومي ضد سكان فلسطين

ويضيف آحاد هاعام قائلاً عن المستوطنين اليهود: «لقد كانوا عبيداً في بلدان «الشتات» وفجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية بلا حدود، بل وسط حرية لا رادع، وهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة، فيمتهنون حقوقهم بصورة معوجة ولا معقولة، ثم يوجهون لهم الإهانات دون مسوغ كاف. ويفاخرون بتلك الأعمال مع كل ذلك. وليس هناك بيننا من يقف في وجه هذا الاتجاه الخسيس والخطير في آن واحد»(٤).

وكثيراً ما يخلط الفكر الصهيوني بين المسلم والعربي ويعدهما شيئاً واحداً. ففي رواية «العاشق» يربط يهوشواع بين قذارة الشاب العربي نعيم والإسلام، فيقول على لسان العجوز اليهودية فيدوتشا: إن الفتى العربي يعود في نهاية الليل قذراً، حذاؤه مليء بالوحل، ويذهب إلى السرير بقذارته مباشرة، فتثور عليه فيدوتشا قائلة: «حرام عليك يا ولد، لسنا في مكة، اغتسل أولاً.

لقد أهين فشحب من شدة الغضب، لقد مسست قدس أقداسه بوصفه مسلماً.

- ما شأن مكة؟ إن مكة أنظف من إسرائيل كلها.

- هل كنت هناك؟

- لا، ولكنك أيضاً لم تذهبي إلى هناك».

ولا شك أن الكاتب يتجنى على الإسلام والمسلمين فنظافة المسلم وتطهره لا تخفى على أحد، فالدين الإسلامي في القرآن الكريم يدعو المسلمين في مواضع كثيرة إلى النظافة والتطهر مثال ذلك قوله تعالى: *فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين* **التوبة:١٠٨**. وقوله تعالى: *إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين*. **البقرة:٢٢٢**.

كما يأمر الله المسلمين بالوضوء خمس مرات للصلاة فيقول تعالى: *فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق*. **المائدة:٦**. ومن ثم فإنه ليس هناك أي مسوغ لهذا الربط بين قذارة الفتى العربي والإسلام.

وفي محاولة لإثبات حق حضاري واقتصادي لأراضي فلسطين دأب الصهيونيون على تشويه متعمد للمنجزات الاقتصادية التي حققها العرب قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها. فقد زعم الصهاينة أنهم سينهضون في فلسطين بعبء «رسالة حضارية» تتمثل في تمدين فلسطين وتحضيرها، وعبر كثير من الكتاب اليهود في إنتاجهم الأدبي عن ذلك، وذكروا أن اليهود إذا جاؤوا واستوطنوا البلاد فسيجلبون معهم الحضارة والتقدم والازدهار، وسيحدثون ثورة حضارية وصناعية وزراعية واجتماعية وثقافية، مما سيعود بالانتعاش على البلاد وسكانها. ويعبر يهودا بورلا (١٨٦٦ - ١٩٦٩م) عن ذلك في روايته «سيد قومه»، إذ يورد نقاشاً بين عربي ويهودي، يردّ في أثنائه اليهودي على العربي بقوله: «. إذا ما جاء الكثير من اليهود إلى البلاد فسوف يعمرون الأرض، ويخصبونها، وستتقوى الزراعة والصناعة والتجارة، وسيكون كل شيء لصالح الشعبين اللذين يسكنان فيها..».

والكاتب يجسد هنا الفكرة المسيطرة على كثيرين من كتاب اليهود التي تتلخص في أن العرب أينما

وجدوا توجد الصحراء واللون الأصفر، وأينما وجد اليهود ينتشر اللون الأخضر والحياة اليانعة والنشاط، أي: إن الإنسان العربي يهمل أرضه ويبقيها خراباً وبوراً، على عكس اليهودي الذي يحيل الأرض الجدباء إلى أرض مثمرة. ويزعم ذلك أيضاً شموئيل يوسف عجنون (١٨٨٨ ـ ١٩٧٠م) فيقول في روايته «أمس الأول»: «ولما كانت فلسطين خربة وقفرة ومن الصعب السكن في مكان خرب، فإنه من الواجب إصلاح المكان ليصلح للسكن».

كما يُسقط يهودا عميحاي (١٩٢٤ ـ) في قصيدة «هجرة والدي» كل حسابات الواقع في فلسطين، ولا يراها إلا من خلال الشعار الصهيوني «أرض بلا شعب» أرضاً خلاء قاحلة، صحراء شاسعة، فيقول:

«أقف دون تمويه أمام أعين العدو
وخرائط عتيقة في يدي
وسط مقاومة متزايدة بين أبراج
وحيداً دون شفاعة
في الصحراء الشاسعة».

ويوحي ذلك أيضاً شاؤول تشرنيحوفسكي في قصيدة «يا بلادي! يا وطني»، ويرى أن فلسطين أرض جرداء خالية من السكان فيقول:

«أديرة، ركام، شواهد قبور،
قباب من الطين فوق المنازل
مستوطنة غير آهلة بالسكان
شجرة زيتون بجوار أخرى
بلاد! بلاد الميراث!
نخيل غزير السعف
سياج من خط الصبار القاسي
واد متعطش للماء».

ويحذر الشاعر نفسه في قصيدة «النصيحة» المستوطن اليهودي «المتحضر» من العربي «الهمجي» ويخشى أن يأتي ويهدم ما قام به من إعمار، فيقول:

«اجعل حراسة في النهار والليل ضد العربي الهمجي
خشية أن يأتي فينزع (شجرتك). الشجرة غالية عندك كابنك».

زعم باطل

إن هذا الزعم القائل: إن فلسطين كانت خراباً محرومة من الزراعة والصناعة هو من نسج الخيال، ولا يضاهيه سخافة سوى الادعاء بأنها كانت خالية من السكان.

إن فلسطين التي زعم الصهاينة أنها كانت صحراء قبل قدومهم، إنما كانت تصدر الحبوب والحمضيات بكميات وافرة. فمن الملاحظ أن التركيز على إنتاج ثمار الحمضيات كان يعود إلى فترة سابقة على إنشاء المستعمرات اليهودية في فلسطين، وأنه لفترة متأخرة ترجع إلى عام ١٩١٤م كان العرب يقدمون أكثر من ٧٠٪ من مجمل كمية البرتقال الذي جرى تصديره إلى أقطار نائية مثل: إنجلترا وفرنسا والنمسا. وقد ازدادت مساحات بساتين الفاكهة ثلاث مرات بين سنوات ١٩٢١ ـ ١٩٤٢م، كما تضاعفت مساحات البرتقال والحمضيات ٧ مرات خلال أعوام ١٩٢٢ ـ ١٩٤٧م، وزاد إنتاج الخضار ١٠ مرات منذ عام ١٩٢٢م حتى عام ١٩٤٨م(٥)، غير أن هذه الزيادة المؤثرة في إنتاج البرتقال والحمضيات يجب ألا تطمس الحقيقة التي تعني أن محصولات زراعية أخرى كان يجرى تصديرها في آن واحد.

وإلى جانب بيع أوروبا لكميات ليست كبيرة الحجم من القمح والذرة وزيت الزيتون، فإن فلسطين صدرت بشكل تصاعدي كميات أكبر، وذات أهمية

في محاولة لإثبات حق حضاري واقتصادي لأراضي فلسطين دأب الصهيونيون على تشويه متعمد للمنجزات الاقتصادية التي حققها العرب

تجارية، من الشعير المعد للاستخدام في معامل التخمير والتقطير الإنجليزية والإسكندرية، بالإضافة إلى السمسم الموجه بصورة رئيسة إلى الأسواق الفرنسية(٦).

ويؤكد ذلك ما ذكر في كتابات بعض المفكرين الصهاينة، فيقول آحاد هاعام: «لقد اعتدنا في الخارج القول: إن أرض فلسطين شبه صحراوية، وليس فيها زرع ولا حيوان، فمن شاء امتلاك أرض يستطيع أن يحضر إلى هنا فيأخذ منها ما يريد. إلا أن الواقع يختلف عن ذلك تماماً، إذ يصعب أن نجد على طول البلاد وعرضها أرضاً غير مزروعة، والمناطق الوحيدة التي لم تستصلح هي مساحات من رمال وجبال صخرية تحتاج إلى جهود شاقة لكي تصبح مناسبة لزراعة أشجار الفاكهة...(٧)»

ولعل في هذا رداً على من يزعم أن وجود اليهود كان سبباً من أسباب تقدم البلاد وتطور العرب، ولا شك أن هذه الفكرة تتطابق مع الفكر العنصري الرأسمالي الأوربي في القرن التاسع عشر الذي صاغ هذه الفكرة لكي تكون تسويغاً لاستعمار الشعوب واستغلالها من قبل الرأسمالية الأوربية تحت شعار «إعدادها وتمدينها» لتصبح في مستوى يسمح لها بأن تحكم نفسها. وقد ولدت الصهيونية داخل هذا الإطار، وكان لابد أن تتأثر به وتستفيد منه، فالرجل الأبيض المتفوق له حقوق متميزة، والصهيونية التي تبنت الحل الاستعماري كان لابد أن تتبنى النظرة العنصرية أيضاً، لأنهما وجهان لعملة واحدة.. وبالفعل نجد أن الصهيونية حاولت أن تنظر إلى اليهود على أنهم أساساً جزء من «الجنس الأبيض المتفوق». وكان الزعيم الصهيوني تيودور هرتزل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤م) من أولئك الذين يؤمنون بهذا التصور، وانطلاقاً من هذا تحدث بروح المفكرين الاستعماريين في القرن التاسع عشر، عن الإمبريالية على أنها نشاط نبيل، الهدف منه جلب الحضارة إلى الأجناس الأخرى، التي تعيش في ظلام البدائية والجهل. ولقد أكد هرتزل الذي يعمل في إطار مضمون أسطورة «اليهودي الأبيض» بقوله: «وسنكون هناك جزءاً من الحاجز الذي يحمي أوربا في آسيا. سنكون معقل الحضارة ضد التخلف والهمجية.

ويتوجب علينا كدولة محايدة، أن نبقى على اتصال مع أوربا التي سيكون عليها ضمان وجودنا».

ويزيد الزعيم الصهيوني ماكس نوردو (١٨٤٩ ـ ١٩٢٣م) الفكرة وضوحاً ليقرر: «سوف نبذل وسعنا لكي نعمل في الشرق الأدنى ما عمله الإنجليز في الهند، نحن ننوي الذهاب إلى فلسطين بمنزلة الحملة معتمدين المدنية والتحضير، ورسالتنا هي توسيع الحدود الأخلاقية لأوربا حتى نصل إلى الفرات»(٨).

من هنا يمكننا القول: إن هذا الزعم الصهيوني انطلق من مسلمات الفكر العنصري الأوربي لتسويغ استعمارها لفلسطين بما يتضمنه ذلك من النظر إلى اليهود على أنهم جنس أسمى وأرقى من العرب، الذين أخفقوا في استثمار بلادهم، وجاء اليهود بكل ما يملكون من مواهب فريدة لكي يقودوهم في مدارج الرقي والتقدم.

المراجع:

1- JAMES PARKES, A HISTORY OF JEWISH PEOPLE, LONDON 1962, P. 189.

٢ـ صبري جرجس، النزعات العنصرية في العقيدة والممارسات الصهيونية، مجلة شؤون فلسطينية، العدد (٥٢)، ص٢٣.

٣ـ خالد القشطيني، الجذور التاريخية للعنصرية الصهيونية، ص٩٨.

٤ـ رشاد الشامي، الشخصية اليهودية الإسرائيلية، عالم المعرفة، ص١٧٩.

٥ ـ روجيه جارودي، ملف إسرائيل، ص٣٥.

٦ـ سمير صيقلي، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين، مقال في منشورات «القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني»، جامعة الموصل، ص٣٠٧.

٧ـ روجيه جارودي، ملف إسرائيل، ص٣٥.

٨ـ السيد يسين، الصهيونية أيديولوجية عنصرية، مقال في منشورات «الصهيونية والعنصرية»، بيروت ١٩٧٧م، ص٨٩.

من عالم الحيوان

السلاحف
حياة عمرها مئتا مليون عام

منير مصطفى البشعان

زخرت كتب الأدب والتراث العربي بمعلومات وافية وكافية - إلى حد ما - عن معظم الكائنات الحية، ومن بينها السلاحف. فقد ورد في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدّميري أن السلاحف نوعان: بريّ وبحريّ، وينضوي تحت هذين النوعين من السّلاحف - كما تُبيّن موسوعات علم الحيوان الحديثة - أنواع كثيرة سنأتي على ذكر بعضها لاحقًا.



الدرع القوي يحمي السلاحف من المخاطر

فالسُلَحْفاة البرية بفتح اللام واحدة السلاحف قاله أبو عبيدة، وحكى الرؤاسي: سُلَحْفِيَة مثل بُلَهْنِيَة وهي بالهاء عند الكافة، وعند ابن عبدوس السُلَحْفا بغير هاء، وذكرها يقال له غَيْلَم، وهذا الحيوان يبيض في البر فما نزل منه في البحر كان لَجأةً وما استمر في البرّ كان سُلَحْفاة، ويعظم الصنفان جداً إلى أن يصير كل واحد منهما حمل جمل، وإذا أراد الذكر السفاد، والأنثى لا تطيعه، يأتي الذكر بحشيشة في فيه، من معانيها أنَّ صاحبها يكون مقبولاً فعند ذلك



أنواع السلاحف كثيرة.. اكتشفت منها ٢٤٠ نوعًا إلى اليوم

تطاوعه، وهذه الحشيشة لا يعرفها إلاّ القليل من الناس. وهي إذا باضت صرفت همتها إلى بيضها بالنظر إليه، ولا تزال كذلك حتى يخلق الله تعالى الولد منها، إذ ليس لها أن تحضنه حتى يكمل بحرارتها؛ لأن أسفلها صلب لا حرارة فيه، وربما تقبض السلحفاة على ذنب الحية فتقطع رأسها وتمضغ من ذنبها والحية تضرب بنفسها على ظهر السلحفاة وعلى الأرض حتى تموت. ولذكرها ذَكَران، وللأنثى فَرْجان، والذكر يطيل المكث في السفاد. والسلحفاة مولعة بأكل الحيات، فإذا أكلتها أكلت بعدها سعتراً، والترس الذي على ظهرها وقاية لها، وقد أجاد الشاعر حيث قال في وصفها:

لحا الله ذات الفم الأخرس
تطيل من السعي وسواسها
تكب على ظهرها ترسها
وتظهر من جلدها راسها
إذا الخدر أقلق أحشاءها
وضيق بالخوف أنفاسها
تضم إلى نحرها كفها
وتدخل في جلدها راسها

في البر والبحر

والسلحفاة البحرية أو اللَّجأة، كما ذكر الدميّري والجاحظ في كتابيهما «حياة الحيوان الكبرى» و«الحيوان» على

التوالي، نوع من السلاحف يعيش في البر والبحر، ولها حيلة عجيبة وتوصل في صيد ما تصيده من طائر وغيره، وذلك أنها تغوص في الماء ثم تتمرغ في التراب، ثم تكمن للطير في مواضع شربها، فيختفي عليه لونها، فتمسكه، وتغوص به في الماء حتى يموت. ويُقال: إن اللجأة تضع بيضها في البر، وإنها تحضنه بالنظر إليه. وقال أرسطوطاليس في النعوت ما خرج من بيض اللجأة مستقبل البحر، صار إلى البحر وما خرج منه مستقبل البر صار إلى البر، وكلهن يردن الماء، لأنهن من خلق الماء، قال: وهي تأكل الثعابين. واللجأة البحرية لها لسان في صدرها من أصابته به من الحيوان قتلته.

ومن ناحية ثانية فقد ورد ذكر السلحفاة في عدد من الأمثال، ومما قالته العرب من أمثال في السلحفاة: «أبلدُ من سلحفاة»، للإشارة إلى بطئها، وقلة حركتها، وعدم نشاطها.

وقد ذكر أرسطوطاليس في كتابه «طباع الحيوان» كثيراً من المعلومات عن السلاحف، ومما ذكره عنها - إضافة إلى ما سلف ذكره - أنها من الحيوان البحري الذي يُغذى من النبات الذي ينبت في البحر، وأنَّ أصناف السلحفاة تسمى باليونانية قونْخُليْا لأن لها فماً قوياً جداً أكثر من أفواه جميع الحيوان. وعلى كل حال فهناك تفصيلات كثيرة عن السلاحف وحياتها وطباعها وطريقة معيشتها ذكرت في عرض رائع وسرد بديع وتفصيل واضح في كتب الأقدمين كالتي ذكرت عناوينها ككتاب «الحيوان» للجاحظ و«حياة الحيوان الكبرى» للدميري و«طباع الحيوان» لأرسطوطاليس وغيرها من الكتب القيِّمة المفيدة.

عمرها مئتا مليون عام

وتذكر موسوعات علم الحيوان الحديثة أن السلاحف البرية والبحرية من الحيوانات الزَّحافة، وتقع أجسامها داخل ترس، أو درع، أو قشرة عظمية مغطاة من الخارج بطبقة قرنية. ويمكن لهذه السلاحف أن تخرج رؤوسها وقوائمها من القشرة لتأكل أو لتزحف، كما يمكنها أن تُعيدها إلى القشرة إذا شعرت بخطر. وهي كلها تعيش في البلدان الدافئة، على أنه يمكن اقتناء السلاحف في الحدائق في البلدان المعتدلة البرودة كحيوانات أليفة، إذا أمكن حمايتها في الشتاء. ومن السلاحف نوع يعيش في البر ونوع آخر يعيش في الماء - كما أسلفنا -، والسلاحف المائية نوعان، أحدهما يعيش في المياه المالحة، وثانيهما يعيش في المياه العذبة، وهو يدعى الرَّق، أو الحَمَسة في أحيان كثيرة، أو السلاحف البحرية في أمريكا الشمالية.

وتنتمي السلحفاة إلى الزواحف، وقد عاشت على الكرة الأرضية منذ نحو مئتي مليون عام حسبما بينته تسجيلات متحجرات السلاحف الموجودة حالياً. ومع تقلبات طبيعة العالم وتغيرها تناقصت أنواع الزواحف المتبقية على



السلحفاة تتمرغ في التراب وتكمن للطير في موضع شربها

الأرض، غير أنَّ أنواع السلاحف مازالت كثيرة، اكتشف منها ٢٤٠ نوعًا إلى اليوم. ولها صدفة «ترس أو درع» قوية تحميها عند الخطر، وتتغير درجة حرارة جسمها مع حرارة الجو، وتبيت بياتًا شتويًا وبياتًا صيفيًا، وهي بطيئة في استقلاب جسمها، وقليلة الاستهلاك للطاقة، وعظيمة الصبر على الجوع والعطش، ونقص الأكسجين، لذا تستطيع أن تبقى حية فترة طويلة.

وبشكل عام يمكن القول: إن السلاحف (سلاحف المياه العذبة - الرَّق أو الحَمَسة Terrapins وسلاحف اليابسة أو السلاحف البرية Tortoises) هي الحيوانات الوحيدة بين الحيوانات الفَقَارية التي تمتلك ترسًا أو درعًا «ذبل» يحيط جسمها على نحو كامل تقريبًا. ويمتلك عدد من الزواحف والثدييات المنقرضة أغطية واقية مشابهة لتلك التي في السلاحف، ولكن لم يكن غطاء واحد من هذه الأغطية التي تغلف هذه الحيوانات قادرًا على التغلب على مشكلات الحياة الأخرى، ومصاعبها، والنجاح في مهمته الوظيفية



في الدفاع عن تلك الكائنات مثلما يقوم ترس السلحفاة بوظيفته، على الرغم من أنَّ هذا الترس ثقيل الوزن، ومزعج للسلحفاة ذاتها.

أنواع وتسميات مختلفة

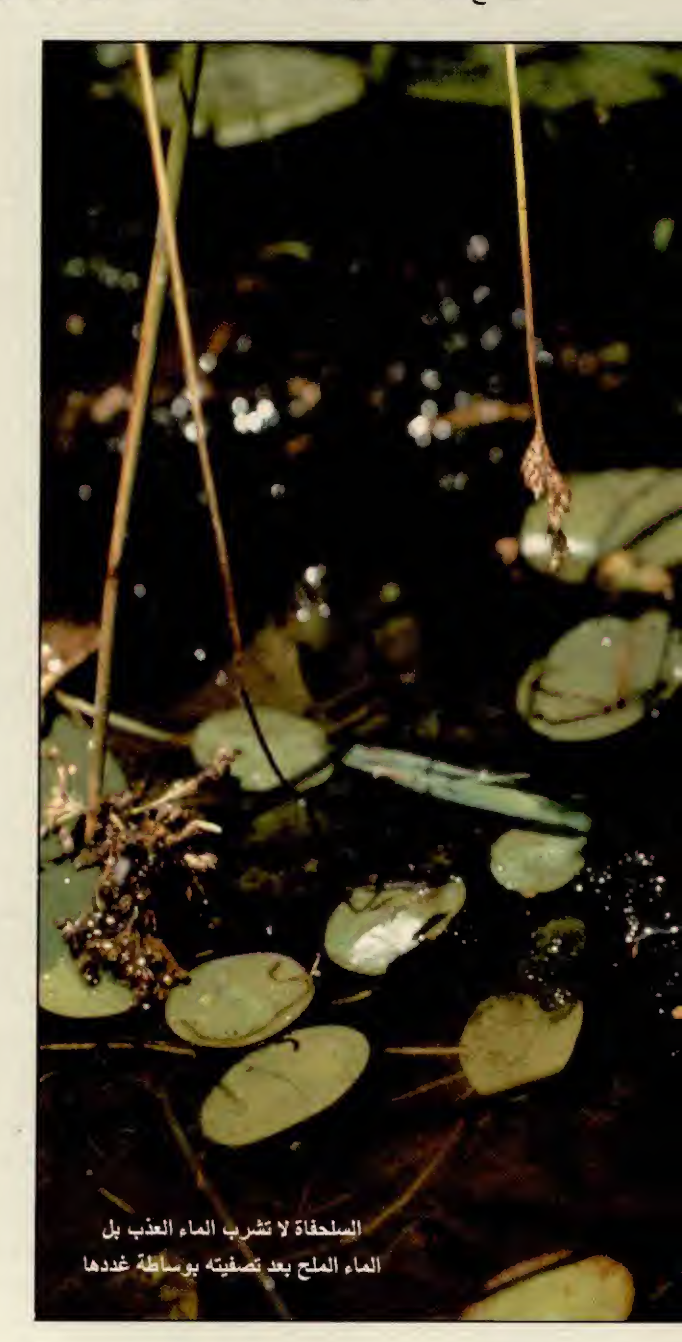
وتشير معظم الموسوعات العلمية في علم الحيوان إلى أنه تُعرف أنواع مختلفة من السلاحف، مثل سلاحف المياه العذبة، وسلاحف اليابسة، أو السلاحف البرية كما ذكرنا، لكن مع كل هذا، فإن أسماء هذه السلاحف تتغير، بل يطلق عليها تسميات مختلفة في مناطق وأقاليم مختلفة في أنحاء العالم. وعموماً، فإن جميع أعضاء هذه الحيوانات هي من رُتْبة Order تسمى برتبة السلاحف Turtles، كما أن أشكال السلاحف الصالحة للأكل في الدرجة الأولى هي تلك الأشكال من السلاحف التي تعيش في المياه العذبة والمالحة قليلاً، وهذه الأشكال تدعى تحديداً سلاحف المياه العذبة، أما تلك السلاحف التي تعيش على اليابسة، والتي لها أوصال أو أطراف أسطوانية بشكل الهراوة والتي لا تمتلك وتَرة وهي الجُلَيْدة التي بين كل أصبعين Web فتدعى بسلاحف اليابسة أو السلاحف البرية.

وتضع جميع السلاحف (سلاحف اليابسة وسلاحف المياه العذبة) بيوضاً. وحتى السلاحف البحرية Sea Turtles وهي السلاحف التي تألف الماء، أو تنمو أو تعيش فيه أكثر من جميع السلاحف تقوم بالزحف على الأرض والتقدم ببطء نحو مكان من اليابسة لكي تضع بيوضها.

والسلاحف الحديثة Modern Chelonians هي سلاحف عديمة الأسنان مثل السلاحف البالغات. ويُغطَّى كلا الفكين فيها بغلاف أو غمد قَرْني صلب يشابه إلى حدٍ بعيد تلك الفكوك التي للطيور العديمة الأسنان على حد سواء، ويكون الفك العلوي غير قابل للتحريك. وتقع العظام التي ترتبط بها أوصال السلحفاة (الزُنارات الطرفية The Limb Girdles) ضمن سلّة ضلعية على عكس ما في جميع الفَقَاريات الأخرى التي تكون عظامها موجودة في الخارج. وللسلاحف ثمانية عظام رقبية يمكن أن تتحرك على نحو مستقل. وتندمج ١٣ فقرة من فقرات الظهر في الدرع العلوي «أعلى الترس». أما ذنب السلحفاة فيكون ـ عادة ـ قصيراً جداً. وأخيراً، فإن جميع السلاحف لها دروع وكل درع منها يتألف من جزء علوي أو غطاء خارجي صلب واق يسمى أحياناً بـ الذَّبل Carapace، وجزء سفلي يسمى بـ الصُدْرة Plastron. وتتحد هذه الأجزاء على كل جانب من الجسم بوساطة جسر يكون إما ضيقاً وإما عريضاً، وتندمج الأضلاع في السطح الداخلي للصُدْرة.

سر طول العمر

وفي معظم السلاحف تكون البنية العظمية أو الذبل مغطاة بـ سلسلة من الصفيحات القرنية. وفي أنواع قليلة من السلاحف مثل: السلاحف اللينة الدروع Soft Shells والسلاحف الجلدية الظهر البحرية Marine Leather back يكون الدرع العظمي مغطىً تماماً بجلد متين ومَرن. وكما ذكرنا فإنه يوجد أكثر من ٢٤٠ نوعاً مهماً من السلاحف


السلحفاة لا تشرب الماء العذب بل الماء الملح بعد تصفيته بوساطة غددها

«رتبة تستيودين Order Testudines» وقد قسمت هذه الأنواع إلى رُتَيبتَين اثنتين Two Sub-orders هما: رتيبة السلاحف المستقيمة العنق «رتيبة السلاحف ذات العنق العمودي أو القائم» Straight-necked Turtles ورتيبة السلاحف الجانبية العنق Side-necked Turtles. وتسترجع أو تسحب السلاحف المستقيمة العنق رأسها بعمل انحناء أو التواء عمودي بشكل حرف « S» في العنق. أما السلاحف الجانبية العنق فتعمل انحناءة أفقية وانحناءة بشكل حرف «S» في العنق، لكي يمتد العنق إلى الجانب عندما تسحبه أو تسترجعه السلحفاة. والعمر الذي تعيشه السلاحف ـ في واقع الأمر ـ مدهش ومذهل جداً، ولئن كانت التسجيلات أو البيانات حول هذا الموضوع هي إلى الآن غير دقيقة وصحيحة على وجه الضبط، إن هناك سجلات وبيانات أوضحت أن السلحفاة الصندوقية Box Turtle تعيش ما يقارب ١٢٣و ١٣٨ عاماً وهي بيانات مقبولة ومعترف بصحتها من العلماء. وأكدت بيانات أخرى أنَّ السلحفاة العملاقة الجبارة «وهي سلحفاة يابسة» Giant Tortoise وصلت إلى عمر نحو ٢٠٠ عام على أكثر ترجيح.

وقد أوضحت الأبحاث أن السر في حياة السلاحف الطويلة من المحتمل أن يكون فقط بسبب بطء عملياتها الحياتية، وطبيعة استقلاب أجسامها الذي يختلف إلى حد ما عن استقلاب بقية الكائنات الحية الأخرى.

أملاح وليست دموعًا

وتعيش السلاحف البحرية ـ على وجه الحصر ـ في البحر أو على مقربة منه، وتكون أرجلها الضخمة بشكل (غادوفات) كالمِجْذاف Oar-like Paddles ومن دون أصابع واضحة أو مرئية خارجيًا، وتساعدها أوصالها الخلفية الشبيهة بالدفة قليلاً في دفعها في الماء. وهذه السلاحف لا تشرب ماءً عذبًا، ولكنها تشرب ماء البحر بعد تصفيته من الملح بوساطة غدد خاصة موجودة فوق كل عين من عيونها. وتمتلك الثعابين البحرية Sea Snakes، والطيور البحرية أيضًا غددًا مشابهة لتلك التي في السلاحف البحرية. أما الدمع الهائل الذي تفرزه السلاحف البحرية هذه التي تتحرك هنا وهناك في مواطن عدة على الشاطئ على نحوٍ مجهد، فهو في الحقيقة ليس دمعًا ولكنه محلول ملحي قوي مركز يفرز عن طريق هذه الغدد الخاصة.

ولا تمتلك السلاحف الجلدية الظهر البحرية «ديرموشيليس كورياسي» Leatherback Turtles (Dermochelys Coriacea) صفيحات قرنية على دروعها، ولكنها تغطى عوضًا عنها بجلد ناعم لين تقريبًا. وتمتد سبعة أحرف أو زوايا ثقيلة على الطول الكامل للدرع وخمسة أحرف أخرى منخفضة على طول الصُدْرة. وهذا النوع من السلاحف ليس له مخالب أو براثن في أيديه الأمامية القوية الطويلة، بينما تمتلك جميع السلاحف البحرية الأخرى مخلبًا واحدًا أو مخلبين اثنين على أياديها القصيرة. ويُقال: إن السلحفاة الجلدية الظهر أكبر جميع السلاحف البحرية، وهي تصل لطول ١٠ أقدام* وإلى وزن ٢٥٠٠باوند*. وهناك بيانات وتسجيلات موثوقة تذكر أن طول السلحفاة الجلدية الظهر هو ٧ أقدام وأن وزنها يصل إلى ١٢٠٠ باوند. وتوجد



السلحفاة مولعة بأكل الحيات



السلاحف الجلدية الظهر في جميع المحيطات الدافئة الحارة وكذلك في البحار الدافئة، وأحياناً تظلّ في المياه الباردة، وعندما تقع في شرك ما، فإنها تهجم على المراكب والزوارق والسفن الصغيرة التي تبدو لها أنها مصدر الخطر، ويمكن لفكوكها القوية الضخمة إلى حد كافٍ أن تعض القطع الغليظة القصيرة من المجاذيف.

حالة نفسية خاصة

ومن جانب آخر، فإن إناث السلاحف الجلدية الظهر البحرية تأتي إلى اليابسة من أجل وضع بيضها، ولهذا الغرض تحفر أعشاشها على الشواطئ الرملية، وتضع ما يزيد على ١٧٥ بيضة في كل فصل - من شهر مايو/أيار إلى شهر أغسطس/آب - وعادة تحفر هذه الإناث أعشاشها تحت غطاء قاتم داكن وذلك بعد بزوغ الفجر. أما أعشاش البيض، فتكون على مقربة من الماء بـ ٥٠ إلى ٢٠٠ قدم، وعلى مقربة من سطح الأرض بثلاثة أقدام، لكن هذا النوع من السلاحف يضع بيضه على عمق أكثر من سطح الأرض من العمق الذي تعمله أية سلحفاة بحرية أخرى تقوم بوضع بيوضها لأجل الفقس. وعندما تبدأ الأنثى وضع البيض في العش، وحالما تبني عشها أو تأوي إليه فإنها تكون في حالة نفسية خاصة؛ إذ تتجاهل أي نشاط أو فعل قريب منها، بل هي تغفل عن أي عمل حولها، وتبدو غير مدركة لما يجري حولها، لكنها يمكن أن تحرس بيضها وتراقب



السلحفاة المرقطة من الحيوانات المحمية في الصين

عشها من مسافة بضع أقدام. ويكون قطر البيوض الكروية الموضوعة تقريباً نحو بوصتين ونصف البوصة*. وبعد أن تضع الأنثى بيضها تملأ العش بالتربة الرملية «الرمل» بحيث يكون مكان وضع البيض مخفياً أو محجوباً عن جميع الكائنات؛ لأن السلحفاة تتقدم متعثرة في سيرها هنا وهناك في مكان وضع البيض القريب من البحر. ومما يجدر ذكره أن بيوض السلحفاة الجلدية الظهرية البحرية تُعدّ من الأغذية المهمة جداً، كما أنّ لحم السلاحف يقدم غذاء جيداً مفيداً أيضاً. أما درع السلحفاة «الذبل» فيحتوي على كميات كبيرة من الزيت.

ومن المفيد أن نذكر أن السلاحف البحرية لم تتكيف على نحو ملائم وصحيح على الزحف والتقدم ببطء على الشاطئ، وتتطلب جميع حركاتها على اليابسة جهداً ضخماً هائلاً وتوقفات متكررة من أجل الراحة، وإذا لم تصل إلى الماء، وتصبح فيه، فإنها سوف تموت في ظرف بضع ساعات ما لم تنقلب على ظهورها. وعندما تستلقي وتضطجع على بطونها فإن ضغط وزنها على القلب والرئتين يكون كبيراً أكثر مما ينبغي، ولهذا، فإن وضع السلاحف على ظهورها يخلصها من هذا الأمر ويُريحها مؤقتاً، ولكنها لا تكون قادرة على قلب أنفسها فوق بطونها مرة ثانية من جديد.

نشاط وراحة

ولقد كانت السلاحف الخضراء «شيلونيا ميداس» Green Turtles (Chelonia Mydas) طعاماً وغذاء ممتازاً شهيراً طوال قرون. وتعيش هذه السلاحف في جميع البحار والمحيطات الدافئة والحارة في العالم، وعادة في المياه الضحلة القليلة العمق فوق الإفريز القارّي Continental Shelf، وتُدعى أحياناً بـ اللَجَأة الخضْراء كما جاء في معجم مصطلحات العلوم الزراعية للشهابي. وفي وقت التعشيش أو وضع البيض - من ناحية ثانية - فإنها قد تعبر أعماق المحيطات أو البحار الواسعة العظيمة لكي تصل إلى الشواطئ الرملية التي تفضلها دائماً من أجل وضع البيض وبناء أعشاشها. إن السلاحف الخضراء هي كائنات نشيطة لقسم واحد فقط من كل يوم. وفي أوقات أخرى تستريح هذه السلاحف، أو تنام على سطح الماء أو تسبح في قيعان المياه الضحلة، وتستريح في المنخفضات الواقعة تحت الماء Underwater Depressions التي تفضلها. إنها تأتي إلى سطح الماء كل ساعة أو نحو ذلك لكي تتنفس وبعدئذ ترجع إلى الموقع ذاته لتستريح فيه. وقلّما يتجاوز طول السلاحف الخضراء على ٤ أقدام ووزنها لا يتجاوز ٥٠٠ باوند. ويكون وقت تعشيشها أو وضع بيوضها وبناء أعشاشها والإيواء إليها - في الأغلب - في أواخر الربيع، وفي وقت مبكر من فصل الصيف. وفي الوقت الحاضر يقتصر تعشيش السلاحف الخضراء في المحيط الأطلسي بشكل رئيس على ساحل وسط أمريكا أو إحدى جزره. وفي العصور الغابرة عششت السلاحف الخضراء فوق سواحل فلوريدا وبرمودا «السواحل البيرمودية» وسواحل الهند الغربية ومكسيكو. وتأكل السلاحف الخضراء - في الدرجة الأولى - الأعشاب والنباتات العشبية والطحالب «الأشنيات» Algae، ويمكن أن تؤكل بعض السلاحف الصغيرة، إذ اعتُقد أن صغار السلاحف هي حيوانات لاحمة إلى حد بعيد. والسلاحف الخضراء حيوانات لطيفة، ونادراً ما تحاول أن تعض أو تؤذي.

وهناك نوع من السلاحف يعرف بـ اللَجَأة المُفَلَّسة Hawksbill أو سلاحف البحر «إيريتموشيليس إيمبريكاتا» Hawksbill Turtles (Eretmochelys imbricata)، وهي سلاحف صغيرة نادراً ما تزن أكثر من ١٠٠ باوند، ويقال: إنها تزن ٢٨٠ باونداً كما ذكرت بعض البيانات.

وسلاحف البحر تعد ذات شهرة واسعة - في المقام الأول - كأصل للسلاحف البرية أو سلاحف اليابسة Tortoises أما دروعها فهي ثخينة على نحو غير عادي ونصف شفافة، وتغطي دروعها صفيحات قرنية، ويمكن أن تزال هذه الصفيحات بوساطة الحرارة «عملية إزالة الصفيحات تقتل السلحفاة عادةً»، ويمكن صنع أشكال متعددة ومتباينة من دروع هذه السلاحف كما ذكر في بعض المصادر العلمية. ولقد حلّت اللدائن محل دروع السلاحف البرية على نحو كبير في أمريكا الشمالية وأوربا، ولكنها في مكان آخر من العالم لا تزال ذات مكانة كبيرة في الصناعة.

لحم لذيذ ومسموم

إن لحم سلاحف البحر Hawksbill سائغ ولذيذ المذاق، وبيوضها مطلوبة كثيراً غذاءً في معظم دول العالم. وفي مناطق معينة من العالم تُطعم السلاحف هذه الأشنيات أو الطحالب السامة الخطيرة، ومع ذلك، فإن السلاحف ذاتها لا تصاب بأي أذى من السم، وهذا في الواقع نعمة إلهية كبيرة لهذه الكائنات الحية، وربما تنقل سلاحف البحر السم في لحومها، ويتناول بعض الناس هذه اللحوم من غير أن يكونوا محصنين تجاه سم هذه الطحالب، وقد سجلت عدة



لحظة استراحة في البر



السلاحف البحرية تعيش في البحر أو على مقربة منه

وفيات بسبب تناول مثل هذه اللحوم. ومن جانب ثانٍ، فهناك سلاحف أخرى تأكل الطحالب أو الأشنيات السامة، وقد تخزن السم ضمن لحومها.

وتأكل السلاحف البحرية النباتات والحيوانات على حد سواء، ولكنها تفضل الحيوانات. إنها تعيش على الأغلب في المياه الضحلة القليلة العمق، ولها ميل غريزي للبقاء في منطقة واحدة سنين، إلاّ أنها تترك هذه المنطقة التي أقامت فيها مدة من الزمن لبناء عشها والبحث عن طعامها وإيجاده. وتنمو السلاحف البحرية على نحو سريع، ويزداد طول درعها من بوصة ونصف البوصة في وقت الفقس إلى ١٤ بوصة أو أكثر في ظرف سنتين.

وهناك سلاحف بحرية أخرى، وهي سلاحف لوغرهيد «كاريتا» Loggerhead (Caretta)، وسلاحف المحيط الأطلسي والمحيط الهادي «ليبيدو شيليس» Atlantic and Pacific Rid-leys (Lepidochelys)، وهي سلاحف بحرية أخرى فقط، وتعد سلاحف ريدلي (Ridleys) أصغر من جميع السلاحف ويمتلك كلا الجنسين على حد سواء أكثر من ٤ أزواج من التُروس على طول جوانب الذبل «الترس» وهكذا يمكن تمييزها من السلاحف الخضراء والسلاحف البحرية «اللجأة المفلسة» Hawksbill Turtles. وتصل سلاحف لوغرهيد إلى حجم كبير ضخم تزن ما يزيد على ١٠٠٠باوند، ولكن مثل هذه النماذج الكبيرة الضخمة قلما يتم القبض عليها وأسرها. ومن ناحية ثانية، فإن سلحفاة لوغرهيد هي سلاحف متجولة تطوف دائمًا، وعلى الرغم من أنها تفضل الخلجان الساحلية؛ فإنها كثيراً ما تشاهد في البحار المتلاطمة الأمواج، وتجيء إلى الشواطئ البريطانية أيضًا. أما سلاحف ريدلي فمجال عيشها يكون أكثر تحديداً، وهي أقل ميلاً ونزوعًا إلى العوم والطفو على سطح الماء بالموازنة مع السلاحف البحرية الأخرى. وتتغذى سلاحف لوغرهيد وريدلي بالسرطانات والحيوانات اللافقارية وبالأعشاب والنباتات العشبية البحرية أيضًا. وتعد بيوض هذه الكائنات ولحومها ذات أهمية كبيرة، فبيوضها ذات ثمن مرتفع، ويطلبها بكثرة كثير من الناس كما أنَّ الناس في بعض المناطق يستطيبون ويستسيغون لحومها. وفي الوقت

الحاضر قامت بعض الدول بحماية سلحفاة ريدلي بشكل جيد، ومنع استغلالها في مواردها الطبيعية، وعزلت أماكن تعشيشها وتربيتها. وهذه الحيوانات - بخلاف السلاحف البحرية الأخرى التي تعشش في الليل - تقوم بالتعشيش خلال النهار فتضع بيوضها، وتبني أعشاشها، وتأوي إليها.

الانقراض يهددها

أما السلاحف البرية، فهي كائنات تكيفت على نحو شديد مع الحياة على اليابسة، ويمكن أن تعيش فترات زمنية طويلة من دون ماء. ويوجد منها أنواع كثيرة، ولكن يوجد منها ٤١ نوعاً مهماً، وهي سلاحف كبيرة ضخمة، وترسها قنطري الشكل مرتفع على نحو مميز لها، ولكن ليس بقدر أرجلها الخلفية المشابه لجذل الشجرة. ويمكن لأرجلها الأمامية القشرية جيداً أن تُسحب على نحو متصل معاً لتغطي الفتحة الأمامية للدرع على نحو كامل عندما يُسحب الرأس للداخل. وتعيش السلاحف البرية في الأجزاء الحارة من العالم وتختبئ على نحو عميق لتبقى على قيد الحياة فترات باردة على نحو شديد. وهذه الكائنات الحية تعرضت للضواري وللافتراس وخصوصاً من الإنسان، وقد انقرضت في مناطق قارية أو أوربية متعددة. وكثيراً ما يقال: إن السلاحف البرية مفيدة للحدائق؛ لأنها تأكل البزاق العريان والحشرات. والواقع أن السلاحف الصغيرة في البساتين تأكل النباتات الخضراء وتحبّ الخسّ خصوصاً. كذلك فإن للسلحفاة البرية الجبارة في جزر غالا باغوس قشرة «درع» طولها ١٥٠سنتمتراً، وهي تزن نحو ٢٧٥ كيلوغراماً. والسلاحف البرية مثل السلاحف البحرية تضع بيضها كذلك في حفر الأرض، وتغطيها، ثم تتركها لتفقس.

وهناك قشرة قرنية تغطي فكيها حتى إنّ أفواهها شبيهة بالمنقار، وبإمكانها أن تعض كما تعض الببغاء، حتى إنّ بعضها - ولاسيما السلاحف الأمريكية النهاشة - يمكن أن تكون شرسة في عضها. وهذه السلاحف الأمريكية النهاشة تعيش في المياه العذبة، وأكبرها النهاشات القاطورية في الجنوب الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية. وتختبئ هذه السلاحف العنيفة في وحل النهر أو المستنقع ولا يظهر منها على السطح غير - لسان - على شكل دودة. وترى السمكة ما تحسبه دودة تتلوى فتغوص وراءها فتنهشها السلحفاة. وهناك سلحفاة نهّاشة أخرى تعيش في أنهار أمريكا الشمالية، وهي تنهش الأسماك السابحة، وقد تهجم على قدم إنسان وتطبق فكيها عليها كمثل رباط فولاذي.

تسلية وفائدة

وتهتم معظم دول العالم الآن بتربية الحيوانات والكائنات الحية كافة، وتعد ذلك جزءاً من تراثها، وقسماً من كيانها، وجزءاً لا يتجزأ من تاريخها القومي العريق. وفي هذا الشأن يمكن أن نذكر أنه في مدينة نانجينغ العاصمة القديمة في تاريخ الصين حديقة طافحة برواسب التراث الثقافي، اسمها «بركة التنين الأسود»، وفيها تربى أنواع من السلاحف التي تعد من عجائب الكائنات في العالم، وهي - في حقيقة الأمر - بيئة كبيرة ومكان واسع كبير لتربية معظم أنواع السلاحف، والواقع أن بعض دول العالم لم تقم بتربية السلاحف واستيلادها بقصد ترفيه الناس وتسليتهم وتزيين حدائق الحيوان بها فقط، ولكنها أدركت ما للسلاحف من فوائد عظيمة أخرى ومنافع شتى؛ إذ للسلاحف أهمية كبيرة في مجال البحوث العلمية، ولا يحل محلها باقي الحيوانات، وخصوصاً في مجال الرصد الجوي، والتنبؤ الزلزالي، وعلم البيونكس، كما أنها مرغوبة لفعلها العلاجي، فتُتناول كغذاء لذيذ ثمين، ودواء ناجع يعالج أمراضاً كثيرة على حد سواء، إضافة إلى أن دروعها تستخدم في بعض الصناعات المهمة.

الهوامش والمراجع:

* الباوند Pound: رطل إنجليزي «نحو ٤٥٣ غراماً».
* القدم Foot: قياس للطول يساوي ثلث ياردة.
* الإنش، البوصة Inch: واحد من اثني عشر جزءاً من القدم أو ٢,٥٤سم.

1 - The Hamlyn Children's Animal World Encyclopedia in Colour. (1981): Thirteenth Impression. The Hamlyn Publishing Group Limited. London.

2- Hearne .T., (1980): The Observer's Book of PETS. Frederick Warne & Co. Ltd. London. PP.154-171.

3- Attmote .S., (1989): Animal Encyclopedia, Checkerboard Press. Brimax Books Ltd. New York. PP.70-71.

٤- برتون، موريس ١٩٨١م: الحيوانات، الموسوعة العلمية الحديثة «٧»، الجزء الثاني، الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت، ص٥٨-٥٩.

٥- مجلة الصين المصورة ١٩٩١م: العدد ١٢، ص٣٤-٣٥، الصين.

٦- الدميري، كمال الدين محمد بن موسى: حياة الحيوان الكبرى، دار الألباب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - دمشق، الجزء الأول، ص٥٠٢-٥٠٤، والجزء الثاني ص٢٧٢-٢٧٣، (بلا عام).

٧- الجاحظ، أبوعثمان عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، الأجزاء: الأول ص٣٠، الثاني ص١٢٥، الرابع ص١٤٤-٢٨٨، الخامس ص٥٢٥، ٥٣٣، ٥٣٤، السابع ص٦٦، الطبعة الثانية، بتحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر «محمد محمود الحلبي وشركاه - خلفاء»، الأعوام ١٩٦٥م، ١٩٦٦م، ١٩٦٨م، ١٩٦٩م.

٨- أرسطوطاليس: طباع الحيوان، الطبعة الأولى، ترجمة يوحنا بن البطريق، حققه وشرحه وقدّم له الدكتور: عبدالرحمن بدوي، الناشر، وكالة المطبوعات - الكويت، الطبعة الأولى، ص٣٠٦-٣١٦، ١٩٧٧م.

٩- البعلبكي، منير ١٩٨٥م: المورد، قاموس «إنجليزي - عربي»، الطبعة التاسعة عشرة، دار العلم للملايين - بيروت، لبنان.

١٠- معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية «إنجليزي - عربي»، إعداد: أحمد شفيق الخطيب - نواة المادة العربية في المعجم هي من وضع وتحقيق الأمير مصطفى الشهابي، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان - بيروت، ١٩٨٢م.

ظاهرة السكن العشوائي في المدن العربية

مدينة دمشق نموذجاً

حواس سلمان محمود

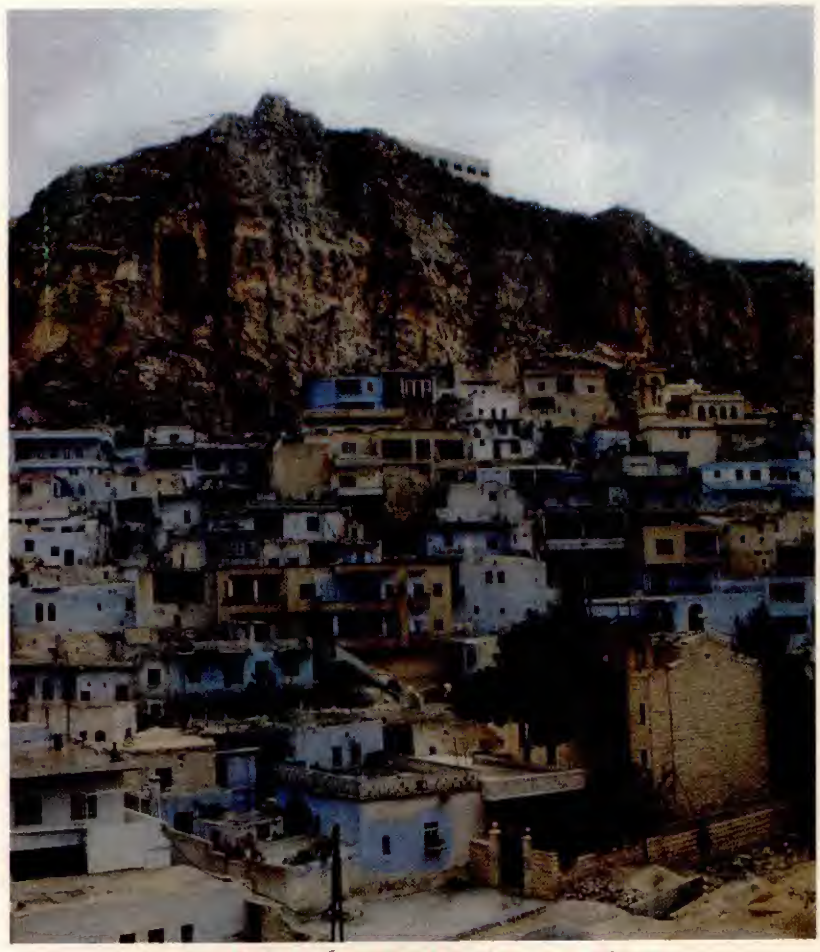


صورة من إحدى المدن العربية تعبر عن تفاقم المشكلات السكنية

يشكل الإسكان المعضلة الرئيسة للعديد من المدن الرئيسة حيث يزداد الطلب على مساكن العزاب والوافدين، والمشروعات الإسكانية عاجزة عن تلبية احتياجات المواطنين على اختلاف مستوياتهم، وهذا العجز يسبب قيام ضواحي الصفيح على أطراف المدن، وتقدر بعض الدراسات أن ٣٠-٥٠٪ من سكان المدن في العواصم العربية تعيش في ظروف سكنية غير ملائمة، كما أن الكثافة السكانية تصل في بعض المناطق إلى ٢٤٠٠٠٠نسمة/كم٢، إضافة إلى زحف مناطق العمل والصناعات والورش (المرائب والكراجات) إلى المناطق السكنية، وتأزم الأوضاع الصحية نتيجة لمشكلة النفايات والتلوث الجوي بسبب قرب المطارات والحافلات من المساكن، وكذلك التلوث البري والبحري، ومشكلة تصريف مياه المجاري (اختلاط مياه المجاري بمياه الشرب) والأمطار التي تعطل السير.

لقد بات الكثير من المدن العربية مطوقًا بأحزمة من السكن العشوائي (أو أحياء المخالفات) الذي يجرف في طريقه أراضي زراعية قيمة، والذي يوجد البيئة التي يرتع فيها الكثير من الأمراض، البيئية منها والعضوية والنفسية والاجتماعية، وانعدام الرعاية الصحية والترفيه، ثم النسبة العالية للعطالة والتوتر والنظرة المتدنية إلى الذات، كل هذه العوامل تتضافر لإيجاد بيئة عليلة. إن مشكلة السكن العشوائي ناتجة بطبيعة الحال من عملية الهجرة من الريف إلى المدينة «التحضر» وناتجة أيضًا من عدم وجود تخطيط عمراني مسبق قادر على استيعاب الزيادة السكانية في المدن وتنظيمها.

وإذ كنا سنتناول بالدراسة هذه المشكلة في «دمشق»، فإنها لا تختلف ولا يختلف عنها (من حيث الخطوط العريضة والملامح الأساسية) أغلب المدن العربية؛ لأن المشكلة ناتجة من أسباب مشتركة بين المدن العربية.



صورة توضح حجم ما تعانيه المدن العربية من اكتظاظ السكان

السكن العشوائي في مدينة دمشق

ترى إحدى الدراسات التي تناولت مفهوم «المخالفة في المخطط التنظيمي» أن مناطق المخالفات أو السكن العشوائي هي رد فعل اجتماعي لساكنيها على استثناء جماعي لهم فرضته شروط ونتائج المخطط التنظيمي، وترى هذه الدراسة أيضًا أن ظاهرة المخالفة تكشف قصور المخطط التنظيمي عن إعطاء الناس القائمين بها الفرصة المناسبة لأداء نشاطاتهم في إطار مناسب ضمن هذا المخطط، وتُرجع دراسات أخرى قليلة أنجزت حول هذا الموضوع نشوء هذا النوع من السكن حول المدينة إلى أسباب عديدة يأتي في مقدمتها الأهمية الكبرى لمدينة دمشق بوصفها مركزًا صناعيًا، وتجاريًا، وإداريًا، وثقافيًا مهمًا في القطر، وهذا ماجعل المدينة أحد المراكز الرئيسة الجاذبة التي يقصدها المهاجرون بحثًا عن العمل أو الدراسة، أو ممّن أجبرتهم الظروف الخارجة عن إرادتهم على الهجرة من داخل القطر أو خارجه نحو دمشق، وخصوصًا أولئك الذين دفعت بهم المعارك الحربية الإسرائيلية العربية في عام ١٩٤٨م من فلسطين. وفي عام ١٩٦٧م من الضفة الغربية والجولان نحو دمشق والمدن السورية الأخرى. وأدى النمو السكاني الطبيعي والعوامل المذكورة آنفًا إلى زيادة كبيرة لسكان مدينة دمشق، إذ إن عدد سكان المدينة في عام ١٩٦٠م كان يبلغ ٥٣٠ ألفًا وتضاعف في عام ١٩٨١م إلى ١.٢٥٠.٠٠٠ نسمة. وأظهرت تقديرات المكتب المركزي للإحصاء أن عدد سكان دمشق وضواحيها قد بلغ مليوني نسمة عام ١٩٨٩م، إلا أن إحدى الدراسات حول الأحياء المخالفة في دمشق وضواحيها قدرت هذا العدد بنحو ثلاثة ملايين ونصف المليون أي ربع سكان سورية تقريبًا في تلك الفترة. وجدير بالملاحظة أن مدينة دمشق التي كانت نقطة جاذبة رئيسة لسكن المهاجرين في الستينيات، لم تعد كذلك فيما بعد، بخلاف العواصم الأخرى في العالم العربي، حيث قامت التجمعات السكانية في ريف مدينة دمشق باستقطاب المهاجرين الذين لم يعد بإمكانهم تأمين مساكنهم في المدينة، ومما يثبت ذلك أن نمو سكان مدينة دمشق بلغ ٤.٦ بالمئة مقابل ٢.٦٪ في ضواحي دمشق بين عامي ١٩٦٠-١٩٧٠م وانعكس هذا الوضع خلال فترة أعوام ١٩٧٠-١٩٨١م فارتفعت النسبة إلى ٥.٥٪ في الضواحي، وانخفضت في المدينة إلى ٣٪ نتيجة للاكتظاظ السكاني في العاصمة وعدم قدرتها على استقبال المزيد من المهاجرين، وبروز الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، ولا سيما في مجال السكن، التي أدت إلى تحوّل المهاجرين نحو أطراف المدينة وضواحيها.

كتلية تنتشر في جميع الاتجاهات. وتنتشر هذه التجمعات العمرانية حول دمشق في جميع الاتجاهات ما عدا الجهة الشمالية الغربية، حيث لا تساعد التضاريس الطبيعية لجبل قاسيون على نشوء هذا النوع من السكن. وتتميز هذه المناطق بارتفاع الكثافة السكنية إذ يبلغ متوسط هذه الكثافة (٨١٠٦١ نسمة/كم٢ عام ١٩٩١م) ويمكن أن تصل هذه الكثافة في بعض المناطق كمنطقة مخيم اليرموك إلى (١٢٨٥٧٢) نسمة/كم٢ أي ما يعادل ١٢٨٥نسمة/هكتار، وهي أعلى كثافة سكانية في العالم.

أما من الناحية الفيزيائية فتتنوع مواد البناء المستعملة من بيوت بنيت من الخشب والطين إلى بيوت من البلوك الإسمنتي مع سقف خشبي أو سقف من مادة الأترنيت الإسمنتية أو الإسمنت المسلح، وهناك تفاوت كبير في توفير التجهيزات ضمن المساكن في هذه المناطق، ففي حالات كثيرة تكون غرفة السكن هي المسكن والمطبخ في آن واحد، وقد تفتقر إلى الحمام.

أما الكهرباء فأغلب تأمينها يتم بصورة غير شرعية، وخصوصاً في أطراف الأحياء الشعبية، وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى لسكان الأحياء المخالفة في دمشق قد قامت بشراء الأراضي المقسمة بصورة غير قانونية داخل الحدود الإدارية للمدينة أو خارجها فإنه يمكن ملاحظة حالات قليلة قد قام فيها المواطنون ببناء مساكنهم على أراض ملك الجهات الحكومية (أملاك الدولة). ومن الملاحظ وبصورة واضحة أن عدوى ارتفاع الأسعار ارتفاعاً هائلاً للأراضي والمساكن قد بدأت تظهر حتى في هذه الأحياء، وإن كانت لا تزال أسعارها أقل بكثير مما هي عليه في المناطق المنظمة، وهذا ما جعل إمكان تأمين قطعة أرض أو مسكن في هذه الأحياء صعباً جداً على غالبية الشريحة الاجتماعية



مشكلة السكن العشوائي ليست قاصرة على المدن العربية



منظر عام لدمشق من جبل قاسيون

وهناك أسباب أخرى لظهور السكن العشوائي ونموه في مدينة دمشق وضواحيها تكمن في عدم استطاعة القطاع الحكومي والتعاوني في مجابهة الطلب المتزايد على السكن الرخيص لإيواء هؤلاء القادمين، وعدم وجود خطط (إستراتيجية) عمرانية لمجابهة المشكلة، ويمكن تقسيم هذه التجمعات العمرانية المخالفة، حسب وظائفها، إلى تجمعات سكنية أو صناعية أو مختلطة، ترفدها مناطق تجارية مخالفة للشروط، وقد تكون هذه التجمعات على شكل شريطي عندما تنتشر وتتوسع على طول الطريق، وقد تكون



صورة من حماة: التخطيط المسبق يقتضي التكامل بين دمشق والمدن الأخرى عند وضع السياسة السكانية

التي تتوجه عادة نحو هذه الأحياء التي يعد معظم سكانها من ذوي الدخل المحدود. وتجدر الإشارة إلى أن تحولات اجتماعية واقتصادية جديرة بالاهتمام والعناية قد بدأت تظهر، بل ظهرت فعلاً في المناطق الريفية المجاورة لمدينة دمشق التي توسعت كثيراً أو أصبحت أماكن جذب للسكان الذين لم يستطيعوا تأمين السكن في المدينة.

إجراءات لحل المشكلة

يمكن تصنيف إجراءات حل المشكلة في فئتين:

- إجراءات ذات طابع علاجي - تنفيذي - بعد ظهور السكن العشوائي.
- إجراءات ذات طابع وقائي - تخطيطي مسبق قبل نشوء الظاهرة (السكن العشوائي) أو في بداية نشوئها ..

أولاً: الإجراءات العلاجية: وتتضمن خيارين:

الخيار الأول: هو القبول باستمرار النمو غير المرخص في المدن، أي القبول بالتمدد الفوضوي - العشوائي - لها. وهذا الخيار غير مقبول؛ لأن ذلك يؤدي إلى زيادة حجم المشكلة وخروجها عن إمكان الحل الناجح، ولا سيما إذا لاحظنا الصعوبات الكبيرة التي تعترض الجهات المسؤولة عند محاولتها التدخل لتحسين مستوى هذه الأحياء وإمدادها بالخدمات الحضرية اللازمة.

الخيار الثاني: يتضمن هذا الخيار إزالة هذه الأحياء وإعادة إسكان المواطنين الساكنين فيها، وقد أثبت هذا الخيار عدم واقعيته، وذلك لعدم إمكان تنفيذ برامج ضخمة لإسكان هذا العدد الهائل من السكان، كما يجب أن يؤخذ في الحسبان هدر الأموال وكميات من المواد الكبيرة التي استخدمها سكان هذه الأحياء والمناطق لبناء مساكنهم، ومن جهة أخرى فإن مناطق السكن العشوائي هي مبادرة لا تحتاج إلى القمع الذي أثبت عدم جدواه بقدر ما تحتاج إلى النظرة الشاملة التي تدعم التوجيهات نحو تزويدها على الأقل بالحد الأدنى من الخدمات، أي محاولة تنظيمها وترتيبها (وهذا ما تم اللجوء إليه في سورية).

ثانيًا: الإجراءات الوقائية «التخطيط المسبق»:

يمكن تلخيص الإجراءات الوقائية بالنقاط التالية:

- إن المدينة جزء من المجتمع تتكامل مع المدن الأخرى، وترتبط معها ومع القرى والبادية بعلاقات اقتصادية واجتماعية وثقافية، ولذلك يجب وضع سياسة سكانية للدولة تتضمن معدلات النمو ومستويات الخصوبة والوفيات، ومسألة توزيع السكان بين المناطق الريفي والحضري، لتكون هذه السياسة قاعدة للتخطيط التنموي.
- ربط السياسة السكانية مع برنامج للتنمية المتكاملة المتوازنة التي ترمي إلى تشجيع بناء نمط متوازن من المستوطنات الحضرية (المدن الصغيرة والمتوسطة والكبيرة)، وكذلك التركيز على تطوير الصناعات الريفية، وتوفير الخدمات المتنوعة للتخفيف من حدة الفروق بين نمط الإنتاج ونمط الحياة بين الريف والحضر.
- ضرورة وجود التشريعات التي تحدد سوق العقارات، وتحدّ من الاستخدام غير المتوازن للأراضي (لأن ارتفاع أسعار الأراضي

يعدّ عنصراً مقوّماً لتنفيذ المشروعات التنموية في المدن) وتساعد في تمكين الإدارات المحلية من تطبيق التخطيط الحضري المناسب لمختلف الفئات الاجتماعية.

ـ مراعاة التوزيع البيئي (الإيكولوجي) للصناعات بين المدن والقرى، وإنشاء المؤسسات الهيكلية اللازمة لها، وزيادة الاستثمارات الإنتاجية سواء النابعة من النفط أو من التحويلات الخارجية أو من الواردات والإنتاج المحلي، وإنشاء مدن ذات وظائف إنتاجية.

وبالإضافة إلى النقاط الأربع السابقة، وبالتوافق والانسجام مع مضامينها، فإن الحل الأسلم والأنجح هو إنشاء مناطق التوسع والاحتياط لاستيعاب الزيادة السكانية العادية والطارئة.

مناطق التوسع والاحتياط

تتناسب أبعاد هذه المناطق في الدرجة الأولى مع عدد



من أحياء دمشق

سكان المدن التابعة لها بغية تأمين احتياجاتهم، إلا أن خصوصيات الأراضي المحيطة بالمدن، والثروات الموجودة فيها، وكذلك الواقع المناخي، ذلك كله يؤدي دوراً في رسم الحدود النهائية لهذه المناطق. وتستوعب هذه الأراضي أولاً المناطق السكنية اللازمة لاستيعاب الزيادتين الطبيعية والطارئة في عدد السكان، وكذلك السكان الذين سينقلون من أماكن سكنهم الحالية بعد تنفيذ المخططات التنظيمية الجديدة نتيجة لتحسين الواقع السكني، وإيجاد التوازن في الكثافة السكانية مع كامل مساحة المدينة. وتتطلب المناطق السكنية الجديدة ربطاً جيداً مع المدينة من ناحية، ومع المناطق الصناعية من ناحية أخرى، ولذلك، فإن الحدود المرسومة، لمناطق التوسع والاحتياط يجب أن تساعد وأن تستوعب هذه الشبكة، وأن تؤمن في الوقت نفسه ربطاً جيداً للمدينة وتوسعها بالشبكة العامة للمواصلات على المستوى البعيد، كما أن هناك ضرورة لتخصيص مناطق التوسع والاحتياط لاستثمار الثروات الطبيعية، وتحسين الواقع الصحي، والتخفيف من ظواهر التلوث، وذلك لاستيعاب الصناعات الملوّثة أو الخطيرة أو السرية المنقولة من المدينة. وتحتاج الصناعات الجديدة التي ستنشأ أيضاً إلى مساحات كبيرة من الأراضي لضرورات الحماية البيئية والأمنية، فالمساحة اللازمة لاستيعاب تطور السكان على المدى القريب تعادل ثلث مساحة المدينة الحالية، ويمكن لهذه المساحات أن تزيد أو تنقص حسب كثير من الظروف، ويجب أن تكون الأراضي المخصصة لمناطق التوسع والاحتياط محيطة بالمدينة ماعدا الحالات التي يظهر فيها عارض طبيعي يمنع ذلك: بحر ونهر وجبل ...إلخ.

عندها يتم التوسع باتجاهات أخرى. وبالنسبة إلى الصناعات الملوّثة التي ستحتويها مناطق التوسع والاحتياط يجب أن تبنى خارج حقول الأشجار والغابات، وبعيداً عن أماكن الاستجمام والراحة، وتعزل الصناعات الخطيرة والسرية والملوّثة بمناطق خضراء كثيفة للحماية البيئية.

التوزع السكاني في مناطق التوسع والاحتياط

تدرس المخططات التنظيمية عادة فترة بين ١٥ ـ ٢٥سنة، وعلى هذا المخطط أن يستوعب مجموع الزيادتين الطبيعية والطارئة بالإضافة إلى السكان الذين ينتقلون من المدينة رغبة في تحسين واقعهم السكني، أو السكان الذين أزيلت مساكنهم إما للتخفيف من الكثافة (كما في المراكز التاريخية للمدن)، أو لاستكمال المساحات اللازمة للخدمات، أو لتوسيع المساحات الخضراء في مراكز المدن، أو تحسين شبكة المواصلات، ويمكن تصنيف سكان هاتين المنطقتين ضمن فئات ثلاث.

ـ الفئة الثابتة: ويعمل سكانها في الصناعة والزراعة الموجودة ضمن المنطقة.

ـ الفئة التي تعمل في المدينة الأم وتقطن مناطق التوسع.

ـ الفئة الأخيرة: وهي فئة العاملين فترات زمنية محددة، وفئة المصطافين الذين يقضون أوقات عطلهم أو أوقات فراغهم في المنطقة.

ولتأمين الحد الأدنى من الخدمات على نحو اقتصادي، وخصوصاً المدارس الابتدائية، يجب ألاّ يقل عدد سكان التجمعات الجديدة عن ٣٠٠٠ نسمة؛ أمّا التجمعات السكانية التابعة للمدن الكبيرة فيفضل أن تكون كبيرة إلى حد ما من ٥٠.٠٠٠ـ٨٠.٠٠٠ نسمة لكي تؤمن لها الخدمات اللازمة ومن مختلف الدرجات.

المراجع:

١ـ م. زكريا الشيخ محمود، نظرة على أحياء المخالفات في المدن الآسيوية، مجلة المهندس العربي، عدد ١١٩/١٩٩٥م، ص١٥.
٢ـ لين سيمارسكي، ترجمة عبدالفتاح الصبحي، أزمة المدن في العالم العربي، الثقافة العالمية، عدد تموز/يوليو ١٩٨٨م، ص٩.
٣ـ إسحق القطب، نحو إستراتيجية للتحضر في البلاد العربية، شؤون عربية، عدد حزيران/يونيو ١٩٨٢م، ص١٣٤.
٤ـ عادل مصطفى أحمد، المدينة المعافاة في الوطن العربي، المستقبل العربي، عدد أيلول/سبتمبر ١٩٩٦م، ص٩١.
٥ـ م. أسامة أبونصار، التخطيط الإقليمي والتنظيم العمراني، مجلة المهندس العربي، عدد ١٢٠/١٩٩٥م، ص١٣ـ١٤.
٦ـ مهنا رنيف، مفهوم المخالفة في المخططات التنظيمية، مجلة المهندس الأردني، عدد ٥١/٢٩/٧/١٩٩٣م، ص٣٤-٣٦.

هوثورن بين المعتقد والتاريخ

بشير العيسوي

ناثانيال هوثورن (١٨٠٤ - ١٨٦٤م) (١)أحد أدباء عصر النهضة الأمريكية (٢) التي شهدت تكوين أدب الأمة الأمريكية شعراً ونثرًا، قال عن نفسه: لا أريد أن أكون طبيبًا لأعيش على أمراض الناس، ولا واعظًا لأعيش بذنوبهم، ولا محاميًا فأعيش بمشاجراتهم، لذا لم يبق أمامي سوى أن أصبح مؤلفًا (٣)، وقد أحسن الاختيار، ونجح فيه.

وهوثورن سليل عائلات البيورتيانيين الأول(٤)، فجده وليام هوثورن الذي هاجر من إنجلترا عام ١٦٣٠م واحدٌ منهم، قدم إلى مدينة سيلم Salem، وكان قائداً في ميليشياتها، وكان واحداً من القضاة الذين حاكموا ساحرات تلك المدينة (٥)، وبسبب هذا النسب نذهب مع هوثورن إلى أن الشارة القرمزية (١٨٥٠) تمثل اعتذاراً عما أقدم عليه جده في تلك المحاكمات، وما كانت تتصف به من وحشية. يقول هوثورن في مقدمة الشارة القرمزية: «ولكن ذلك الشعور له قيمته الأدبية، فشبح ذلك الجد الأول الذي أضفت عليه تقاليد الأسرة عظمة قاتمة كان يشاغل خيال صباي منذ بدأت أعي، ولا يزال يحوم حولي، ويربطني بالماضي بعلاقة ودية نحو مسقط رأسي، وإن كنت أقول: إنه يربطني بحاضر البلدة كما هي الآن. ومن أجل ذلك الجد الوقور الملتحي بجبهته العالية، وعباءته ذات الفرو الداكن، والذي جاء منذ زمن بعيد بسيفه وبكتابه المقدس، وسار في الشارع غير المطروق بجلال وهيئة يدلان على أنه رجل حرب وسلام - يخيل إليّ أن لي الحق في الإقامة هنا من أجله هو لا من أجلي أنا. أنا الذي لا يكاد أحد يسمع صوته، أويرى وجهه؛ أما هو فقد كان جندياً وقاضياً، وأحد الذين لهم سلطة تشريعية، وكان حاكمًا في الكنيسة، ويمتلك كل صفات «البيورتيانز» الطيبة والشريرة. كما كان رجلاً اضطهادياً جباراً يذكره «الكويكرز» في تاريخهم، ويتحدثون عن قسوته العاتية مع امرأة منهم - تلك القسوة التي ستذكر طويلاً، أطول من سجل أعماله الطيبة مع أنها كثيرة، وقد ورث ابنه عنه روح

الاضطهاد تلك، وبرزت شخصيته ذات الأهمية أيام استشهاد السحرة، حتى ليقال: إن دماءهم تركت به لطخة عميقة لا بد أن عظامه في مقبرة شارع شارتر ما زالت تحملها إن لم تكن قد تفتّتت، واستحالت ترابًا. ولست أدري أكان أسلافي هؤلاء قد ندموا على أفعالهم، وطلبوا مغفرة السماء لقسوتهم، أم إنهم الآن يجأرون، ويتعذبون في عالم آخر جزاء ما فعلوه.

إنني على كل حال الكاتب الحالي الممثل لهم، آخذ على نفسي كل الخزي من أجلهم، وأدعو أن تنزاح عنا اللعنات التي استمطروها على أنفسهم بأعمالهم، فحالة ذريتهم المحزنة، والقحط الذي يعانونه دليل واضح على تلك اللعنات» (٦).

يستعرض جرانت س، نايت قصة لهوثورن بعنوان «إنديكوت والصليب الأحمر» ظهرت في مجلة مدينة سيلم عام ١٨٣٧م، ويركز نايت على أهم جزء في تلك القصة حيث تظهر امرأة على قدر كبير من الجمال أمام جمهور من المهتمين في حضرة حاكم ماساتشوستس، والتي كان قدرها أن تضع على صدرها الحرف A في مواجهة العالم وأطفالها ... لقد نسجت تلك الإشارة المهلكة على قماش قرمزي بخيط من الذهب، وبأجمل تطريز ممكن لدرجة بدا معها الحرف A كأنما يعني معجبة، أو أي شيء آخر إلا أن يكون زانية، ويعلق نايت على ذلك بأن «هوثورن لم يستطع أن ينسى هذه المرأة وشارتها القرمزية. لقد أسرت خياله، لقد كانت رمزًا لذنوب البيوريتانيين الذي عُد أكثرها دموية؛ ولذا قدمت له بعد عشر سنوات لاحقة فرصة لسبر أغوار مشكلة أخلاقية؛ وذلك بحث عزيز على نفسه، فقد بدأ في تحويل قصة تلك المرأة إلى قصة رومانسية أكبر. ولكن لعدم مثابرته، توقف عن تلك الخطة، إلى أن فقد وظيفته في جمرك سيلم، بعدها أصبح مضطرًا إلى أن يكسب قوته من قلمه، وعندها أكمل المخطوطة التي بدأها، وقدمها إلى العالم في عام ١٨٥٠م تحت عنوان «الشارة القرمزية»، التي غالبًا ما تُسمى أعظم قصة أمريكية»(٧). ونلمس من هوثورن زهده في الشهرة الأدبية، وعدم اكتراثه كثيراً بنشر اسمه على أغلفة الكتب، إنما نشر اسمه على البضائع والأكياس بالجمرك: «ولما لم أعد أسعى أو أهتم أن يشتهر اسمي في الخارج على أغلفة الكتب، فإنني أبتسم عندما أذكر أنه صارت له شهرة أخرى، كان العامل المكلف بطبع اسمي بحبر أسود على أكياس الفلفل، وسلال الواردات، وعلب اللفائف، ورزم البضائع المختلفة الخاضعة لضريبة الجمرك دلالة على أن تلك البضائع قد دفعت المستحق عليها، ومرت بمكتبي وفقًا للمتبع، فكان اسمي المحمول على عربات الشهرة العجيبة تلك يسافر إلى أماكن لم يذهب إليها قط من قبل، وأرجو ألايذهب إليها ثانية»(٨).

إن هوثورن ساخط على كل شكل فلسفي

سخر هوثورن من الترانسندنتالية والتوحيدية لقناعته أن الإصلاحات الشكلية لا تصل إلى قلب الإنسان

من أشكال الحياة، فقد سُمي بالكاتب الذي تسكنه روح الأجداد، والذي ينوء بعبء الإحساس بالذنب والحزن، وقد عرف أنه روائي التمرد الاجتماعي، وروائي التقاليد المسيحية، وروائي الأشياء التي لا يمكن التحكم فيها، ومن ثم فهي فاسدة من حيث الطبيعة البشرية(٩)

فنحن هنا نتوقع أن تكون «الشارة القرمزية اعتذاراً مما فعله جده ومن رافقه أو واكبه من البيوريتانيين الآخرين. نضيف إلى ذلك معارضته الشديدة لأفكار الترانسندنتاليين، وعلى رأسهم رالف وولدو إميرسون (١٨٠٣ - ١٨٨٨م) حيث يعده وولتر بلير المتحدث الرئيس للمعارضين لتلك المدرسة .. فقد سخر من الإصلاحات الطوباوية، على أساس أن الإصلاحات الشكلية لا تصل إلى قلب الإنسان الذي هو بطبيعته مذنب، وبذا يبقى غير قادر على الاستمرار في الحياة ... لقد سخر من الترانسندنتالية (فلسفة التعالي)Transcendentalism والتوحيدية Unitarianism (١٠). وإذا وضعنا في الحسبان أن التوحيدية هي التي مهدت لظهور الترانسندنتالية، وأن التوحيدية هي شكل إصلاحي للبيوريتانية التقليدية، فبذا تكون الترانسندنتالية - استنتاجًا - شكلاً إصلاحيًا للبيوريتانية، فقد أخذت منها الجوهر وتركت الشكل، حيث أعلت من شأن ملكة التعقل، أو العقل الأعلى كما يرى إليري تشاننج Ellery channing(١١). لقد حاور هوثورن، وصادق وعرف عن قرب كلاً من هنري ديفيد ثورو(١٨١٧ - ١٨٦٢م)ووليام إليري تشاننج (١٧٨٠ - ١٨٤٢م)، وآموس بروتسون آلكوت (١٧٩٩-١٨٨٨م) وقد دامت علاقة إميرسون بهوثورن فترة طويلة حيث سكن الأخير في البيت القديم Old Manse، وهو منزل جد رالف وولدو إميرسون الذي كتب فيه رائعته «الطبيعة» (١٨٣٦م) التي كانت دستور الترانسندنتاليين. كما أن هوثورن، تحت تأثير ذلك المسكن، كتب «أعشاب من البيت القديم» An old Mosses from Manse (١٨٤٦م)(١٢). ولقد عمل هوثورن في مزرعة بروك مدة سنة ونصف السنة، وكانت تلك المزرعة التي أنشأها جورج ديبلي (١٨٠٢ - ١٨٨٠م) (١٣) مثالاً طيبًا لربط الترانسندنتالية بالحياة، إلا أن هوثورن ضاق ذرعًا، فقد خسر فيها ألف دولار أمريكي، وتركها ليتزوج ويعيش في بيت جد إميرسون (١٤). وعلى الرغم من معاصرته لتجربة ثيودور باركر(١٨١٠ - ١٨٦٠م) للمزاوجة بين الكنيسة والدولة، وتجربة مارجريت فولر(١٨١٠ - ١٨٥٠م) التي نادت بتحرير المرأة، وكذلك لتجربة هنري ثورو الشهيرة للحياة في بحيرة وولدن Walden pond (١٥)، إلا أنه كان يتطلع إلى شيء آخر لم يستطع أن يقدم صياغة له، كما أنه لم يتمكن من تقديم بديل للموجود، سواء أكان بديلاً للترانسندنتالية أم التوحيدية.

واكتفى بأن يقول:إن الإنسان مولود بخطيئته، وعليه أن يكافح ويجتهد ليخلق عالمًا فاضلاً خاليًا من الرذائل والخبائث، ولقد كان

«خليج الزمن» (١٦) هو المكان، وهو أيضاً الوسيلة اللذين يتخذهما هوثورن للتعبير عما في نفسه من صراعات، وما يراه حوله من تطورات في الفكر والمجتمع، لذا فقد كان أهم مصدر لإنجازه الفكري نابعاً من قدرته على صبغ الأشياء باللون الأسود، بمعنى آخر: قدرته على رسم المعالم المظلمة في عقل الإنسان (١٧)؛ فقد كتب عنه هاري ليفن كتاباً كاملاً في عام ١٩٥٨م أسماه «قوة الظلمة» The Power of Blackness.

يقول هوثورن: إنه عندما قدم الشارة القرمزية فإنه قد كتب أحسن ما يمكن كتابته، ومع ذلك يرى هاري ليفن أن تلك القصة صورة وصفية للحياة بين المكاتب، وهي تمثيل باهت لنمط من الحياة لم يصفه لنا أحد من قبل (١٨)، وأظن حكم ليفين ينطبق على مقدمة القصة، وليس على القصة نفسها، وإلا كان حكمه ظالمًا ودعوة إلى التقليل من إنجاز هوثورن في الأدب الأمريكي.

الرواية التي معنا: رومانس (١٩)، وهي تقع عند الفجر، وفي تلك القصة تلتقي الحقيقة بالخيال. فيضع هوثورن طبقاً لذلك أيامه المملوءة بالعمل في مصلحة الجمارك في مواجهة أمسياته الحالمة في ردهة بيته، حيث تستيقظ ملكته الخيالية مرة ثانية بين ومضات نور القمر ونار المدفأة .. وعلى الرغم من انتقاله مما هو معاصر وحقيقي إلى ما هو أسطوري ورمزي، إلا أن تلك الانتقالية لا تكون وسيلة إلى الهروب، وعلى العكس فإن البنية شبه التاريخية تعطيه الحق أن يرتاب ويجادل في بعض الافتراضات الأخلاقية بحرية وصراحة لم يكن أحد يستطيع استخدامهما عند تناوله لأحد موضوعات القرن التاسع عشر (٢٠)، الذي عاش فيه. وهذا ما يعلنه صراحة في مقدمة «الشارة القرمزية» من أنه وجد لفافة من ست ورقات، لكن القصة لا تعتمد على تلك اللفافة فقط، فهناك ما هو أكثر فهو يقول:

«ولفرط ما انغمست في تأمل الحرف القرمزي نسيت حتى ذلك الوقت أن أفحص لفافة صغيرة من ورق قذر داكن كان النسيج الأحمر ملفوفاً حولها. فلما بسطتها أمامي سرني أن أجد فيها - بقلم المفتش الهرم - تفسيراً واضحاً مستفيضاً للأمر كله. كانت هناك صفحات طوال عن حياة امرأة تدعى هيستر برن، يبدو أنها كانت ذات شخصية مرموقة في نظر أجدادنا - وقد اشتهرت في الفترة بين أيام ماساتشوستس الأولى ونهاية القرن السابع عشر، وكان المعمرون الذين عاصروا السيد المفتش بيو، والذين قصوا عليه المعلومات التي دونها في روايته، يذكرونها - وهم بعد شباب - بوصفها امرأة بلغت من الكبر عتياً، لكنها غير متهالكة، بل كانت ذات مظهر جليل ووقور، تعودت أن تجوب البلاد ممرضة متطوعة تقوم بما تيسر لها من خير، كما أخذت على عاتقها إسداء النصائح



هوثورن لا يفارق التاريخ في «الشارة القرمزية»

في جميع الشؤون، وخاصة ما يتعلق منها بالقلب، وطوعاً لهذه الوسائل وكأي شخص له تلك النزعة، اكتسبت تقدير أناس كثيرين عدّوها ملائكية، ولكنني أعتقد أن غيرهم ضاق بها، ورأوها دخيلة متطفلة. ولما توغلتُ أكثر وأكثر في فحص السجل عثرت على تقرير بأعمال تلك المرأة الفريدة وآلامها، نقلتها إلى القارئ في قصة «الشارة القرمزية»، ومن ثم يجب على القارئ أن يذكر جيداً أن الوقائع الأساسية في هذه القصة تستند استناداً وثيقاً متيناً إلى سجل السيد المفتش بيو، ولاتزال الأوراق الأصلية والشارة القرمزية نفسها - التذكار البالغ الغرابة - في حوزتي، وإنني على أتم استعداد أن أعرض هذه المستندات دون مقابل لكل من تستثيره القصة العظيمة، فيرغب في رؤيتها، ولكن في الوقت نفسه، يجب ألا يفهم من ذلك توكيدي أنني في بنائي للقصة وترميمها .. وتخيل الدوافع والانفعالات النفسية التي تحرك شخصيتها، قد التزمت حدود نصف الدستة من الصفحات التي كتبها المفتش الهرم، بالعكس سمحت لنفسي بالانطلاق كأنما الوقائع برمتها من خلقي أنا، كل ما أجادل من أجله هو أصالة ملخص القصة»(٢١).

وهوثورن بذلك يتفوق على مافعله دي إتش لورانس (١٨٨٥-١٩٣٠م) في بريطانيا، حيث كانت المحظورات البريطانية تفوق في صرامتها تلك التي وجدت في أمريكا.

تناولنا لدراسة الشارة القرمزية، كما هو مبين في العنوان: هل هي سيرة ذاتية أم تاريخ؟ التاريخ موجود في خلفيتها من خلال أسماء الأماكن والأشخاص والأشياء التي يقدمها هوثورن، وقد خصص لها ناشر طبعة RIVERSIDE واحداً وسبعين هامشاً كلها تربط بين موجودات تاريخية ومسميات لأشياء أو أسماء أشخاص ذكرها هوثورن في قصته، وللتدليل على ذلك نتوقف أمام الأسماء الخمسة التالية، وقد وضعت في شكل جدول يبين في اليمين الاسم كما ورد عند هوثورن، ومدلوله وأصله التاريخي كما يوضحه هاري ليفين في الهوامش:

الاسم كما ورد في «الشارة القرمزية»

إسحاق جونسون (الفصل الأول، ص٤٩)

السيدة هيبتر (الفصل الثاني، ص٥١)

الحاكم بيلنجهام (الفصل الثالث، ص٥٦)

الحاكم وينثروب (الفصل الثاني عشر، ص١٤٩)

الرسول إليوت (الفصل السادس عشر، ص١٨١)

مكانته التاريخية كما بينها هاري ليفين

من أوائل المستعمرين في بوسطن، ومات سنة وصوله عام ١٦٣٠م، وترك كثيراً مما عنده للمستعمرة.

وهي أن أرملة وليام هيبتر، تاجر من بوسطن. شُنق لممارسته السحر في ١٩حزيران/ يونيو ١٦٥٦م.

وهو ريتشارد بيلنجهام (١٥٩٢ - ١٦٧٢م)، وكان حاكماً لمستعمرة الخليج في السنوات ١٦٤١، ١٦٥٤م، ١٦٦٥، ١٦٧٢م. ويرى ليفين أن أيًا من هذه التواريخ لا يناسب أبدًا ترتيب الأحداث التي يرويها هوثورن في قصته.

هو الحاكم جون وينثروب، أول حاكم لمستعمرة الخليج بولاية ماساتشوستس.

وهو جون إليوت (١٦٠٤ - ١٦٩٠) وهو أحد المبشرين الذين أرسلوا إلى الهنود، وتعدّ ترجمته للإنجيل أول عمل أدبي في لغتهم.

وقد أسهبت في شرح هذه الجزئية في كتابي «الترجمة إلى العربية: قضايا وآراء» في دراسة بعنوان: «غياب المفهوم التاريخي في النصوص المترجمة إلى العربية». وأكتفي باقتطاف الفقرة التالية حول اسم بطلة القصة هيستربرن، يقول التاريخ: إن شخصاً يدعى وليام برن (١٦٠٠ - ١٦٦٩م) كان من أوائل التطهيريين الذين قدموا إلى أمريكا، وكان معروفًا بأنه كاتب وناشر، وقد يكون لهوثورن هدف وراء الاسم، فنحن نعلم - من القصة - أن هيستر برن متزوجة من العالم الطبيب روجر تشالنجر، ولكنها لا تحمل اسمه فتكون هيستر تشالنجر، وهي تحمل بدلاً من ذلك اسم عائلة برن، ولا أظن أن هوثورن فعل ذلك خطأً، ربما قصد إلى القول إن واحداً من هؤلاء التطهيريين هو أبوها لأنها تحمل اسمه، كما أن واحداً منهم هو سبب بلواها ومحنتها، وهذا ما يتبين من سرد أحداث القصة فيما بعد، حيث نعرف أن السيد آرثر ديمزديل هو شريكها في جريمة الزنا التي تمخض عنها ميلاد بيرل وكل المصائب التي حلت في حياة هيستر برن بعد ذلك (٢٢).

إن استبعاد التاريخ من هذه القصة يحرم القارئ من حقه في تصور حقبة متميزة في الفكر الأمريكي، فالقول: إن ما بين أيدينا هو مجرد خيال فقط عارٍ من الصحة. ونحن لا نذهب أيضاً إلى أن هوثورن قدم لنا تاريخاً محضاً، إن استخدام ملف قضية هيستر برن بالصورة التي قدمها هوثورن في مقدمته عن الجمرك، وأنه يستطيع أن يري هذه الأوراق الست والشارة القرمزية لمن يريد، هي حيلة فقط للدخول إلى

هوثورن كاتب تسكنه روح الأجداد، وينوء بعبء الإحساس بالذنب والحزن

عالم القصة، لكنه مع استخدام الأماكن والأشخاص والأشياء كما سجلها التاريخ لم يعمد إلى كتابة «تاريخ»، كما أننا نذهب إلى ما ذهب إليه كلينث بروكس، ووارين، وبيرسر في تعريف الرواية حين قالوا: .. إنها قصة كتبت نثراً، ويمكن الادّعاء بأنها قصة مصنوعة؛ وهذا لا يعني أن كاتب الرواية قد لا يستخدم مواد مشتقة من الحياة الحقيقية؛ إن جميع مواده يلزم أن تأتي من الحياة، وأن تتسق معها، ولكن عند التثبت من الطبيعة الأساسية للرواية فإننا نهتم، ليس بمصدر المواد التي يستخدمها الكاتب، ولكن بما يفعله بتلك المواد، أي بالنمط والمعنى اللذين يعطيهما إياها، نهتم كذلك بمدى قوة شحن تلك المواد بالعاطفة، وإلى أي مدى يستطيع أن يجعل تلك المواد تمثل نظرته إلى الحياة بشكل مقنع ومترابط؟ (٢٣).

ذلك أن الفصل بين شخصية هوثورن وأحداث الشارة القرمزية يكاد يكون مستحيلاً «فعلى الرغم من أن هذا العمل يحوي معلومات وثائقية - على حد قول هوثورن - إلا أنه ليس قصة تاريخية » (٢٤).

فالقصة كما أعلن هوثورن تحت عنوانها «رومانس»، يتوقع القارئ من قصة رومانسية حول البيوريتانيين أن يكون عنصر التناقض فيها ظاهراً، ولكن التناقض هنا تمَّ التغلب عليه منطقيًا؛ وذلك من خلال التفاعل بين الكبت العاطفي عند التطهيريين والنزوات الرومانسية، وأيضًا من خلال التفاعل بين الطقوس المتشددة لعالم التجارة والعواطف المتشابكة لدينا كالغابة (٢٥).

إن السيرة الذاتية من ناحية أخرى تمثل عنصراً إضافيًا إلى جانب التاريخ في بناء هذه القصة. فقد كان هوثورن محقًا عندما رفض رأي أحد أصدقائه بعدم نشر مقدمة الجمرك التي تقع في سبع وأربعين صفحة من القطع المتوسط.

فالمقدمة لا تقل أهمية عن الرواية نفسها، بل على العكس، لا يستطيع القارئ أن يلم بأحداثها من دون قراءة تلك المقدمة؛ فعلى الرغم من التدرج البدائي في المقدمة الذي يوصلنا في النهاية إلى هدف هوثورن وهو اللفافة التي تحوي الورقات الست والشارة القرمزية، إلا أن تجربته مع العاملين بالجمرك، والشخصيات المتعددة التي يسخر منها، ويهزأ بها تدلنا على شيء ما في شخصية هوثورن نفسه الذي عاش متمرداً اجتماعيًا، وناقداً لأخلاقيات مجتمعه كما أسلفنا. وأصدق شيء على ذلك حديثه عن مؤسس أول مستعمرة بيورتيانية: «فقد رأى مؤسسو أول

الهوامش والمراجع:

١- في عام ١٨٣٠ ظهرت أول قصة منشورة له في جريدة مدينة سيلم، وفي عام ١٨٣٦م عمل مدة ستة أشهر مع أخته في كتابة جميع محتويات المجلة الأمريكية للمعلومات المسلية والمفيدة، التي اتبعها بتاريخ «اطفال العالم». في عام ١٨٣٧م كتب قصصاً تقص للمرة الثانية، وظهرت بقية أعماله متتالية: «أعشاب من البيت القديم» (١٨٤٦م)، و«الشارة القرمزية» (١٨٤٩ - ١٨٥٠م)، و«البيت ذو السقوف السبعة» (١٨٥١م)، حيث كان جاراً لهيرمين ميلفيل الذي كان يكتب موجي ديك في ذلك الوقت، (حدوتة) الوادي السعيد (١٨٥٢م)، وحياة فرانكلين بيرس (١٨٥٢م)، وهي حملة دعاية رئاسية وسيرة ذاتية لصديق دراسته فرانكلين بيرس الذي أصبح الرئيس الرابع عشر للولايات المتحدة الأمريكية في المدة من ١٨٥٣ إلى ١٨٥٧م، وهي الفترة التي عمل فيها هوثورن قنصلاً للولايات المتحدة الأمريكية في ليفربول بإنجلترا، ثم كتب «إله الغابات الرخامي» (١٨٦٠م) وهي قصة الأمريكيين في أوربا، ظهرت أعماله الكاملة في اثني عشر مجلداً في عام١٨٨٣م، ونشرها جي لاثروب، كما ظهرت طبعة أخرى من أعماله الكاملة في ذكرى مرور مئة سنة علي وفاته في عام ١٩٦٢م، وتلتها طبعات أخرى إلى عام ١٩٨٠م، وهي في أربعة عشر مجلداً نشرها تشارفات وآخرون.

٢- تمتد هذه الحقبة الأدبية من ١٨٢٩م إلى عام ١٨٦٠م، وهي تضم هنري وورزورث لونجفيلو (١٨٠٧ - ١٨٨٢م)، وأوليفر وندل هولمز(١٨٠٩- ١٨٩٤م)، وجيمس رسل لويل (١٨١٩ -١٨٩١م)، ورالف والدو إميرسون(١٨٠٣ - ١٨٨٢م)، وهنري ديفيد ثورو (١٨١٧ - ١٨٦٢م)، وسيبا سميث (١٧٩٢- ١٨٦٨م)، وهيرمين ميلفيل (١٨١٩- ١٨٩١م)، وجون

مستعمرة - مهما يكن من أمر المشروع الذي كانوا يزمعون تنفيذه بادئ ذي بدء لدينا مثالاً للفضيلة البشرية وسعادتها - رأوا أن من الضروريات المهمة التي لا غنى عنها تخصيص موقع من الأرض البكر لمقبرة، وموقع آخر لسجن، وعلى هذا يمكننا القول في طمأنينة: إن آباء بوسطن الأوائل شيّدوا أول سجن في مكان ما حول كورنهيل، وعلى وجه التقريب في الوقت نفسه الذي رسموا فيه حدود المقبرة عندما دفنوا إسحق جونسون، وجعلوا قبره نواة للقبور الأخرى المحتشدة في ساحة الكنيسة القديمة المسماة قاعة الملك» (٢٦).

تواجه هيستير برن بطلة «الشارة القرمزية» حكم الإعدام على المقصلة لجريمتها، فقد زنت ونتج من ذلك طفلة ظلت تحملها معها في السجن. وحتى ينفذ فيها حكم الإعدام كان عليها أن تطرز بإبرتها على قطعة قماش قرمزي بحروف ذهبية الحرف الأول من الأبجدية الإنجليزية A الذي يرمز إلى الحرف الأول من كلمة زانية Adulteress، وحكم عليها أن تعلق تلك الشارة على صدرها حتى يعرف الجميع أنها تُعاقب لتلك الجريمة بعينها. وتظل هيستر برن تخفي اسم شريكها في فعلتها. ومن المفارقات التي لا بد أن هوثورن تعمد إدخالها، أن لجنة التحقيق مع هيستر برن ضمت القس ديمزديل Dimmesdale إلى جانب قساوسة آخرين، وهو شاب في مقتبل عمره تعلم في أكسفورد، وهو رمز للعالم المتبحر في اللاهوت المسيحي. ذلك هو شريكها في جرمها، إلا أن هيستر برن تظل تخفي اسمه، وتعلن حتى في آخر لقاء خاص معه أنها ستبقي على اسم شريكها سراً حتى تلقى ربها:

فقال صوت آخر من جمهرة الملتفين حول المنصة، ببرود وشدة:

تكلمي يا امرأة .. تكلمي وأعطي طفلتك أباً!

فشحب وجه هيستر حتى حاكى الموت، وقالت تجيب ذلك الصوت الذي تعرفه جيداً:

لن أتكلم! ولتبحث طفلتي عن أب في السماء! فهي لن تعرف لها أباً على هذه الأرض!

وكان السيد ديمزديل قد مال على الشرفة يضغط قلبه بيده في انتظار الاستجابة لندائه، فغمغم:

إنها لن تتكلم!

وتراجع يزفر زفرة طويلة:

- ياللقوة الرائعة! ويالكرم قلب المرأة! إنها لن تتحدث! (٢٧).

ومع اقتراب حكم الإعدام يعترف ديمزديل للطبيب تشالنجر الذي شاركه السكن نفسه بأنه هو والد الطفلة بيرل التي أمها هيستر برن. ومع ذلك يبقى الأمر سراً حتى يصاب ديمزديل بالجنون، ويصعد إلى المقصلة، ويرتسم على لحم صدره باللون الأحمر الحرف A، الذي يرمز فيما يرمز - مرة أخرى - إلى الحرف الأول من كلمة زان Adulter.

إن هذه المواجهة مع تسلط الكنيسة وفسادها في آن واحد، واعتقادها الجازم بعفة جميع أعضائها وطهارتهم، أتت في مرحلة كانت الأمة الأمريكية تتقلب فيها يمنة ويسرة، كانت العلاقة بين الضمير والشعور بالذنب كما يقول توني تانر «تمثل معضلة فنية كبرى استطاع هوثورن أن يفلت منها في رائعته الشارة القرمزية» (٢٨).

من كل ما تقدم نخلص إلى القول: إن هوثورن لم يبتعد كثيراً في الشارة القرمزية عن معتقده الذي تكوّن بفعل عوامل عدة منها تجربته الشخصية جمرك سيلم، وتجربة جده في محاكمة ساحرات تلك المدينة ذات التاريخ المهم في الولايات المتحدة الأمريكية. وأيضاً، فإن هوثورن لم يفارق التاريخ في كتاباته لتلك الرواية التي تعدّ الأولى في أدب الولايات المتحدة. ويبقى أن نقول: إن التاريخ والتجربة الشخصية اللذين كونا معتقد هوثورن امتزجا بشكل متميز لينهل منها في إبداعه لهذه القصة الرائعة.

بندلتون كينيدي (١٧٩٥- ١٨٧٠م)، ووليام جيلمور سيمز (١٨٠٦ - ١٨٧٠م)، وستيفن كولينز فوستر (١٨٢٦ - ١٨٦٤م).

walter Blair, et. al, the literature of the United States.

(Chicago: Scolt, foresman and co, one volune edition .1964), pp 348 -619)

3- George Mc Michael, et. al, Concise Anthology of American literature (New-York:Macmillan Publishing company,1985, p. 525).

٤ - البيوريتانيون أو التطهيريون هم أعضاء جماعة بروتستانتية في إنجلترا، ونيو إنجلند بأمريكا ظهرت في القرنين السادس عشر، والسابع عشر، طالبت بتبسيط طقوس العبادة، وبالتمسك الشديد بأهداب الفضيلة، وكانوا في بداية الأمر من أصحاب الفضل في بناء الأمة الأمريكية، إلا أنه مع نهاية القرن السابع عشر تغيرت صورتهم في نظر الكثير من الأمريكيين.

5 - Nathaniel Hawthorne, the Scarlet letter . ed Harry Levin (Boston: Honghton Mifflin company,1960)pp. xIII-Ix.

٦- ناثنيال هوثورن الشارة القرمزية ترجمة جاذبية صدقي، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م، ص٢٤ - ٢٥

7 - OP Cit. Harry Levin , p.x.

٨ - السابق جاذبية صدقي

9 - OP Cit. George Mc Michael p 526

10 - Walter Blair et. al the literature of the United States. p 351.

11 - Ibid p. 350.

12- George Perkins, et. al eds the American Tradition in literature (New YorkRandom House,volume I. 1985. p 1272.

13- Op Cit Walter Blair p 350.

14- op Cit George Perkins p 1272.

15- Op Cit Walter blair p350

16- Op Cit .Harry Levin, p.12.

17- Op Cit Mc Michael p. 526.

18- Op cit, Harry Levin , p ix'

١٩ - كتب هوثورن على غلاف هذه القصة ما يلي:

The Scarlet Letter, A Romance by Nathaniel Hawthorne، والرومانس قصة تتسم بالمغامرات الغريبة ذات الوصف الفضفاض أكثر منها قصة وصف واقعي دقيق للأشخاص والمناظر، وهي غالباً في القصة كجنس أدبي:

Karl Beckson and Arthur Kanz Literary Terms :A Dictionary (New York: Farrar, strauss and Giroux 1983)p214.

٢٠- يقول هوثورن إن أحداث قصته قد وقعت عام ١٦٤٢م، وذلك على مايبدو لتجنّب أي نقد قد يصدر من معاصريه من رجال الكنيسة.

٢١ - الشارة القرمزية، ترجمة جاذبية صدقي، ص٥٣ - ٥٤.

٢٢ - د. بشير العيسوي الترجمة إلى العربية: قضايا وآراء (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٦م) ص٢٠.

23 - Cleanth Brooks, et. al An Approach to literature (New York :Meredik corporation, fourth edn,1967) p9.

24- Op cit , Harry Levin, p.xx.

25- Ibid. , p. xx.

٢٦ - السابق جاذبية صدقي، ص٧١.

٢٧ - السابق ص٩٧.

28 - Tony Tanner , the Reign of Wonder: Naivety and Reality in American Literature (London Cambridge University Press ,1977) p359.

مئتا عام على ولادة شاعر روسيا الأول


ألكسندر بوشكين

هاشم حمادي

يجمع النقاد على أن بوشكين كان رائد الواقعية الروسية التي ظهرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أن مدرسة الواقعية هذه خَرَّجت، فيما بعد، كوكبة من العمالقة، من أمثال جوجول وتورغينيف وتشيخوف وديستوفسكي وتولستوي، فقد ظل اسم بوشكين الألمع، والأبرز. وربما يكمن سر إضفاء هذه الهالة على بوشكين ومؤلفاته في تلك الأصالة التي تجسدت في أسلوبه ولغته، ونمط تفكيره، وطريقة تصويره للطبيعة الروسية والشخصيات والمجتمع.

ترك بوشكين، على الرغم من قصر حياته، (١٧٩٩م - ١٨٣٦م) كَمّاً هائلاً من المؤلفات الأدبية في ميدان الشعر والنثر، وفي شتى الأجناس الأدبية، ولا تزال أعماله تحظى باهتمام كبير في قاعات المطالعة، وعلى الشاشتين الكبيرة والصغيرة، وعلى خشبة المسرح، ليس في روسيا وحدها، بل في عدد من بلدان العالم.

ولد ألكسندر سيرغيفتش بوشكين في أسرة نبيلة المحتد، جار عليها الزمان، كان والده ضابطاً متقاعداً، أما والدته فكانت حفيدة إبراهيم هانيبال، المتحدر من أصل إفريقي (شمال إثيوبيا)، ومن هنا كانت بشَرَةُ بوشكين السمراء، وشعره الأسود الفاحم، ودمه الحار.

تلقى بوشكين - على غرار أقرانه من أبناء الأسر النبيلة - تربية فرنسية بحتة، من حيث قراءة الكتب الفرنسية، والحديث باللغة الفرنسية فقط، والاعتماد على المربين الأوربيين حصراً. وتكمن المفارقة في أن بوشكين، الذي كان في طفولته محروماً حتى من الحديث باللغة الروسية، ولا يفقه فيها شيئًا، قد أصبح، فيما بعد، الأب الروحي لهذه اللغة، والمرجع الرئيس فيها.

الخطوات الأولى

في مطلع القرن التاسع عشر افتتحت في ضواحي بطرسبورغ «ليسيه القرية القيصرية» لإعداد رجالات الدولة، وإلى هذه المدرسة - الجامعة - انتسب بوشكين، وهو في الثانية عشرة من عمره، أي عشية غزو نابليون لروسيا.

وهنا في الليسيه بدأ الشاعر خطواته الأولى على طريق الإبداع الوعر والشائك، والمفروش، في الوقت نفسه، بالورود والرياحين.

ومنذ البداية كان موضوع الوطن والحرية الشغل الشاغل للشاعر، وهاجسه الأول. ففي قصائده الوجدانية «الليسيه» يمجد الشاعر الانتصارات الوطنية، ويتغنى بالحرية، ويندد بالنظام

العبودي الاستبدادي، حيث يقول في إحدى قصائده:

بالحريةِ روما عُمِّرتْ
وبالعبودية دُمِّرتْ

كان بوشكين على ارتباط وثيق بالتقدميين، دعاة الإصلاح، حتى إنه كان يشارك في اجتماعات «حلقة الرخاء»، ويناقش في المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وينظم القصائد الوطنية، ومن أشهرها في هذه الفترة المبكرة: «الحرية» (١٨١٧م)، «إلى تشادايف» (١٨١٨م) و«القرية» (١٨١٩م)، وفي هذه القصائد دعوة إلى سيادة القانون والدستور، وإلى الإطاحة بالنظام الاستبدادي:

وعلى أطلال الحكم الفردي
سيكتبون أسماءنا..

في المنفى

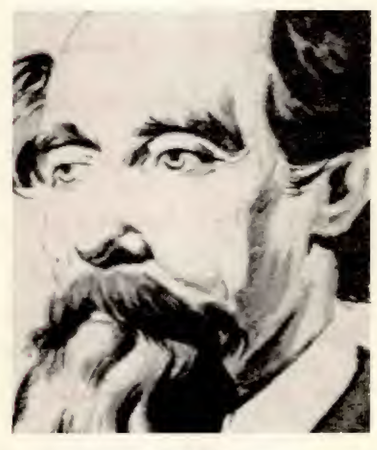
كانت «مكافأة» الشاعر القيصرية على هذه القصائد الحكم عليه بالنفي إلى سيبيريا، لكن توسط بعض الأدباء، أمثال جوكوفسكي وكارامزين، جعل القيصر يستبدل القوقاس بسيبيريا.

وهكذا وجد الشاعر الشاب نفسه مجبراً على شد الرحال نحو الجنوب. وكان ذلك في بداية صيف ١٨٢٠م.

وهنا في الجنوب الروسي، تعرف بوشكين نمطاً جديداً من الناس والعلاقات، ومن هذه الحياة الجديدة استقى مواضيع عدد من القصائد العاطفية: «أسير القوقاس» (١٨٢١م)، «نافورة بهج السراي»، و«الغجر» (١٨٢٤م)، وفيها يحاول تقصي الأسباب الكامنة وراء خيبة الأمل، التي مني بها الشباب الروسي المثقف.

غريب في عقر داره

بعد عودته من منفاه استمرت قيثارة الشاعر في العزف، لا بل إنها ازدادت قوة وزخماً، خصوصاً في أعقاب انتفاضة الديسمبريين (١٨٢٥م) والتنكيل الذي لحق بأبطالها، ومنهم عدد من أصدقائه، فكانت قصائده المعروفة «في عمق المناجم السيبيرية»، و«أريون» و«شجرة الأوباس». وقد جرت عليه قصائده هذه غضب السلطات من جديد، وبدأت ضده حملة من التلفيق والتجريح، مما سمم حياته، وحولها إلى جحيم لا يطاق. ومما زاد الطين بلة أن ألسنة هذا الجحيم امتدت إلى داخل بيته. وطالت ألسنة السوء سمعة زوجته. إنها مؤامرة حيكت خيوطها بإتقان، وانتهت، كما كان مخططاً لها باغتيال الشاعر في مبارزة مع الفرنسي دانتس، كان ذلك في بداية ١٨٣٧م، والشاعر في سن السابعة والثلاثين، لكنه ترك موروثاً كبيراً، يضم عدداً من النفائس الشعرية والنثرية والقصصية والروائية الملحمية



ديستوفسكي

والمسرحية..نذكر منها:

الملاحم: «الغجر»، و«أسير القوقاس»، و«بولتافا»، و«نافورة بهج السراي».

النثر: «قصص بيليكن»، و«ابنة الآمر».

المسرحيات الشعرية: «الضيف الحجري»، و«الفارس البخيل»، و«حورية البحر»، و«بوريس غودونوف»

الرواية: كتب بوشكين روايته الشعرية الوحيدة، وهي بعنوان «يفغيني أونيفن» وبسبب أهميتها سنكتفي بالحديث عنها.

يفغيني أونيفن

بدأ الشاعر كتابة هذه الرواية الشعرية عام ١٨٢٣م، وهو في منفاه الجنوبي، ولم ينته منها حتى خريف ١٨٣٠م، وقد استمر في تعديلها حتى نهاية حياته، حيث كان ينوي أن يضيف إليها فصلين آخرين، لتخرج في عشرة فصول.

تدور أحداث الرواية في روسيا، في الفترة ما بين ١٨١٩م و ١٨٢٥م، وهي فترة غنية بالأحداث والمتغيرات السياسية والاجتماعية في تاريخ روسيا، وقد حاول الشاعر أن يرسم فيها صورة معاصره، المتحدر من المجتمع المخملي، وخلافاً



جوجول

للقصائد الجنوبية ذات الطابع الرومانسي، فقد اعتمد الشاعر هنا الأسلوب الموضوعي الواقعي، فالأبطال واقعيون، لكل منهم سيرة حياته، ونفسيته، وعاداته ومفهومه للحياة. والظروف المحيطة بهم هي ظروف الواقع القائم.

موضوع الرواية بسيط جداً، والأبطال المحوريون معدودون (أونيفن وتاتيانا، ثم لينسكي وأولغا)، وكل زوج نقيض للآخر، من حيث تكوينه، ومن حيث موقفه من الحب. لكن بساطة

الموضوع ظاهرية فقط، فموضوع الرواية معقد جداً، وهذا ما يتجلى في حياة كل زوج، حيث يمر كل من الأبطال عبر امتحان الحياة القاسي، فيتغير مصيره بشكل جذري. فتاتيانا تقع في حب أونيفن مذ أن رأته أول مرة، لكنه، وهو العاجز عن الحب الحقيقي، لا يبادلها هذا الحب. فتتزوج وتدخل المجتمع المخملي، وأولفا تكن الحب للينسكي، لكنها لا تلبث أن تسلوه، وتتزوج من آخر، بعد موته.

وما إن يلتقي أونيفن تاتيانا من جديد، حتى يقع في حبها، بيد أنها، وعلى الرغم من حبها الكبير له، تصده، وترفض حبه، فهي الآن متزوجة، ولا تريد الإساءة إلى زوجها.

قلنا: إن أبطال الرواية أربعة.



إلكسي تولستوي

والحقيقة أنهم اثنان: أونيفن وتاتيانا. فمن هما بطلانا؟ دعونا نتعرف إليهما عن قرب أكثر.

فأونيفن شاب نبيل، مثقف، يتحلى بالذكاء الذي تجلى في إدراكه المبكر عبثية المجتمع المخملي، وإحساسه بالغربة بين ظهرانيه. إنّ لدى أونيفن الكثير من البراعم الخيرة، التي لا تستطيع التفتح في جو الظروف الاجتماعية والسياسية الضاغطة، فلا غرابة أن يجد نفسه - أبداً - نهبًا للسأم والملل، ومن ثم مستسلمًا للخمول والكسل.

والواقع أن ما يشعر به أونيفن من خيبة أمل، ومن شك، هو انعكاس للوباء الذي بدأ يتفشى بين صفوف الإنتيليجينسيا الروسية، ومن ثم فإن بوشكين لايدين بطله، بقدر ما يدين البيئة الاجتماعية التي رسمته على هذه الصورة المشوهة، التي غيرت معالم شخصيته ووجهتها الوجهة المخطئة.

إن «الأونيغنات» أناس فاشلون بعيدون عن الإبداع، ليس لديهم ما يعطونه، وهم عاجزون عن النضال، وحتى عن الصداقة والحب. أو لم يتجاهل أونيفن حب تاتيانا له؟! أو لم ينصرف عن هذا الحب الطاهر والنزيه، ويستسلم لأهوائه ونزواته؟ ثم ألم يتخلَّ عن أقرب أصدقائه - لينسكي - ولا يتورع عن قتله

كان بوشكين في طفولته محرومًا حتى من الحديث باللغة الروسية، ولا يفقه فيها شيئًا، فأصبح الأب الروحي لهذه اللغة، والمرجع الرئيس فيها

في المبارزة، فقط لكي لا يتهم بالجبن؟!.

وتأتي الصحوة بعد مقتل الصديق، ولقاء تاتيانا. لكن بعد أن سبق السيف العذل، فتاتيانا امرأة متزوجة، وهي متمسكة بأهداب الأخلاق والفضيلة، ولا يمكن أن تضحي بمبادئها وسعادة أسرتها.

إن صحوة أونيفن لا تغير في الجوهر شيئًا، صحيح أنها تدل على بذور الخير لدى أونيفن، لكنها بذور نبتت في تربة غير صالحة، فجاء أونيفن واحداً، ممن عرف في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، باسم «الناس الزائدين».

وبقدر بعد أونيفن عن الشعب واغترابه في مجتمعه، نجد تاتيانا في غاية القرب من هذا الشعب، بل على تماسٍ مباشر معه، تشاطره أفراحه وأتراحه، وتشاركه أفكاره وهمومه. ولا غرابة في ذلك. فشخصية تاتيانا نمت، وصقلت في أحضان الثقافة الشعبية الأصيلة، التي تجسد المثل العليا والقيم العريقة، ونهلت من معينها الذي لا ينضب، وعلى الرغم من نشوئهما في أسرة واحدة، وتحت سقف واحد، فإن تاتيانا تختلف عن شقيقتها أولفا، وكانت - كما يقول بوشكين - «تبدو في أسرتها فتاة غريبة»، غريبة عن عادات المجتمع المخملي وتقاليده، وفي منتهى القرب من الناس العاديين، ولقد جاء رسم الشاعر لبطلته في غاية الكمال الروحي، فالفكر والشعور والعقل، والسلوك شيء واحد بالنسبة إليها. وكلٌّ متكامل.

وفي كل مكان يؤكد بوشكين طهارة تاتيانا، وأخلاقها الرفيعة، وعقلها الراجح، وبساطتها المدهشة. وبُعدها عن مظاهر التصنع والتزلف، وهي، حين أحبت أونيفن، صارحته بهذا الحب، ضاربة عرض الحائط بالأعراف والتقاليد البالية، غير أنها لم تتوان عن رفض حبه، حين جاءها، وهي المرأة المتزوجة:

لكنني على ذمة آخر
وسأبقى له وفيةً مدى العمر

أخيراً، فإن رواية «يفغيني أونيفن» وُصفت بأنها «دائرة معارف الحياة الروسية»، كما يقول الناقد بيلينسكي. ونتجاوز هذه المقولة إلى أخرى - كان إبداع بوشكين «دائرة معارف الحياة الروسية»؛ لأنه يعطي صورة شاملة للنزاعات الأساسية، المميزة في حياة المجتمع الروسي، بداية القرن التاسع عشر، ولأنه يرسم لوحة مجسمة شاملة (بانورامية) لهذه الحياة، بكل جوانبها، وأبعادها.

جهاز المناعة لدى الإنسان مكوّناته وأسراره

حذيفة أحمد محمد

من منا يستطيع أن يتخيل مصرفًا من المصارف من دون حراسة أمنية مشددة تقوم بحمايته والذود عنه لو حاول اللصوص سرقة محتوياته النفيسة؟ وبالطبع فإن هذه القوة المنوط بها القيام بهذه الحماية لابد أن تكون على درجة كافية من القوة والتدريب، بحيث تتمكن من أداء مهمتها على الوجه الأكمل؛ وعلى النقيض من ذلك لو حدث أي خلل في هذا الجانب أو أن مدير المصرف اختار عناصر ضعيفة لهذه المهمة فإن مصير هذا المصرف بالتأكيد هو السرقة. ولو أردنا ربط المثال السابق بشيء من الواقع يحدث داخل أجسامنا من دون وعي منا أو شعور فإنه بإمكاننا تشبيه جسم الإنسان بالمصرف الذي يجب حمايته والدفاع عنه، وكذلك فإن الكائنات الحية الدقيقة التي قد تعترض الجسم تشبه لصوص (البنك)، أما الجهاز المناعي فهو بمنزلة حارس المصرف الأمين الذي يدافع عنه ببسالة وشجاعة. ويمكن لنا أن نعرف جهاز المناعة بشكل بسيط بأنه: الجهاز المسؤول عن حماية الجسم مما قد يغزوه من كائنات حية دقيقة قد تكون سببًا في إصابته بمرض ما.

وجسمنا، كما هو معروف، معرض في أي لحظة إلى دخول الكائنات الحية المجهرية التي سوف تعيث في الجسم فسادًا، وتسبب له الكثير من الأمراض، فالهواء الذي يتنفسه الإنسان من دون شعور منه مملوء بملايين الكائنات الحية الممرضة، والغذاء الذي نتناوله كذلك مهما حرصنا أن يكون نظيفًا فإنه يبقى فيه الكثير من الجراثيم التي استعصى التخلص منها.

ومن أجل ذلك كله خلق الله عز وجل لنا جهاز المناعة ليتمكن الإنسان من مواصلة رحلة حياته من دون أن يكون هناك عوائق أو مؤخرات.

وقبل أن ندخل في أسرار هذا الموضوع الكبير يستحسن إعطاء فكرة سريعة عن خط الدفاع الأول للجسم ضد الكائنات الحية الدقيقة، ونقصد بخط الدفاع الأول: مقاومة الجسم الكائن الحي الغريب قبل وصوله إلى الخلايا المناعية المتخصصة التي تعرف بخط الدفاع الثاني.

الجلد من خطوط الدفاع الأولى في الجسم

ومن أهم خطوط الدفاع الأولى للجسم: الجلد الذي يعدّ حاجزًا مهمًا يعيق دخول الأجسام الغريبة إلى داخل الجسم، ولهذا لو أصيبت قطعة جلدية بجرح ما فإن الفتحة التي فتحت بسبب هذا الجرح عبر الجلد ستكون معبرًا لملايين الأحياء الدقيقة التي سوف تغزو المنطقة.

وكذلك، فإن الدموع تحوي مادة تعرف باسم ليزوزيم Lysoyme تقوم بتكسير جدار خلية البكتريا ومن ثم تؤثر سلبًا في حياتها ونشاطها داخل الجسم، وبذلك تحد الدموع من نشاط الكثير من الأحياء الدقيقة التي قد تدخل إلى العين.

أما الجهاز التنفسي فيحوي أهداباً (وهي خيوط قصيرة على شكل شعر) تقوم بتحريك المخاط الحاوي على الكائنات الحية الدقيقة التي تم احتجازها، ومن ثم يتم طرح هذا المخاط إلى خارج الجسم، وبذلك يتخلص الجسم من هذه الكائنات المضرة.

وأخيراً فإن المعدة تنتج حمضاً يعرف بحمض الهيدروكلوريك HCL - ACID يقوم بدور كبير في القضاء على الكائن الحي الغريب الذي غزا الجسم.

أما خط الدفاع الثاني للجسم فهو غاية في الدقة. ﴿هذا خَلْقُ الله فأروني ماذا خلقَ الذينَ من دُونه﴾ لقمان: ١١، ويقصد به مجموع العمليات التي تتم بعد أن يتمكن الكائن الحي الدقيق من عبور خط الدفاع الأول من دون خسائر، وهنا يأتي دور خط الدفاع الثاني الذي سوف يدافع عن الجسم حتى الرمق الأخير، وعندما تنفد طاقته، ويكون الجسم الحي الدقيق الغازي من القوة بمكان، فإن الجهاز المناعي سوف يعلن استسلامه بعد أن بذل كل ما في وسعه لإنقاذ الجسم، وعندها سوف يقع الجسم على فراش المرض.

ولإعطاء فكرة أوضح عن خط الدفاع الثاني للجسم يمكننا تقسيم مناعة الجسم إلى: مناعة خلوية Cellular Immunity ومناعة خلطية Humoral Immunity، ولكل نوع من هذين النوعين خلاياه الخاصة، ومميزاته الخاصة، وأسلوب دفاعه الخاص.

تبدأ الخلايا المناعية عملها في جسم الإنسان في وقت مبكر، وبالتحديد في أثناء حياته جنيناً، حيث يقوم كبد الجنين بإنشاء هذه الخلايا، والهدف من ذلك كله إعطاء المناعة لجسم الجنين في أثناء حياته الجنينية، ومع نمو الجسم وتطوره، فإن نخاع العظم Bone Marrow يبدأ بتكوين هذه الخلايا بعد الولادة مباشرة، وتستمر هذه العملية حتى آخر العمر.



نقل النسيج بين توأمين لا تعترضه مشكلات

ومن المهم الإشارة إلى أن الطفل الرضيع عند تناوله لحليب أمه تزداد مقاومته للأمراض ومناعة جسمه، والسبب في ذلك أن الحليب الطبيعي يحوي فيما يحويه أجساماً مضادة بالإضافة إلى خلايا مناعية تكسب جسم الطفل مناعة إضافية.

المناعة الخلوية

عندما يتعرض الجسم إلى غزو من قبل كائن حي غريب، فإن أول خطوة تحدث من خطوات الدفاع هي: أن يحاط هذا الكائن بخلايا في الجسم تعرف بالخلايا البالعة Macro-phage التي تقوم بتجزئة هذا الكائن الغريب وابتلاعه، وبعد أن تتم عملية التجزئة تحدث سلسلة من التفاعلات المعقدة تؤدي في نهاية الأمر إلى تنشيط تكاثر الخلايا المناعية التي تصل بدورها إلى مسرح العمليات لتقوم بدور كبير في القضاء على هذا الجسم الغريب بعد أن سهلت عليها الخلايا البالعة عملها وذلك بتجزئته، وهذه الخلايا المناعية لها أثر سام في هذه الأحياء الغريبة.

وإذا تخيلنا أن الخلايا البالعة لم تقم بمهمتها في تجزئة الكائن الغريب، فإن الخلايا المناعية سوف تواجه صعوبة كبيرة في القيام بمهمتها، وذلك لأنها سوف تواجه جسماً ضخماً من الصعب القضاء عليه، فسبحان الله الذي أحكم كل شيء خلقه.

وتعرف الخلايا المناعية المسؤولة عن هذا النوع من المناعة بالخلايا التائية T - CELLS، وهذه الخلايا كما أشرنا سابقًا ذات أصل من نخاع العظم، وتجول مع الخلايا الدموية حتى تصل إلى الغدة الزعترية THYMUS، وتتطور داخلها حتى تصبح في نهاية الأمر خلية مناعية متخصصة.

وتوجد هذه الخلايا في العقد اللمفية Lymph Nodes، وتتميز بأن لها عمراً طويلاً قد يمتد إلى سنوات، وتشكل هذه الخلايا نسبة كبيرة من مجموع خلايا المناعة (أكثر من ٧٠٪)

الخلايا البالعة

هي خلايا كبيرة الحجم تدور مع الدوران الدموي، وتتميز بمقدرتها الفائقة على الإحاطة بما قد يتعرض له الجسم من كائنات حية دقيقة وأجسام غريبة عنه.

وتنشأ هذه الخلايا من نخاع العظم كخلايا تعرف بالخلايا النسيجية Histiocyte التي تتطور فيما بعد إلى خلايا بالعة، ولوحظ أنه عندما تغزو الكائنات الحية الدقيقة الجسم تبدأ بإفراز السموم المخربة، وهذه السموم تعمل

كمغناطيس يجذب الخلايا البالعة نحو المنطقة المغزوة، لتبدأ بعد ذلك المعركة بين الخلايا البالعة والكائن الغريب.

وتقوم الخلايا البالعة بابتلاع أي جسم غريب يدخل الجسم، ثم تقسمه أجزاء صغيرة تظهر على سطح الخلية البالعة، وتتفاعل هذه الأجزاء فيما بعد مع الخلايا التائية التي تكمل مهمتها المناعية.

كما أن الخلايا البالعة تنتج مواد تعرف باسم (السيتوكينات) Cytokines لها دور كبير في تنشيط الخلايا التائية وتحفيزها.

أنواع الخلايا التائية

عند مرور الخلايا التائية عبر الغدة الزعترية تتعرض لتأثير هرمونات هذه الغدة مما يؤدي إلى نشوء عدة أنواع من هذه الخلايا، ويمكن التمييز بين هذه الأنواع عن طريق شكل أسطحها، ومن هذه الأنواع: خلايا T3 و T4 و T8.

تقوم الخلية T3 بنقل معلومات حول الكائن الغريب الذي غزا الجسم، لتقوم بإيصالها فيما بعد إلى باقي خلايا الجهاز المناعي لكي تتأهب وتواصل عملية الدفاع عن الجسم.

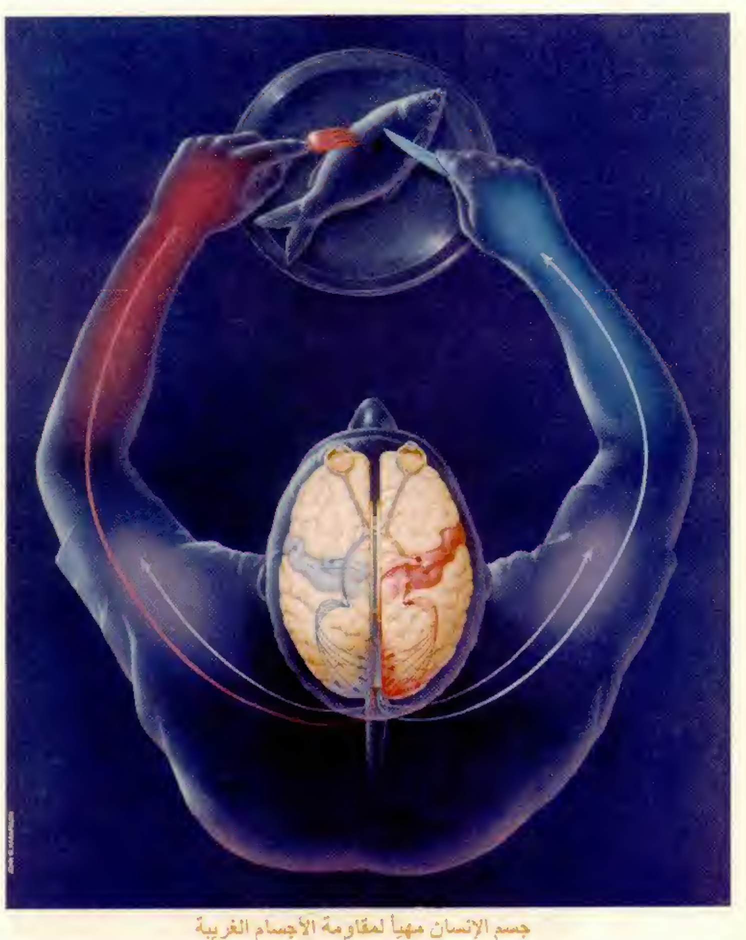
أما الخلية المساعدة فقد سميت بهذا الاسم؛ لأنها تقوم بمساعدة جهاز المناعة بشكل عام؛ إذ إنها تساعد باقي الخلايا المناعية على النمو والنضج، وتعدّ هذه الخلية بمنزلة رئيس الخلايا الذي ينظم عمل باقي أفراد المجموعة.

أما خلية T8 فإن لها دوراً في كبح جماح نشاط الكائنات الحية الدقيقة، ولها تأثير سام فيها يحد من نشاطها ضد غزو الجسم وإلحاق الضرر به.

ومما يذكر في هذا المجال أن الفيروس المسبب لمرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) AIDS يصيب الخلايا التائية، وبشكل أخص الخلية المساعدة، مما يؤدي إلى قتلها، وخسارة الجسم للمناعة الخلوية، وإصابة الجسم بأمراض مختلفة نتيجة لانخفاض مناعته.

المناعة الخلطية

عندما يتعرض الجسم لغزو كائن حي دقيق للمرة الأولى، فإن الجسم سوف يكوّن له ما يعرف بالجسم المضاد Antibody، وهو خلايا صغيرة توجّه أسلحتها باتجاه هذا الغازي الغريب، وتعرف استجابة الجسم هذه وتكوينه لهذا الجسم المضاد بالاستجابة الأولية.



جسم الإنسان مهيأ لمقاومة الأجسام الغريبة

وترتفع نسبة هذه الأجسام المضادة في المصل خلال أيام؛ وذلك حسب كمية الأجسام الغريبة التي اعترضت الجسم، وبعد أن يتماثل الجسم للشفاء تبدأ هذه النسبة بالانخفاض التدريجي.

ولو اتّفق أن تعرض الجسم للإصابة بهذا الكائن الدقيق نفسه مرة أخرى بعد أشهر أو سنوات من الإصابة القديمة، فإن استجابة الجسم سوف تكون أسرع هذه المرة، وسوف يحدث تكاثر للأجسام المضادة في المنطقة المصابة، وذلك بكميات أكبر من سابقتها، ويعزى ذلك إلى أنه عندما تعرض الجسم في المرة الأولى لهذه الإصابة، احتفظ بخلايا ذاكرة حفظت (شفرة) الكائن الدقيق وشكله عن ظهر قلب، وبذلك كانت مستعدة للتعرف إليه ومحاربته لو تعرض للجسم مرة أخرى، وهذا ما يعرف بالاستجابة الثانوية.

أما خلايا هذا النوع من أنواع المناعة فيعرف بالخلايا البائية B - CELLS، ولها منشأ الخلايا التائية نفسه أي من نخاع العظم، ولكنها لا تتطور إلى هذا الشكل خلال الغدة الزعترية (كسابقتها) بل تتطور في مكان آخر في الجسم يعتقد أنه ضمن الأنسجة اللمفية للأمعاء.

وتوجد الخلايا البائية في العقد اللمفية وفي الطحال وفي بعض أنسجة الأمعاء، ولكن حياتها قصيرة، وينتج الجسم منها ألف مليون خلية يومياً، ولكن هذا العدد الضخم لا يمثل سوى ٣٠٪ من مجموع الخلايا المناعية.

وعندما يتفاعل الكائن الحي الدقيق مع الجسم المضاد، وتحدث الاستجابة المناعية الثانوية، فإن الكثير من الخلايا البائية سوف

تتكاثر وتنمو، وبعضها يتطور إلى شكل آخر يعرف باسم الخلية المصورية (البلازمية) PLASMA التي تنتج كميات كبيرة أخرى من الأجسام المضادة التي تواصل هجومها على الجسم الحي الغريب.

الأجسام المضادة

هي بروتينات مناعية متخصصة، تتفاعل بقوة مع أي كائن غريب يغزو الجسم، وتشكل نحو ٢٠٪ من بروتينات البلازما الدموية.

وكان من أهم الإنجازات العلمية في هذا القرن: تصنيع خلية في المعمل لها المقدرة على إنتاج كميات كبيرة من الأجسام المضادة، وهذه العملية أدت إلى تقدم كبير في مجال اختبارات تشخيص الأمراض والبحوث العلمية.

وبناء على الوزن الجزيئي للأجسام المضادة فقد تم تقسيمها إلى: أجسام مضادة ثقيلة قد يصل وزنها إلى ٥٠٠٠٠ وزن جزيئي، وأجسام مضادة خفيفة يقارب وزنها ٢٥٠٠٠ وزن جزيئي.

ويتركب الجسم المضاد من أربع سلاسل بروتينية يربط فيما بينها عنصر الكبريت. وهناك نوع من هذه الأجسام المضادة يمكنه أن يتجه من دم الأم عبر المشيمة متجهاً إلى دم الجنين وذلك بغية تزويده بالمناعة بدءاً من حياته المبكرة.

المتممة Complement وتآزرها مع جهاز المناعة

المتممة هي مجموعة مناعية تتكون من عشرين بروتيناً تقريباً، توجد في مصل الإنسان، ويتم تركيبها في الكبد، وقد سميت بذلك؛ لأنها تقوم بإتمام المكونات الأخرى للجهاز المناعي وتقويتها.

وتمتلك المتممة ثلاثة آثار تعزز بوساطتها عملية الدفاع عن الجسم وهي:

١- تحليل الخلايا الغريبة التي قد تهاجم الجسم كالبكتريا والفيروسات.

٢- توليد مواد وسيطة تساهم في جذب الخلايا البالعة إلى المنطقة المصابة مما يساعد على الحد من انتشار زحف الأجسام الغريبة نحو جهات أخرى من الجسم.

٣- تعزيز عملية ابتلاع الجسم الغريب والمساعدة في تجزئته بوساطة الخلايا البالعة.

وسائل كثيرة تتبع لإنجاح عملية زراعة الأعضاء

وقد لاحظ علماء الوراثة أن النقص الوراثي في بعض مكونات المتممة يعزز بدرجة كبيرة تأهب الجسم للإصابة بأنواع معينة من البكتريا مثل بكتريا النيسيريا Neisseria.

زراعة الأعضاء والجهاز المناعي

يقصد بعملية زراعة الأعضاء: نقل عضو سليم أو مجموعة من الأنسجة من شخص متبرع Donor إلى آخر مستقبل Recipient.

وقد كان الجهاز المناعي، ولا يزال، أكبر عائق أمام نجاح عمليات زراعة الأعضاء، والسبب في ذلك أن هذا الجهاز في الأحوال الطبيعية يرفض دخول أي جسم غريب عنه إلى جسم الإنسان، ولهذا فإن هذا العضو المراد زراعته يعامل معاملة الجسم الغريب، ويتم رفضه مناعياً.

وقد لوحظ أن الجسم يتقبل نقل نسيج الشخص نفسه من دون حدوث أي مشكلات مناعية، ومثال ذلك عمليات التجميل التي يتم فيها إزالة قطعة من الجلد من مكان ما وزراعتها في مكان آخر في جسم الشخص نفسه حتى يتم تغطية المكان المراد تجميله.

ومن الطريف أن نذكر أن نقل النسيج بين شخصين متطابقين وراثياً أي توأمين متطابقين يتم قبوله عادة من دون أي مشكلات مناعية، وقد فسرت هذه الظاهرة الغريبة بأن أعضاء التوائم متشابهة تماماً من حيث (الشفرة) ولهذا لا يرفضها الجسم المستقبل.

وقد درس العلماء هذه الظاهرة (رفض الجهاز المناعي لعملية زراعة الأعضاء)، وعزوا تفسيرها إلى وجود الخلايا التائية بالإضافة إلى الأجسام المضادة، وقد لوحظ أن الحيوانات التي ينقصها وجود الأجسام المضادة في أمصالها تصبح عملية زراعة الأعضاء لديها مقبولة من قبل أجسامها ولا يتم رفضها.

وقد لجأ العلماء إلى عدة طرائق لمحاولة إنجاح عمليات زراعة الأعضاء التي غدت من العمليات العصرية المهمة التي أنقذت حياة الكثيرين ممن أصيبت أعضاؤهم بالفشل، وكان من أشهر هذه الطرائق: إعطاء أدوية مثبطة للمناعة، حيث تؤدي هذه الأدوية إلى عدم تنشيط الخلايا التائية، ومن ثم الحد من نشاطها، وعدم القيام بدورها المناعي برفض ما يدخل الجسم من أعضاء مزروعة، وبذلك تنجح العملية.

ومن أشهر الأدوية المستخدمة في هذا المجال: السيكلوسبورين - أ، الستيرويدات، الأزاثيوبرين.

ولسوء الحظ، فإن هذه الأدوية الخافضة للمناعة لها أثر سلبي في الجسم، إذ إنها تزيد

من احتمال تعرضه للإصابة بالكائنات الحية الدقيقة المرضة، وكذلك فإنها تؤهب للإصابة بالسرطان، وكل ذلك ناتج من انخفاض مناعة الجسم، ولذلك يجب أن يبقى المريض الذي أجريت له عملية زراعة العضو في المستشفى بعد العملية فترة طويلة بحيث يكون الحرص شديداً على حماية هذا المريض من الإصابة بأي التهاب ناتج من دخول أي كائن حي دقيق إلى الجسم.

نقص المناعة Immunodeficiency

من الممكن أحياناً أن يصيب الجهاز المناعي خلل يؤدي إلى إضعافه وعدم القيام بمهمته على الوجه الأكمل، ونتيجة لهذا الضعف يزيد احتمال تعرض الجسم للأمراض، وهذا الخلل الذي يصيب جهاز المناعة قد يصيب أيّاً من مكوناته الأربعة الرئيسة وهي: الخلايا البائية (المسؤولة عن المناعة الخلطية)، والخلايا التائية (المسؤولة عن المناعة الخلوية)، والمتممة، والخلايا البالعة.

وهذا الخلل في هذه المكونات قد يكون ولادياً، أي إن المريض يكون قد خلق بعاهة وراثية تضعف جهازه المناعي، أو أن يكون مكتسباً، أي إن المريض يكتسب هذا المرض لاحقاً في أثناء حياته بحيث يكون جهازه المناعي عند الولادة طبيعياً.

وقد لوحظ أن بعض حالات الإصابة بالبكتريا كان سببها النقص في عدد الخلايا البائية، بينما أشارت الإصابة ببعض الفطريات أو الفيروسات أو الطفيليات إلى نقص في الخلايا التائية.

ومن أشهر أمراض نقص المناعة التي عرفها التاريخ، ولا يزال أمرها مستعصياً على العلاج: مرض نقص المناعة المكتسبة، والشهير بمرض الإيدز AIDS، ويحدث في هذا المرض تناقص كبير في أعداد الخلايا التائية (خصوصاً الخلية المساعدة) نتيجة الإصابة بفيروس نقص المناعة الإنساني (HIV) الذي يحطم الخلايا المناعية، ويقضي على إمكانية الجسم للوقاية من الأمراض والوقوع فريسة لها.

ومن أمراض نقص المناعة الأخرى ما يعرف بمتلازمة داي جورج Di George Syndrome وهو مرض ولادي نتيجة للنقص الشديد في الخلايا التائية، وسبب ذلك أن الغدة الزعترية فشلت في النمو بشكل مناسب، وبذلك تنخفض مناعة الجسم، ويصاب بالتهابات شديدة بسبب غزو الفيروسات أو الفطريات للجسم، وفشل الخلايا التائية في القيام بمهمتها والدفاع عن الجسم.

أمراض المناعة الذاتية

Autoimmune Diseases

عندما يتقدم الإنسان بالعمر سنة بعد سنة فإنه يظهر استيعاباً لا شعورياً لخلايا جسمه وأنسجته وبكلمات أخرى فإن الإنسان في أثناء حياته الجنينية يتعرف أنسجة جسمه بشكل كامل يمنعه من رفضها على أساس أنها أجسام غريبة عنه.

ولكن يحدث أحياناً أن يفقد الجسم هذه النعمة العظيمة لسبب من الأسباب المرضية البحت، ويتعامل مع بعض الأنسجة في جسمه كما يتعامل مع الكائنات الدقيقة الغريبة عنه، ولذا فإن الجسم سوف يكوّن أجساماً مضادة تعمل ضد أنسجة الجسم نفسه.

ومن أشهر أمراض المناعة الذاتية: السكري Diadetes حيث هناك نوع منه ينتج من تكوين الجسم لأجسام مضادة تعمل على هدم مستقبلات الأنسولين، ومن ثم يقل الأنسولين؛ وذلك لعدم وجود مستقبلات له في الجسم، وترتفع بذلك نسبة السكر في الدم؛ وذلك لعدم وجود كمية كافية من الأنسولين اللازم لتقليل نسبته، وعندها يصاب الإنسان بالمرض.

وأخيراً فإن عجائب الجهاز المناعي وأسراره كثيرة تدعو متأملها إلى التفكر في عظيم صنع الإله الذي أحسن كل شيء خلقه، وتدعونا كذلك إلى فهم حقيقة أن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده؛ إذ خلق لهم مثل هذا الجهاز ليكون لهم الدرع الواقي من عالم الأحياء الدقيقة الشرس، وتمضي بذلك حياة الإنسان من دون تعثر ليكمل رسالته في الحياة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الطفل تزداد مقاومته للأمراض عند اعتماده على لبن الأم

المراجع:

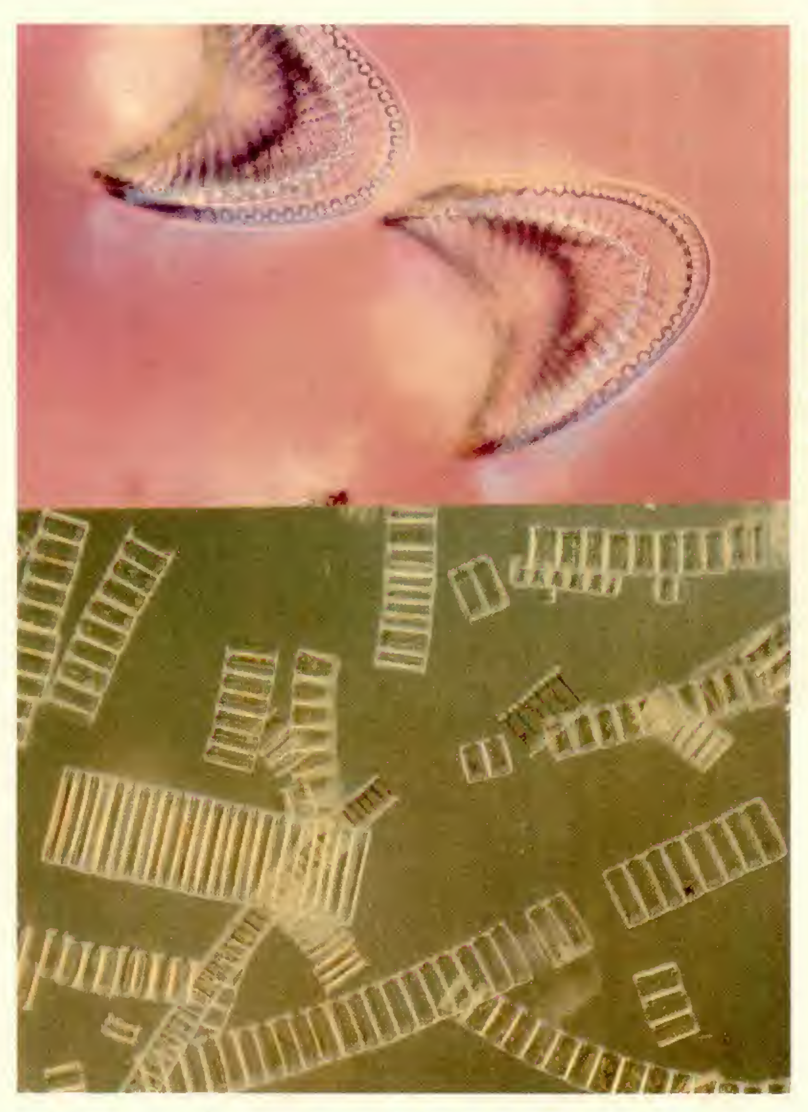
١- الطبيب أدبه وفقهه، د. زهير السباعي و د. محمد علي البار. دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى (١٩٩٣م).
٢- المعجم الطبي الموحد، نشر منظمة الصحة العالمية واتحاد الأطباء العرب.
3 - IMMUNOLOGY, BY LEVINSON AND JAWETZ, SECOND EDITION.
4- BACTERIOLOGY, VIROLOGY, AND IMMUNITY FOR STUDENTS OF MEDICINE, BY STEWART AND BESWICK, TENTH EDITION.

الدياتومات

مصنع الحياة في المحيطات والأنهار

عدنان عضيمة

قد يسأل المرء الذي خبر بعض أسباب انتشار الحياة في المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار عن السرّ الكامن في وجود بعض أنواع الأسماك والأحياء المائية التي يلاحظ أنها لا تتناول أي نوع من الطعام أبدًا!. ومنها الحيتان الضخمة وأسراب أسماك السردين وغيرها كثير. فكيف تحصل هذه الأحياء على رزقها؟.



لقد سحرت الصور المجهرية للداياتومات علماء الأحياء. وتبدو هنا بعض أنواع داياتومات المياه العذبة الأكثر غنى بالسيليكا وذات الأشكال الهندسية الغريبة

لقد كتب لهذا السرّ أن يصيب عالم الأحياء الشهير وصاحب نظرية التطور تشارلز داروين بالحيرة والانصراف إلى التأمل والتدبّر منذ أواسط القرن التاسع عشر. ولم تكن الإجابة عنه ممكنة إلا بعد ابتكار «مجهر المسح الإلكتروني» Scan Ning Electron Micro scope وأيضًا «نظام نومارسكي لكشف التداخل الضوئي المجهري» الذي يمكنه تقديم صور ملونة بالغة الوضوح لأتفه الأشياء وأصغر الأحياء. وأمكن لهذه الوسائل المتطورة أن تقدم توضيحًا شافيًا لهذه الظاهرة المحيّرة، وأن تفكّ الألغاز التي تكتنفها. واتضح باستخدام هذه التقنيات المتطورة وجود ما يربو على سبعين ألف نوع من الطحالب المجهرية الوحيدة الخليّة ذات المظهر الزجاجي الشفاف المنتشرة في المياه

الملحة والعذبة على حدّ سواء، والتي أصبحت تعرف باسم الـ «دايـاتومات» Diatoms. ولعل اسمها هذا جاء من دمج الكلمتين اللاتينيتين «Di» التي تعني «مـزدوج» أو «ثنائي»، و «Atom» وتعني «الذرة»، وقد تتفق هذه التسمية مع شكل «الدايوتومة» التي تبدو تحت المجهر كأنها تتألف من شعبتين منفصلتين على الرغم من كونها ذات خلية واحدة. ويعتقد العلماء أن هذا العدد الضخم من أنواع الدياتومات لا يمثل أكثر من نصف عدد أنواعها المنتشرة بقوة في الطبيعة.

ربع كتلة الأحياء النباتية

ولقد تمكن العلماء من وصف عدد من أنواعها وآليات تكاثرها وحصولها على الغذاء.

وتنتشر الدياتومات في كلّ من المياه الملحة والعذبة على حدّ سواء، وبالكثافة التي تجعل ما يملأ ملعقة صغيرة منها يتضمن نحو ٢٥ مليون خليّة دياتومية. وقدّر العلماء أن الدياتومات تشكل من حيث الوزن ربع كتلة الأحياء النباتية التي تستوطن الأرض. وهذا ما جعل من البديهي القول إنها تنطوي على أهم أسباب استمرار الحياة المائية والبريّة على حد سواء من حيث كونها مصدراً لربع كميّة الأوكسجين الذي نتنفسه نحن وباقي الأحياء، بالإضافة إلى كونها واحداً من أغنى المصادر لاستمرار الدورة الغذائية الطبيعية. وتشبه الدياتومات من حيث طريقة حصولها على الغذاء باقي النباتات كلّها من كونها تتضمن حبيبات اليخضور (الكلوروفيل) التي تمتص ضوء الشمس لتصنع منه بالتفاعل مع الماء الموجود ضمن الخلية سكّر العنب، وتطلق الأوكسجين. ويتحوّل السكر فيما بعد وفق آلية معقدة إلى أنواع معيّنة من البروتينات الزيتية. وتتكاثر الدياتومات بطريقة الانقسام الذاتي

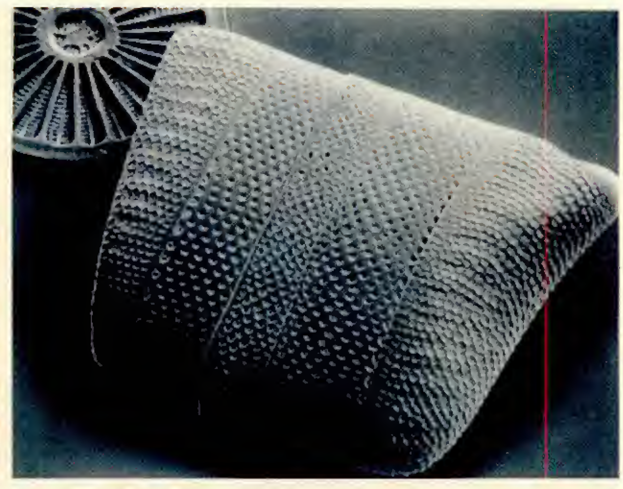


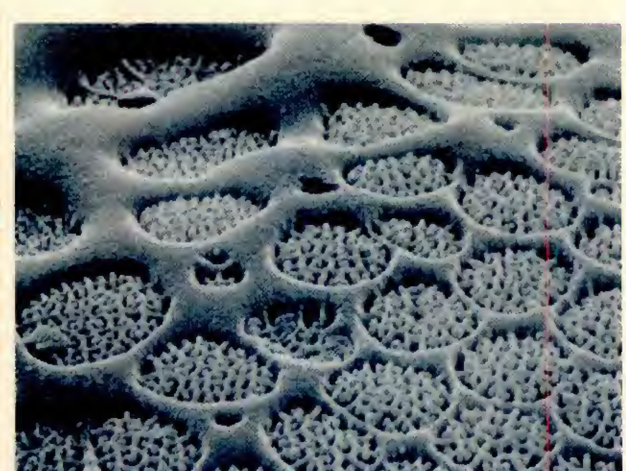
قد تفسر هذه الصورة المجهرية لقطرة من مياه نهر السبب الذي دفع علماء الأحياء إلى عد الدياتومات بأنواعها وأشكالها المختلفة مصنعا حقيقيا للحياة

للخلية. فالخلية الواحدة تنقسم بعد اكتمالها ونضجها إلى اثنتين وفق مراحل متعددة ومشابهة لأنواع التكاثر الخلوي المعروفة في النباتات بشكل عام. ويقال أيضًا: إن لبعض أنواع الدياتومات طريقتها الخاصة للتكاثر الجنسي.

والدياتومات مادة مغذية غنية ومتميزة لعدد هائل من الأحياء التي تتنوّع من حيث حجمها بين المتعضيّات الصغيرة ذات الخلايا المتعددة وحتى الحيتان الضخمة التي يصل وزن الواحد منها إلى عشرات الأطنان. وفي كل غمضة عين يخلق ويموت منها أعداد هائلة لا يمكن لأحد تقديرها. والكميات الهائلة التي تموت منها من دون انقطاع تسقط كالمطر على قيعان المحيطات فتنطمر مع مرور الوقت لتتحول مادتها البلازمية الغنية بالزيوت البروتينية إلى نفط (بترول) خلال بضعة ملايين من السنين.

ولا يتبقى من الدياتومات بعد موتها وتفسّخها إلا أصدافها السيليسية (المؤلفة من أملاح السيليسيوم) التي تبدو





تترتب الثقوب المتناظرة في الأصداف السيليسية للدياتومات بطرائق مختلفة. وكل منها يميز نوعًا معينًا. وتستعمل الأحجار السيليسية الناتجة من تجمع عدد كبير من الدياتومات الميتة كمصاف ومرشحات ذات كفاءة عالية يستخرجها الغواصون من قيعان البحار

تجمّعاتها على شكل قطع حجرية تعمّها ثقــوب ذات ترتيب بديع. وهناك من الغوّاصين من يمتهن صنعة الغوص بحثًا عن هذه الأحجار لاقتطاعها من أجل استعمالها كمصاف أو مرشحات نشيطة أو كأحجار كاشطة.

ولعل من أغرب ما تنطوي عليه هذه المخلوقات التافهة أن لكلّ نوع منها ترتيبًا خاصًا للثقوب التي تتخلل أصدافه المتجمعة بعد الموت.

مصدر وحيد للغذاء

ولاشك أنك إذا اقتربت من شاطئ البحر، وغرفت غرفةً من مياهه السطحية، ورحت تمعن فيها النظر، فإنك لن ترى لهذه الأحياء المجهرية أي أثر. إلا أن لبعض أنواع الأسماك والأحياء المائية والحيتان الضخمة قدرتها الخاصة على فصل كميات هائلة من هذه الدياتومات من مياه البحار والأنهار عبر مصاف ومرشحات خاصة توجد في جهازها الهضمي لتحصل منها على المصدر الوحيد لغذائها، ولابد من الإشارة بصدد هذا إلى أن معظم أنواع الأحياء المائية غير متكيفة مع آلية التغذّي المباشر على الدياتومات؛ لأنها لا تمتلك المصافي والمرشحات القادرة على فصلها من المياه. وعلى أن هذه الأنواع تتغذّى على الأسماك والأحياء الأخرى القادرة على التهام الدياتومات. والأمر هنا كبير الشبه بما يحدث في الحياة البريّة، وحيث تمثل الأوراق الخضراء المصنع الأساسي لغذاء الأحياء؛ لأنها تثبت طاقة الشمس بتفاعل التمثيل الضوئي (الكلوروفيلي) فتحصل منه على السكر البسيط، وينطلق الأوكسجين. وبعد ذلك يتحولّ السكر البسيط إلى سكر مركب وبروتينات ودهنيات تشكل في مجموعها غذاء أساسيًا للأحياء العاشبة. وأما الأحياء اللاحمة التي لا تتغذى على أجزاء النباتات، فإنها تقتات الحيوانات العاشبة ذاتها؛ لتكون بذلك قد حصلت على غذائها من عملية التمثيل الضوئي بشكل غير مباشر. ويمكن لهذه الدورة المتصلة أن تلخّص مفهوم التغذية بمعناه الأشمل والأعمّ بأنه ليس سوى الحصول على طاقة الشمس المختزنة في الروابط الكيماوية لجزيئات من السكريات والبروتينات والدهنيات. وفاعل التمثيل الضوئي في النباتات عمومًا هو المصدر الأساسي لغذاء الأحياء كلها. ووفقًا لهذا الحساب، وبسبب الكميات الهائلة من الدياتومات التي تعمر السطوح المائية للأرض فإنها تعد أحد أهم مصادر الغذاء للحيوانات البحرية والبرية على حد سواء.

وتسمح الدياتومات للبيولوجيين بالكشف عن أسباب التلوث في المياه ومصادره، وتمكنّهم من الوقوف على الحالة الحقيقية لصحة النظام الحيوي في مناطق واسعة.

فالدياتومات شديدة الحساسية لأسباب التلوث؛ إذ سرعان ما تؤدي المواد الملوّثة كالمشتقات النفطية التي تتسرب من الناقلات ومخلفات المدن والمصانع إلى قتلها وإيقاف عملياتها الحيوية. ومن جهة أخرى، تساعد الدياتومات الجيولوجيين على استقراء النماذج التصورية للتاريخ المناخي القديم لمناطق الأرض المختلفة وبنائها.

إسهامات مؤرخي الإسلام في علم الفلك الحديث

حسين بن علي الطرابلسي



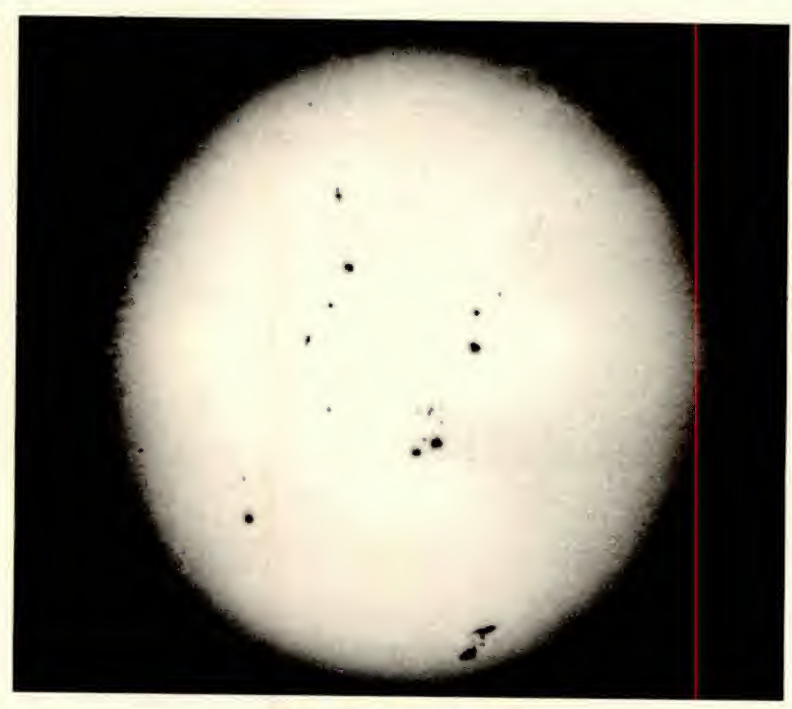
قد يبدو هذا العنوان غريباً ومثيراً للتساؤل لأول وهلة، وربما يسأل المرء ما العلاقة بين علم الفلك الحديث وكتب التاريخ؟ وما الذي تستطيع أن تقدمه كتب التاريخ التي تعالج قضايا تاريخية بحت إلى علم الفلك الحديث وما صاحبه من تقدم هائل في تقنيات الرصد وأبحاث الفضاء واستخدام الحاسبات العملاقة في الحسابات الفلكية؟ ولكن سيزول الاستغراب إذا علمنا أن بعض القضايا الفلكية والفيزيائية الفلكية لا يمكن أن تحل إلا باستخدام مجموعة كبيرة من الأرصاد لظاهرة فلكية معينة تغطي فترة زمنية طويلة، وهذا لا يتأتى إلا بالرجوع إلى الوراء مئات السنين وأخذ الأرصاد التي سجلت تلك الظاهرة في كتب التاريخ أو السجلات التاريخية.

أثارت السماء بنجومها المتلألئة ومنظرها الأخاذ الإنسان على مر العصور والأزمان، فتابع حركتها اليومية والسنوية، ولاحظ الدقة المنتظمة في حركتها، فاتخذها مرجعاً له في ضبط وقته وتحديد موقعه سواءً في البر أو البحر. وقد لاحظ الإنسان ولفت نظره ظهور أجرام غريبة في السماء قد تستمر لحظات أو تمكث عدة أيام أو ربما أشهراً معدودة. ولاحظ أيضاً ما يطرأ على قرص الشمس المتوهج

من كسوف جزئي أو كلي، ويطرأ الشيء نفسه أحيانًا على القمر وهو في قمة اكتماله ولمعانه، ثم لا يلبث أن يعود كل منهما إلى حالته السابقة، وكأن شيئًا لم يكن في السماء، ولكنها تترك جل الأثر في نفس الإنسان الذي شاهدها، فيبادر إلى تسجيلها، وقد يتخذها مرجعًا له ليؤرخ به.

وإن كانت الظواهر الكونية لاتترك أثرًا مدمرًا فإن الحوادث الجوية، كالصواعق والعواصف

يعتقد (بشك) أن تغير المناخ على الأرض على مر التاريخ مرتبط بنشاط البقع الشمسية



البقع الشمسية على سطح الشمس

الهوجاء والحوادث الأرضية، كالبراكين والزلازل والفيضانات والمجاعات والأوبئة التي تدهم الإنسان من حين إلى آخر وتأخذه على غرة، وتخلف الدمار والخسائر في الأنفس والأموال لها نصيب الأسد في السجلات التاريخية، وقلما تمر فترة زمنية وجيزة إلا وتذكر فيها إحدى هذه الكوارث. لكن ما يهمنا في هذه المقالة هو سجلات الظواهر الفلكية، ومجالات استخدامها لحل بعض المعضلات القائمة في علم الفلك الحديث.

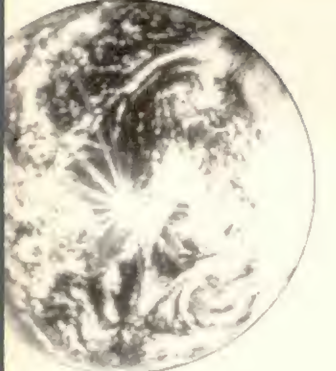
مجالات استخدام الأرصاد التاريخية

في الحقيقة هناك أربعة مجالات رئيسة تستخدم فيها سجلات الأرصاد الفلكية القديمة، بل إنه في بعض الأحيان لا يمكن الاستغناء عنها أبدًا، وهي كالآتي:

- **دراسة دوران الأرض المحوري وحركة القمر:** من المعلوم فلكيًا أن طول اليوم يتزايد بالتدريج بمعدل ١ر٥ ملي ثانية في كل قرن (١ثانية = مليون ملي ثانية)، وعلى الرغم من تناهي صغر هذا المقدار وضآلته إلا أنه ناتج - من دون شك - من تأثير خارجي سبب تباطؤًا في مدة دوران الأرض المحورية. ومقدار هذه الزيادة في طول اليوم يمكن أن تحسب باستخدام الأرصاد الفلكية القديمة للكسوف والخسوف، واقتران الكواكب، واستتار النجوم. وكذلك في سنة ١٦٩٥م اكتشف أدموند هالي ظاهرة تسارع القمر باستخدام الأرصاد الفلكية للكسوف والخسوف التي عملها بطليموس والعرب من بعده.
- **دراسة الدورة الشمسية:** البقع الشمسية عبارة عن مناطق داكنة اللون تظهر على السطح الخارجي للشمس (سطح الفوتوسفير) وهي ذات درجة حرارة تصل في المتوسط إلى ٤٥٠٠ درجة مئوية، أي أقل بمقدار ١٥٠٠ درجة عن الوسط المحيط بها. ويصل عدد البقع الشمسية إلى الذروة في بعض الأوقات، وينخفض هذا العدد إلى حد كبير في أوقات أخرى. وبتجميع الأرصاد التي سجلت للبقع الشمسية وجد أن متوسط الفترة بين ذروتين متتاليتين يساوي إحدى عشرة سنة تقريبًا، وهو ما يسمى بالدورة الشمسية. بالطبع لا يتأتى معرفة هذا المتوسط إلا بدراسة عدد كبير جدًا من أرصاد البقع الشمسية


مجرة رأس الحصان

مذنب هالي سجل ظهوره في كل مرة عبر التاريخ منذ سنة ٢٤٠ ق.م، ماعدا ظهوره في سنة ١٦٤ ق.م الذي بقي مفقودًا في جميع سجلات الحضارات القديمة حتى وجد أخيرًا في سجلات البابليين





التي سجلت خلال حقب زمنية طويلة. بل يعتقد (بشك) أن تغير الطقس على الأرض على مر التاريخ مرتبط بنشاط البقع الشمسية.

- دراسة مواقع النجوم الجديدة وفوق الجديدة في مجرة درب التبانة: غالبًا تتم بدقة باستخدام الأرصاد التاريخية لهما.

- دراسة مدارات المذنبات والنيازك: ويكفي أن هالي صاحب المذنب الشهير باسمه لم يستطع التوصل إلى حساب مدة دورة مذنبه (٧٦ سنة)، وتوقع قدومه سنة ١٧٥٨م إلا باستخدام الأرصاد

القديمة لنحو عشرين مذنبًا ودراستها. ومما يزيد أهميتها أن مذنب هالي سجل ظهوره في كل مرة عبر التاريخ منذ سنة ٢٤٠ ق.م، ماعدا ظهوره في سنة ١٦٤ق.م الذي بقي مفقوداً في جميع سجلات الحضارات القديمة حتى وجد أخيراً في سجلات البابليين التي استخرجت من جنوب العراق والموجودة أغلبها الآن في المتحف البريطاني، وبذلك يكتمل تاريخ رصد مذنب هالي في كل مرة يظهر فيها إلى آخر ظهور له سنة ١٩٨٦م.

سجلات الظواهر الفلكية في الحوليات العربية

أسهمت كل حضارة من الحضارات الإنسانية في مختلف بقاع الأرض في تسجيل الظواهر الفلكية في سجلات دورية متخصصة في هذا الشأن، أو في سجلات عامة تتضمن مختلف الحوادث تاريخية كانت أو فلكية أو غيرهما. ومن أبرز هذه السجلات كانت من الشرق الأقصى والمتمثلة في السجلات الصينية والكورية واليابانية، والسجلات الإغريقية والبابلية، وأخيراً السجلات العربية والإسلامية. وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال إنكارنا بما أحاطت به الحضارات الأخرى من علم الفلك، كالحضارة المصرية القديمة مثلاً، فالشواهد في بناء معابدهم ومقابرهم تثبت إلمامهم بحركة الشمس ومواقعها في مختلف أيام السنة، ولكن الذي نعنيه الأرصاد التي حفظت لنا حتى الآن وترجمت إلى إحدى اللغات الحية.



سديم السرطان في برج الثور الناتج من انفجار نجم (فوق جديد) شوهد من الأرض سنة ١٠٥٤هـ.

وتزخر المكتبة العربية بكم هائل من كتب التاريخ الإسلامي. والمألوف من كتب التاريخ ذكر الحوادث والأخبار حسب السنين سنة فسنة، كتاريخ الطبري، وابن الأثير، وابن كثير، وابن الجوزي، وابن تغري بردي، وغيرهم، وهي ما تسمى بالحوليات. والغالب في مؤلفي الحوليات أن يبتدئوا في حولياتهم من بدء الخليقة على الأرض، وبعضهم يبتدئ من صدر الإسلام، والقلة منهم يدون تاريخ الفترة التي عاصرها فقط. وعلى كل حال فإن الغرض الأساسي من كتابة الحوليات كان غرضاً تاريخياً بحتًا، ولكن لم يفت المؤرخين كما أسلفنا تسجيل أي حدث غريب حدث في تلك السنة. ومن أهم الظواهر الفلكية التي ذكرتها الحوليات العربية:

- المذنبات: تعج المجموعة الشمسية بعدد هائل من المذنبات تدور جميعها حول الشمس في اتجاهات مختلفة بالنسبة إلى مستوى مدارات الكواكب وفي مدارات شديدة البيضاوية، مما يؤدي إلى تغير بُعد المذنب من الشمس بدرجات متفاوتة جداً، فقد يبتعد المذنب عن الشمس آلاف البلايين من الكيلو مترات (عند نقطة الأوج)، وقد يقترب منها إلى مسافة مليون كيلو متر فقط (عند نقطة الحضيض). والشيء الذي يميز المذنب هو تغير شكله طبقاً لبعده عن الشمس، فعندما يدنو من الشمس يبدأ المذنب بأخذ شكله المألوف الذي يتماشى مع اسمه حيث تظهر الهالة المحيطة بنواته، ويظهر كذلك الذيلان الأيوني والترابي.

ثم لا تلبث هذه الأجزاء أن تختفي تدريجياً مع زيادة بعد المذنب عن الشمس، إلى أن تختفي كليةً ولا يبقى منه إلا النواة. ويمكث المذنب عند ظهوره من عدة أيام إلى شهور. وبالطبع يتغير موقعه ببطء في السماء من ليلة إلى أخرى، ويتغير لمعانه أيضاً إلى أن يخرج عن نطاق

الرؤية. ومع تقدم التقنيات الحديثة المستخدمة في الرصد، يكتشف سنوياً من ٥ إلى ١٠ مذنبات تكون لامعة جداً لدرجات تمكن من رؤيتها في وضح النهار، وتسمى مذنبات نهارية، ولكن هذا النوع من المذنبات قليل الظهور، بمعدل ثلاثة مذنبات كل مئة سنة.

في الحقيقة أطلق المؤرخون العرب أكثر من اسم للمذنب، ولم يكن هناك اسم متفق عليه فيما بينهم، فأحياناً يسمى نجماً أو كوكباً ذا ذنب وأحياناً نجماً أو كوكباً ذا ذؤابة، وأحياناً أخرى نجماً أو كوكباً ذا جمة. واختلاف التسمية بين نجم وكوكب يوضح - بلاشك - عدم وضوح ماهية المذنب بالنسبة إليهم، أهو نجم أم كوكب؟ وفي العموم إن العرب فرقت بين النجوم والكواكب، فسموا الأولى كواكب ثابتة والثانية كواكب متحيرة - ولا يتسع المقال لتعليل هذه التسمية.

ودقة الوصف لظهور مذنب تتفاوت من مؤرخ إلى آخر، فأحياناً يُذكر طوله وشكله والبرج أو الكوكبة التي كان فيها مما يسهل عملية حساب موقعه في السماء ويُسجل تاريخ ظهوره واختفائه أو مدة مكثه. وبلا شك، ففي المقابل توجد بعض سجلات أخرى مختصرة جداً، ولكنها - على الأقل - تذكر سنة الظهور. والطريقة المتبعة لدى المؤرخين لقياس طول ذيل المذنب هي الذراع أو الرمح. بالنسبة إلى الذراع فهو من الوحدات المتبعة للقياس الزاوي منذ البابليين، وقيمته تقدر بدرجتين زاويتين(١)، أما الرمح فهو بالتأكيد أكبر من الذراع، ولكن - على حد علمي - لا يوجد تقدير لقيمته بالدرجات.

ومثال على المذنبات في كتب الحوليات العربية ما ذكره ابن الجوزي من وصف مذنب ظهر سنة ٤٥٨ هـ حيث ذكر: «وفي العشر الأولى من جمادى الأولى ظهر في السماء كوكب له في المشرق ذؤابة، عرضها نحو ثلاثة أذرع، وطولها أذرع كثيرة إلى حد المجرة من وسط السماء مادة إلى المغرب، ولبث إلى ليلة الأحد لست بقين من هذا الشهر، وغاب ثم ظهر في ليلة الثلاثاء عند غروب الشمس قد استدار نوره عليه كالقمر، فارتاح الناس وانزعجوا، ولما أعتم الليل رمى ذؤابة نحو الجنوب وبقي عشرة أيام حتى اضمحل»(٢). هذا يطابق تاريخ إحدى مرات ظهور مذنب هالي حيث ظهر في التاريخ نفسه الذي ذكره ابن الجوزي بوصفه الدقيق له، وإعطاء تاريخ غيابه ثم عودته يمكننا من تحديد وقت اقترانه بالشمس، وهي الفترة التي اختفى فيها (يوم الإثنين) ومطابقتها مع الحسابات النظرية. وسجلت مشاهدة مذنب هالي في هذا الظهور أيضاً في الصين وكوريا واليابان(٣) تقريباً في التواريخ نفسها التي ذكرها ابن الجوزي.

وذكر ابن عذاري المرّاكشي وصفاً لمذنب آخر سنة ٣٣٠هـ كالآتي: «في المحرم منها (سنة ٣٣٠هـ) طلع الكوكب الذنبي في الأفق الغربي بقرطبة إزاء العقرب، منحرفاً عنها، فكاد يتصل بالفلكة العليا في رأي العين وكان أول ليلة لاح فيها للأبصار ليلة السبت لثمان بقين من المحرم منها، وهي ليلة ست عشرة خلت من أكتوبر/تشرين الأول الشمسي (يقصد الميلادي)، وتمادى طلوعه مستعلياً مكبراً في السماء حتى توارى»(٤) واضح من ذكر هذا المذنب أن طوله كان عظيماً، وشغل تقريباً نصف


الظواهر الفلكية لا تزال تحير الإنسان

السماء، حيث شوهد في جهة الغرب بعد غروب الشمس، وبالطبع سيكون رأسه باتجاه الشمس، وامتد ذيله للفلكة العليا أي إلى سمت الرأس (كبد السماء)، وهذا يمثل مسافة ٩٠ درجة تقريبًا، مما يشير إلى شدة لمعانه، وربما يكون مذنبًا نهاريًا. بالإضافة إلى حركته المدارية من الغرب إلى الشرق حيث يرتفع كل يوم عن جهة الغرب في السماء، ومن الممكن تجميع السجلات الأخرى التي ذكرت هذا المذنب، ودراستها ومقارنتها، ثم تطبيقها على الحسابات الحديثة، ومعرفة هذا المذنب ومدة دورته حول الشمس ومعلومات غيرها.

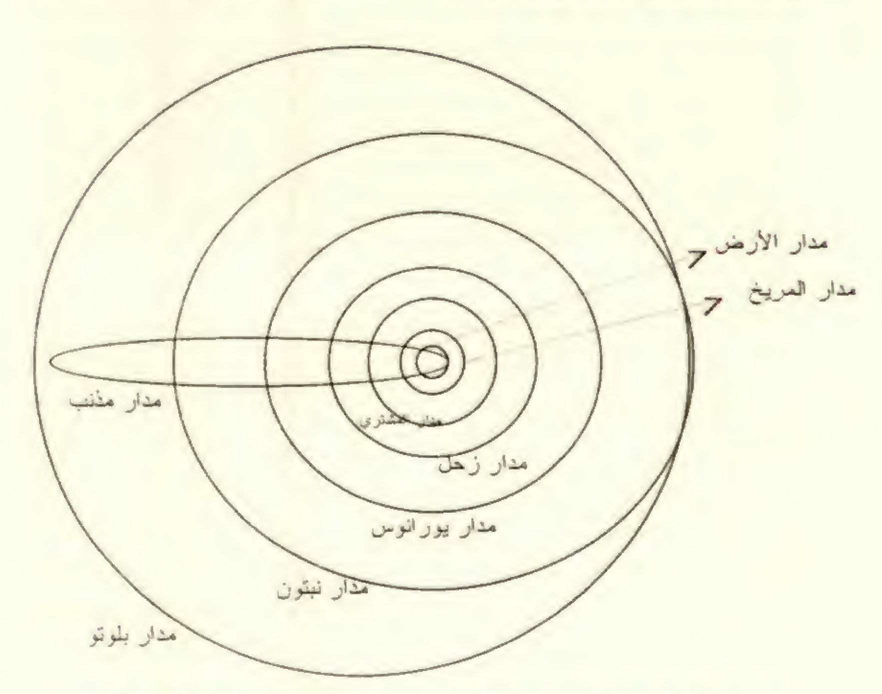
والملاحظ هنا أن أيًا من ابن الجوزي أو ابن عذاري لم يعاصر ظهور المذنب الذي سجله، ولكن مع ذلك، فإن نقلهما للوصف كان جيدًا.

ـ الشهب والزخ الشهبي: يدخل الغلاف الجوي للأرض يوميًا عدد هائل من الأجرام الصغيرة المبعثرة في المجموعة الشمسية، فعند اقترابها من الأرض تجذبها إليها، وتندفع مخترقة الغلاف الجوي بسرعة كبيرة تصل إلى ١٥٠ ألف كيلو متر في الساعة، وتتناقص هذه السرعة نتيجة لاحتكاكها الشديد بالغلاف الجوي، حيث يتبخر هذا الجسم قبل وصوله إلى الأرض مكونًا ضوءًا ناتجًا من الغاز المتأين المحيط به ويظهر كذيل مضيء يسمى شهابًا، ويصاحبه أحيانًا صوت مسموع يشبه الرعد، ولمعان شديد يضيء المنطقة المحيطة، ويحول ليلها إلى نهار من شدة إضاءته. وفي بعض الأحيان يكون حجم الجرم الداخل الغلاف الجوي للأرض كبيرًا، لدرجة أنه يصطدم بالأرض قبل أن يتلاشى كليًا في الغلاف الجوي. هذا الجرم المرتطم بالأرض يسمى نيزك. ويسقط على الأرض سنويًا عدة مئات من هذه النيازك.

أما بالنسبة إلى الزخ الشهبي، فيحدث عند مرور الأرض خلال مدار أحد المذنبات، حيث ينجذب كثير من الدقائق الصغيرة المنتشرة على طول مدار المذنب إلى الأرض فتخترق غلافها الجوي، وتحترق فيه مخلفة وراءها خطوطًا لامعة كثيرة تظهر كأنها أمطار من الشهب قادمة من نقطة واحدة في السماء. وتحدث هذه الظاهرة في أوقات محددة في كل سنة ميلادية، وعادةً تسمى باسم الكوكبة أو البرج الذي يبدو، وكأن ذلك الزخ من الشهب ينطلق منه، فنقول: زخات الشهب الأسدية (نسبة إلى برج الأسد) أو الجبارية (نسبة إلى كوكبة الجبار) وهكذا.

ومثال على ذلك ما ذكره ابن الجوزي (جـ٧)، وابن كثير، وابن تغري بردي بروايات متشابهة عن انقضاض جرم غريب مصحوب بضوء وصوت شديدين في شهر ذي الحجة سنة ٣٥٩هـ، حيث ذكر الأخير مايلي: «في ذي الحجة انقض بالعراق كوكب عظيم أضاءت له الدنيا حتى صار كأنه شعاع الشمس، وسمع في انقضاضه صوت كالرعد الشديد، فهال ذلك الناس، وارتعجوا له»(٦).

وبالنسبة إلى الزخ الشهبي فقد ذكرت كتب التاريخ عددًا لا بأس به منها، ولعل أبرزها ما حدث في ذي القعدة سنة ٣٢٣هـ من «انقضاض الكواكب من أول الليل إلى آخره انقضاضًا مسرفًا جدًا لم يعهد



مدارات الكواكب حول الشمس بدءًا من الأرض إلى بلوتو ونلاحظ شدة بيضوية مدار المذنب

مثله»، كما نصه ابن الأثير(٧)، وأيضًا ذكرها ابن تغري بردي (جـ٧) وابن الجوزي (جـ٦) وابن كثير (جـ١١) وابن حيان(٨). وكذلك الزخ الشهبي المثير الذي حدث في سنة ٥٩٩هـ، وذكره أكثر من مؤرخ كسبط ابن الجوزي، وابن تغري بردي (جـ٦)، والدواداري(٩) وابن كثير (جـ١٢) والسيوطي(١٠) ولكن رواية الأول أوضحها وأدقها تفصيلاً حيث ذكر ما يلي: «في سلخ المحرم ليلة السبت ماجت النجوم في السماء شرقًا وغربًا، وتطايرت كالجراد المنتشر يمينًا وشمالاً. ولم ير هذا إلا عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وفي سنة ٢٤١هـ، وكانت هذه السنة أعظم»(١١). أما في سنة ٢٤١هـ فقد ذكرها الطبري(١٢) وابن كثير(جـ١٠) من بعده، ولكن لم يكن انقضاض الشهب بتلك الدرجة التي كانت في سنة ٥٩٩هـ. أما الزخ الشهبي الذي حدث عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فيحتاج إلى مبحث آخر.

ـ النجوم الجديدة وفوق الجديدة:

يبدو أن الاسم يدل على أن هذه النجوم حديثة النشأة، ولكن الحقيقة هي أن النجم الجديد هو نجم يحدث له تغير مفاجئ في اللمعان ناتج من انفجاره، ويصاحبه زيادة في كمية الطاقة المنبعثة منه قد تصل إلى مليون مرة عما كانت عليه قبل الانفجار، ثم يلي ذلك هبوط في اللمعان حيث يرجع لمعان النجم إلى ماكان عليه سابقًا، وفترة الهبوط هذه تراوح بين عدة سنوات إلى عشرات السنين.

أما النجوم فوق الجديدة فيتغير لمعانها تغيرًا كبيرًا، ممّا يؤدي إلى زيادة كمية الطاقة المنبعثة منه إلى ١٠٠ مليون مرة. وآخر نجم فوق جديد اكتشف في مجرتنا درب التبانة كان سنة ١٦٠٤م، ولم يكتشف أي نجم من هذا النوع بعد ذلك التاريخ في مجرتنا. وأمكن تسجيل ٨ نجوم فوق جديدة فقط في مجرتنا جميعها ذكرت في سجلات الشرق الأقصى (الصين وكوريا واليابان) هي كالآتي: ١٨٥، ٣٨٦، ٣٩٣، ١٠٠٦، ١٠٥٤، ١١٨١، ١٥٧٢، ١٦٠٤م. يتضح من هذه التواريخ أن الخمسة الأخيرة وقعت في الفترة الإسلامية، ولكن مع ذلك، فإن كتب التاريخ العربية لم تذكر إلاّ نجم عام ١٠٠٦م فقط، أما الأربعة الباقية فقط مرت بصمت وسلام من دون أي إشارة إليها، مع أن الانفجار المثير للنجم فوق الجديد في كوكبة الثور عام ١٠٥٤م الذي كون سديم السرطان المشهور لم يدون في كتب التاريخ العربية.

وذكر ابن الجوزي (جـ٧) عن النجم فوق الجديد عام ١٠٠٦م ما نصه: « فمن الحوادث فيها (سنة ٣٩٦هـ) أنه طلع كوكب كبير يشبه الزهرة في كبره وإضاءته عن يسرة القبلة يتموج وله شعاع على الأرض كشعاع القمر، وذلك في ليلة الجمعة مستهل شعبان، وثبت إلى النصف



أسطرلاب عربي صنع في ١٣٠٤م

من ذي القعدة ثم غاب» وكذلك ذكره ابن الأثير (جـ٧) وابن كثير (ج١١).

ـ الكسوف والخسوف: من الحوادث التي تحدث بشكل دوري ومنتظم ظاهرتا الكسوف والخسوف. ومعلوم فلكيًا أن الكسوف يخص الشمس والخسوف يخص القمر. ويحدث الكسوف عند وقوع ظل القمر على سطح الأرض، وينقسم إلى ثلاثة أنواع هي: كسوف كلي، وجزئي، وحلقي. ويحدث الخسوف عند وقوع القمر في ظل الأرض، وينقسم أيضًا إلى ثلاثة أنواع هي: خسوف كلي، وجزئي، وكاذب.

وهاتان الظاهرتان نالتا تسجيلاً شبه منتظم في كتب الحوليات العربية، وبعض هذه السجلات تثير الدهشة في دقتها عند موازنتها بالحسابات الحديثة وخصوصًا أنها دونت من قبل مؤرخين تنقص أكثرهم الخبرة الفلكية، وإن وجدت في بعضهم الآخر، فإن الهدف لم يكن في الغالب فلكيًا صرفًا بقدر ما كان تاريخيًا بذكر الظاهرة بشكل عام ضمن مجموع الحوادث التي حدثت في تلك السنة بمختلف أنواعها.

آخر نجم فوق جديد اكتشف في مجرتنا درب التبانة كان سنة ١٦٠٤م، ولم يكتشف أي نجم من هذا النوع بعد ذلك التاريخ

ومثال على ذلك ما ذكره ابن إياس الحنفي: «في شهر رجب (سنة ٨٧١هـ) كسفت الشمس ودامت في الكسوف نحواً من ثلاثين درجة»(١٣)، على الرغم من أن ابن إياس أخطأ في تسجيل مدة الكسوف، حيث ذكر أنه استمر ٣٠ درجة (أي ساعتين)، بينما الحسابات تشير إلى أنه استمر ساعة واحدة فقط، إلا أن ملاحظته لهذا الكسوف بالعين المجردة ـ بالطبع ـ، وعلى ضآلة الجزء المكسوف من قرص الشمس الذي كان ٠.١٢ فقط يدل ـ بلا شك ـ على دقة ملاحظة عجيبة، هذا إذا علمنا أنه إذا كان قدر الجزء المكسوف من الشمس أقل من ٠.٩٩ فإنه لا يمكن ملاحظته بالعين المجردة وبنظرة عابرة إلا بتركيز وتمحيص ناتج من متابعة يومية لقرص الشمس وملاحظة ما يطرأ عليها من تغيرات، أو أن هذا التركيز ناتج من توقع مسبق لحدوث كسوف في ذلك الوقت باستخدام الحسابات الفلكية، فتنجذب الأبصار إلى قرص الشمس بنظرات ثاقبة لتتحقق من تلك الحسابات ومدى مطابقتها للواقع. وربما يكون قد استخدم بعض التقنيات التي تتناسب مع ذلك العصر لتجنب وهج الشمس الشديد على العين مثل متابعة قرص الشمس المنعكس على سطح إناء مملوء بالماء. أما ظاهرة الخسوف فتذكر بكثرة في الحوليات العربية، ويكفي دليلاً على ذلك أن ابن إياس الحنفي وحده سجل في بدائعه ٣٤ خسوفًا، منها ٢٤ خسوفًا حدثت في أثناء حياته، وربما شاهدها جميعاً بأم عينيه.

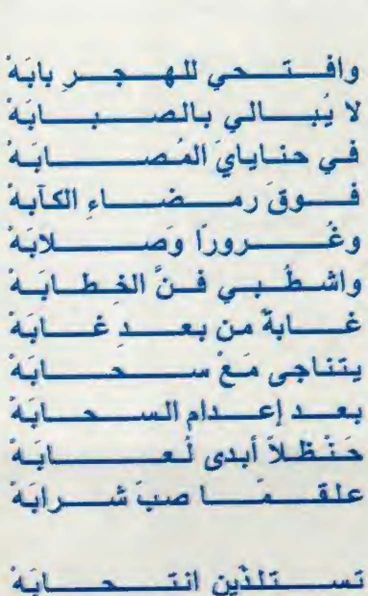
هذه ليست الظواهر الفلكية الوحيدة التي سجلها المؤرخون العرب بل هناك ظواهر أخرى ذكروها، ولكن بقلة، مثل اقتران الكواكب، وظاهرة الشفق الفلكي، ولكن حسب بحثي في أغلب كتب التاريخ العربية المشهورة لم أجد ذكرًا للبقع الشمسية، أو استتار النجوم أو النجوم الجديدة أو فوق الجديدة ما عدا نجم عام ١٠٠٦م كما ذكرنا سابقًا. ولكن لعل أحد القراء الكرام مر عليه ذكر ظاهرة فلكية أيًا كانت فلا يبخل علينا بها.

المراجع:

1 - Sachs A.J and Hunger H., 1988. Astronomicals diaries and related texts from Babylon, V01.1, P.22, Osterreichischen Akademic der, Wissenschaften, Wien.
٢ـ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، جـ ٨، أحداث سنة ٤٥٨هـ.
3 - Ho peng Yoke, 1962, Vistas in Astronomy, Edited by: Arthur Beer, Vol.5.
٤ـ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ٢، أحداث سنة ٣٣٠هـ.
٥ـ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١١، أحداث سنة ٣٥٩هـ.
٦ـ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ٤، أحداث سنة ٣٥٩هـ.
٧ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٦، أحداث سنة ٣٢٣هـ.
٨ـ ابن حيان القرطبي، المقتبس في تاريخ الأندلس، جـ٥، أحداث سنة ٣٢٣هـ.
٩ـ أبوبكر بن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، جـ٧، أحداث سنة ٥٩٩هـ.
١٠ـ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جـ٢، أحداث سنة ٥٩٩هـ.
١١ـ سبط ابن الجوزي (ابن قزاوغلي)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، جـ٨، أحداث سنة ٥٩٩هـ.
١٢ـ ابن جرير الطبري، كتاب تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، جـ ٩، أحداث سنة ٢٤١هـ.
١٣ـ ابن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ٢، أحداث سنة ٨٧١هـ.

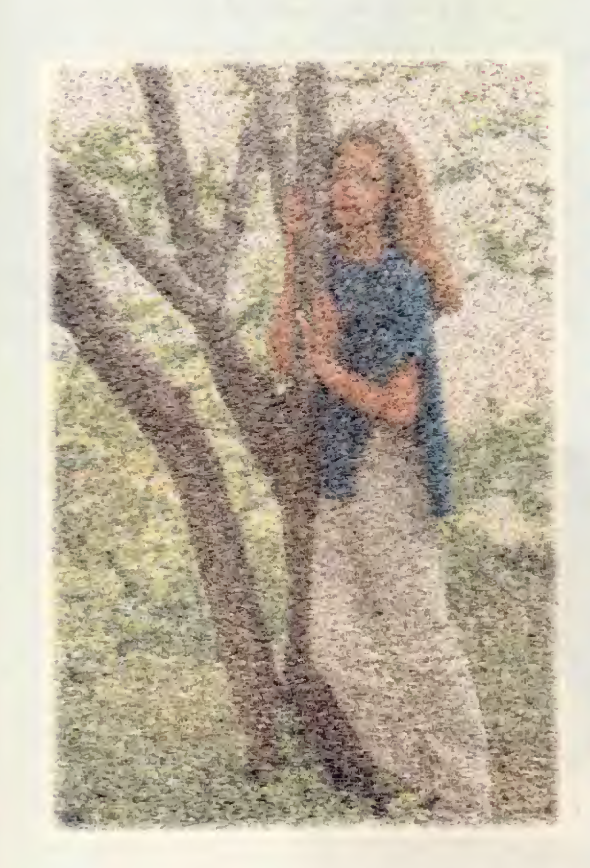
يومَ يسلخُ الحبُّ إهابَه

محمد بن أحمد عبدالله الزهراني



امنَحي الصبَّ عذابَهْ ... وافتحي للهجرِ بابَهْ
وازحفي جيشَ خِداع ... لا يُبالي بالصبابَهْ
أوقدي بُركان غدرٍ ... في حنايايَ المُصابَهْ
وانشُري راياتِ همّي ... فوقَ رمضاءِ الكآبَهْ
أمطري لؤمًا وظُلمًا ... وغُروراً وَصلابَهْ
مزّقي دفترَ شِعْري ... واشطُبي فنَّ الخِطابَهْ
أحرقي غاباتِ صَبْري ... غابةٌ من بعدِ غابَهْ
وستلقين غديراً ... يتناجى مَعْ سحابَهْ
فاجْلُدي وجهَ غديري ... بعد إعدامِ السحابَهْ
وازرعي البؤسَ بحلْقي ... حَنْظلاً أبدى لُعابَهْ
واجعلي طعمَ حُروفي ... علقمًا صبَّ شرابَهْ

ذلكَ الغُصنُ المُسجّى ... تستلذّين انتحابَهْ
وبأسيافِ عِنادٍ ... فاحصُدي منهُ شبابَهْ
انسُجي موتَ وفاءٍ ... وثماراً مُستطابَهْ
سوّدي لؤلؤَ صِدقي ... أبْهمي لَحْنَ الرَّبابَهْ
واستمرّي هكذا.. لا ... تشربي ماءَ الإنابَهْ
ستتوبينَ بيَومٍ ... أرتقي فيهِ انقلابَهْ
يومَ أسلوكِ شُموخًا ... يسلخُ الحُبُّ إهابَهْ
حينَ أمْشي فوقَ قلبي ... أرتدي تاجَ المَهابَهْ
والأسى يأتي ليرعى ... في مغانيكِ ذُبابَهْ
ستَرومينَ حناني ... فاحضُني مِنْهُ غيابَهْ
دوحةُ الإعجابِ خرّتْ ... حولكِ صارتْ خرابَهْ
لا تقولي: «غدٌ.. فصَدّي ... لمْ يكُنْ إلا دُعابَهْ»
ذلكَ العاشقُ ولّى ... لن تَرَي إلاّ سرابَهْ



الفكرة

الشاعر الفرنسي: دي بيليه (١٥٢٢ ـ ١٥٦٠م)

ترجمة: سليم جمل

إذا كان العمر يوماً في بحر الزمن
إذا كانت السنون تطارد الأيام في دورانها
دون أمل في الرجوع
وإذا كان كل شيء فانياً
فبم تفكرين ياروحي السجينة؟
لماذا تستهوين ظلمات الحياة
وظهرك مجنح بأجنحة غزير ريشها

تطير بك إلى ديار أكثر ضياء؟
هناك الخير الذي يجذب إليه العقول
هناك السكون الذي نصبو كلنا إليه
هناك الحب وهناك اللذة أيضاً
هناك أيتها الروح عندما تَصِلين إلى أعالي السماء
تتعرفين على فكرة الجمال
الذي أعشقه في هذا العالم



زيارة مفاجئة



عبدالحسيب الخناني

شكرًا لمقْـــدمِكَ المفـــاجئ.. والفُـــؤا دُ بشـــارع الدنيـــا.. يحثُّ خُطا رَضِيَ

شكرًا.. لفـــتـــحِكَ في جـــدار اللهـــو نا فـــذة أفـــاق لضـــوئها طيفٌ غَـــفِيَ

ألـهت خطايِ الأمنيـــاتُ الفـــاغـــرا تُ الفـــاهَ جـــائعـــةً إلى عـــمـــرٍ شَـــهِيَ

كم خلْتُ بُعْـــــدَ الخَطْوِ عن بَوَّابَةِ الـ عُـــمْـــرِ الأخـــيـــرةِ بُعْـــدَ حُلْمِي عنْ يَدَيَ

فـــــأتيتَ تُنْذِرُني بزلزلةِ الجـــوا نِح.. تكبحُ الآمـــــالَ.. تَربْطُني بِضَيِ

يا أيُّهـــــا الألـمُ الذي قـــــد زارني ضـــيفًـــا بصـــدري أجـــهـــد النَّفْسَ العَـــفِيَ

مـــا خـــفتُ خطوكَ إذْ قـــدمتَ.. ولم أهَبْ صـــقـــرًا وراءكَ يـرقبُ الـرّوحَ الخَـــفِيَ

بل خـــفتُ - لو أمـــضى - يواجـــهني الحســـا بُ ومـــا استـــعنتُ إلى الحـــسـابِ بأيِّ شَيِ

فـــهُنَا أرى بَوَّابَةَ الأخـــــرى كـــــأقْـ ربِ مـــا يكونُ.. كـــأنهـــا تعـــدُو إليَ

والآن يا ضـــيـــفي.. بصـــرتُ مناي تصـ غُـــر لا يراها - جـــاهدًا - طرفٌ قَـــوِيَ

وتكوّرَ الحلمُ الكبـــيـــرُ برفِّ طيـ رِ صـــادحٍ.. يحـــيـــا به الوكـــرُ الخلِيَ

فـــأفـــقتُ أحلمُ بالأمـــانِ لَدَى رُسُـــو وِي عند شـــاطئ رحـــمـــةِ الملكِ العَلِيَ

فـــمنايَ.. كلُّ مُنايَ - مَـــرْسَى غـــافـــرٍ ألْقَى ســـحـــائبَ عـــفـــوه تَهْـــمِي عليَ

على أبواب بابل

علي صالح الجاسم

قلها مللتَ الصمتَ في عينيك قلها
ساعتي يئستْ وطال الإنتظار
قلها فما زالتْ هناك قصيدة هي أجمل النجمات فوق
وسادتي
وعلى بريق عيونها طاب الحوارْ
قلها أحبك مرةً في العمر واتركني أموتَ معذبًا
هذا بعرف محبتي
يامنية العمر انتصارْ

قلها شناشيلُ الضياء بدتْ
وإنْ سقط النصيفُ فإنَّ عينيَ الإزارْ
عيناك ليلٌ منبجيٌ كلُّه سحرٌ
يسبِّحه الصفاء رؤىً
ويرسل من ضفافهما النهارْ

عيناك يا نغمًا فراتيًا على شفتيَ
يحمله اشتياق البحر للبحر الذي يمتدُ فيَ
وليس يثنيه انكسارْ

اسمي وعنواني أضعتُ
وهذه الأطيارُ نائمةٌ على أبواب بابل
ملّت الترحالَ ياهاروتُ اتركها
إليكَ بفضلها أبدًا يُشارْ
قلها فعيناك التي مازلتُ أعشقُها كليلي
هنّ آخر فرصتين متاحتين إلى النجاة
وقد وصلتُ وفاتني
عند المحطة قبل لحظات قطارْ
قلها أحبك مرة
إني أنا الفرح المطرّزُ بالدموع ... وأنت
في شفتي انتحار



حدث ذات مساء

عبدو محمد

لا أزال أذكره تمامًا، بل لم أكن قد نسيته أبدًا.

كان واقفًا في فرجة الباب، ينظر إلينا بمحبة وأمل ورجاء.

جلوسًا على الأرض كنا.

والأمسية كانت شتائية باردة من أمسيات أوائل الشتاء.

حفنة من صبية وبنات ننتظر طعام العشاء، وأمي كانت قادمة نحونا وبيدها طبق الطعام.

فجأة صاحت أمي مزمجرة: هل عدت من جديد.

شعاعان من نار وجليد انبثقا من عينيه فتجمدت أمي حيث كانت، واحترق لسانها فصمتت.

شعاعان انبثقا من محجرين ملتهبين لا أزال أذكرهما تمامًا.

كان واقفًا في فرجة الباب بسنواته التي لم تتجاوز العشر إلا بقليل.

هكذا قال لي أبي فيما بعد.

وأبي كان جالسًا قرب موقد النار لا حول له ولا طول.

وأبي ما فارقت الدمعة عينيه منذ رحل وحتى رحل.

وجهه الحنطيّ لا أزال أذكره تمامًا وشعره الخرنوبي المتماوج خصلات مبعثرة مغبرة، وعيناه العسليتان الجميلتان، كنت أحبهما كثيرًا.

هالني كيف تحولتا إلى جمرتين في تلك الليلة.

شبلا غاضبًا كان ينظر إلى أمي.

حوّل نظراته الملتهبة عنها.

نظر إلينا بمحبة. قطًا أليفًا صار.

تقدم منا، تشمّمنا، دار حولنا، تمسّح بنا.

واحدًا واحدًا تمسّح بنا، ثم ألقى على أبي نظرة حزينة وخرج إلى الريح والبرد والمطر.

في تلك الأمسية الشتائية الباردة من أمسيات أوائل الشتاء.

وبكينا نحن الصغار، ودعناه بالبكاء فلم نكن نعرف غيره.

لم يناده أحد منا.

لم يخرج خلفه أحد منا.

لم يعترض أحدنا على أمنا التي نهرته وكانت تنهره دائمًا.

خرج ولم يعد، وصرنا أيتامًا بعده.

ولا أزال أذكر تلك الأمسية الباردة، ولا أزال أذكره.

كنا نلعب في الحقول، وعلى البيادر نداعب الخراف والديكة.

نقطف الثمار من على الشجر، نصطاد الفراشات والعصافير، نقفز ونجري كقطيع من أمهار بريّة، وننام في فراش واحد كبير.

حفنة من صبية وبنات كان هو أكبرنا.

لم أكن أدري لماذا كانت أمي حاقدة عليه وحده؟

لماذا كانت تغضب حين كان يناديها أماه مثلنا؟ لماذا كانت تريد غيابه؟.

غاب عنا مرة أيامًا ثم عاد.

قال أبي ذهب لزيارة بيت خاله ومرة أخرى قال ذهب لزيارة بيت خالته، ودائمًا كان يعود حزينًا كسيف البال وفي عينيه نظرة من شوق وحنين إلينا.

كنا نحبه كثيرًا، وكان يحبنا كثيرًا.

مرة سألت أبي: أليس هو أخانا؟ فهزّ رأسه، ودمعت عيناه، وهكذا مضى أخي الذي لا أزال أذكره صبيًا وهو في العاشرة بوجهه الحنطي وشعره الخرنوبي وعينيه العسليتين الجميلتين.

مرّت شتاءات كثيرة، وهبت رياح باردة لا حصر لها مسحت آثار من مضوا، وسقطت أمطار كثيرة ملأت تجاويف آثار أقدام من رحلوا، ولا تزال آثاره باقية، بل لا يزال واقفًا في فرجة الباب صغيرًا بسنواته العشر.

قبل أن تموت أمي بكت كثيرًا، استغفرت ربها كثيرًا، وحين قالت لي: ابحث عنه يابنيّ بكت من جديد، فبكيت، فأنا لم أكن قد نسيته أبدًا.

شابَ شعري، وأصبح أولادي رجالاً، ولا يزال صبيًا واقفًا في فرجة ذلك الباب في ذلك البيت الذي تهدّم، في تلك القرية التي غادرناها منذ زمن طويل.

سمع أولادي كثيرًا عن عم لهم خرج في أمسية شتائية باردة ولم يعد.

كثيرة هي المرات التي أجلس فيها في شرفة منزلي أرقب ناس الشارع علّي ألمحه أو طيفاً منه.

وكثيرًا مادققت وأدقق في وجوه الناس حيثما كنت أبحث عنه أو عن طيفه، انتظرت طويلاً أن ينقل لي أحدهم خبرًا عنه من بلاد قريبة أو بعيدة.

ذكر لي أحدهم أن غريبًا زار القرية، وقف في مكان البيت الذي كان، وقف طويلاً، مضى إلى المقابر، سأل عن قبر أبي، وقف عنده طويلاً، ثم مضى.

بالأمس كنت جالسًا في الشرفة كعادتي أرقب ناس الشارع، ظهر لي فجأة من حيث لا أدري، تقدّم مني ماشيًا في الهواء، وقف قبالتي، حزينًا كما كان، نظر إليّ بعتب، قال: لماذا تركتموني للريح والبرد والمطر؟

قلت: كنا صغارًا لا نعرف غير البكاء حين طُردت فبكينا.

قال: لماذا لم تخرجوا خلفي، لماذا لم تنادوني؟ كنت سأعود.

قلت: كنا ضعفاء خائفين.

قالت زوجتي وهي تجلس وتناولني فنجان القهوة: أطلبت شيئًا أم كنت تحادث نفسك.

رحل حين جاءت زوجتي.

قلت: رأيت أخي، كان هنا، أليس غريبًا يا امرأة أنه لا يزال صغيرًا؟!

المهرج ميشو

ليلى حسني

كان المهرج (ميشو) يستعد للقاء أحبابه الصغار من رواد السيرك، وفي حجرته أمام المرآة كان يضع مجموعة من الألوان في وجهه ليبدو بالصورة التي يحبها الأطفال. كانت البودرة البيضاء لوجهه المستدير، واللون الأزرق فوق جفنيه، والأسود لزيادة حجم الحاجبين والأنف الكاوتشوك الأحمر المستدير ليركبه فوق أرنبة أنفه، واللون الأحمر لشفتيه، والشارب الأسود فوقهما، وفجأة شعر ميشو بقطرات ساخنة تجري من عينيه، تساقطت دموعه من شدة الحزن فقد كان ذلك العرض هو الأخير الذي سيقدمه في تلك الليلة بالسيرك بعد أن أخبره صاحبه بالاستغناء عنه؛ لأنه بلغ سن الستين وعليه أن يتقاعد ليحل محله مهرج شاب يكون خفيف الحركة ومؤديا لحركات وألعاب جديدة وخطيرة لن يقدر عليها هو.

لم يصدق ميشو ما قاله الرجل صاحب السيرك، ولكنه أيضًا لم يستطع إيقاف عقله عن التفكير فيما سمعه منه.. إنه يحب عمله ويتفانى فيه خصوصاً حين يسمع ضحكات الأطفال، ويراها مرسومة على وجوههم البريئة، وتصفيقهم له، وطلبهم إعادة فقراته مرات ومرات.

إن السيرك هو ميدانه الذي يؤكد فيه ذاته وطريقه لكسب لقمة العيش، وهو العمل الوحيد الذي يتقنه ولا يعرف سواه، فقد قضى فيه أكثر من خمسين عامًا، فكيف بعد هذا العمر الطويل يتركه ولا يتقابل مع جمهوره الحبيب؟.. إنه يشعر بالموت قادمًا إليه، وكيف لا؟ فبلا شك أن انفصاله عن عمله هو الموت بعينه.. لا إنه لن يترك السيرك الذي يعشقه ولو أجبره صاحبه على تركه، إنه سيظل يقدم عروضه للأطفال ولو في الشوارع والميادين.. إن هدفه هو إسعاد الأطفال في كل مكان، وليس السيرك فقط.

قطع على ميشو وتفكيره في حاله صوت يناديه، ويعلن عن بداية فقرته، فاستكمل ارتداء ملابسه المزركشة، ومسح دموعه، وأصلح ماكياجه ليبدو في أبهى صورة استعداداً للقاء الأخير ثم غادر غرفته إلى المسرح ليحيي الجمهور الذي لم يعلم بأن هذه الليلة هي فرصتهم الأخيرة للقاء ميشو بالسيرك.

بدأت الموسيقى تعزف اللحن المصاحب للمهرج، فأمسك ميشو بحبل قصير، وقذف به في الهواء، ثم تلقفه ونط به وهو يقفز قفزات سريعة، ويتظاهر بالوقوع على الأرض، والتصاق الحبل بقدميه وأنه لا يعرف كيف يتخلص منه، فيضحك الأطفال، ثم يرمي به ليمسك بوسادة صغيرة مزركشة مثل سرواله، ويقذف بها لأعلى ويتدحرج



على خشبة المسرح ويتلقف الوسادة وهو راقد على الأرض ليضعها بسرعة خلف رأسه، ويتشقلب عليها، ثم يقف ممسكًا بها مرة أخرى ويلقي بها من خلف ظهره لتقع قبله ولتحمي رأسه من الارتطام بالأرض، لكنه لا يستطيع اللحاق بها فيقع قبل وقوعها نتيجة لتفكيره المشوش والحزين في أمر الاستغناء عنه، وتنحرف الوسادة إلى مكان آخر، وتصطدم رأسه بصلابة الأرض، ولا يقدر على الحركة ولا رفع رأسه ليطمئن عليه الجمهور.

يندفع الأطفال حيث يرقد ميشو، ويتجمعون حوله في مظاهرة حب جعلت الدموع تفرّ من عينيه..

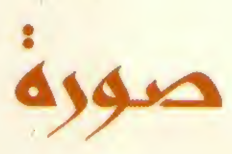
لم يكن ميشو يبكي آلام الجسد كله ولكنه كان حزينًا لفراق هذا الجمهور وأحبائه الصغار، وكان يعلم أنه ما من سبيل إلى رجوع صاحب السيرك عن قراره مما زاده ألمًا.

ساعد الأطفال ميشو على الوقوف ومغادرة الحلبة، وصحبه بعضهم إلى حجرته ليستريح، ثم توالت فقرات السيرك العديدة وألعابه المختلفة حتى انتصف الليل، وحان وقت انصراف الجمهور وفناني السيرك.

جمع ميشو أدواته التي صحبته طوال رحلته في السيرك، ولكنه لم يخلع ملابسه المزركشة، ولم يزَل الماكياج من وجهه، ولم يخلع الأنف الكاوتشوك، ومضى مغادراً السيرك وهو يحمل وسادته حزينًا وكسير النفس.

في الطريق كان الناس يشيرون إليه ويضحكون فيبادلهم التحية بالقفز في الهواء كما كان يفعل في السيرك، وكانت وسادته الصغيرة لاتزال بين يديه يلقيها في الهواء، ويستقبلها من وراء ظهره لترفعها يداه في حركات بهلوانية مضحكة، ولما ازداد تجمع الجمهور حوله زادت شجاعته في عمل حركات أخرى لإمتاع مشاهديه، فأمسك بالوسادة وألقاها في الهواء ليتلقفها من وراء ظهره، ويرفعها إلى رأسه لينزل بها على الأرض، ويتشقلب عليها، وكما حدث في السيرك انحرفت الوسادة عن موقع رأسه فارتطمت بأرض الشارع الصلبة، وراحت الدماء تنزف من جمجمته، وتجمع حوله المشاهدون لمساعدته، وراح بعضهم يبحث عن هاتف قريب يطلب له سيارة الإسعاف، لكنه أخبرهم أنها فرصته الأخيرة للنجاة، ومضى يبكي على ما جرى له.





صورة

علي هواري

اعتاد عبدالباسط أن توقظه والدته كل صباح لتقدم له فنجان القهوة وتعيد كلماتها المكررة.

انهض أيها الكسول.. سوف تتأخر عن الوظيفة.. انهض وإلا مزقت هذه الكتب..

وسرعان ما كان ينتفض من سريره حين سماعه الجملة الأخيرة، ويصرخ كالطفل مستخدماً عبارات متفاوتة في المعنى، ثم ما يلبث أن يصحو من غفوته حتى يسارع بتقبيل يديها معتذراً عما بدا منه متسائلاً في نفسه:

«يا ترى.. ممكن أن تفعل ذلك.. أتفعلها..؟ لا.. لا أظن أنها تعلم جيداً كم أحب هذه الكتب»!!

يتناول فنجان القهوة وعند أول رشفة، يحدق في عينيها الزرقاوين المذمومتين، ثم يبتلع رشفة القهوة بعد أن يبقيها ثواني في فمه، يعبر لها من خلال ذلك عن استيائه من القهوة الحلوة التي تفرض عليه كل صباح، بينما كانت تفهم جيداً حركاته الإيمائية، وتحاول إقناعه بشتى الطرق قائلة:

- يا بني.. كل الناس تشرب القهوة حلوة في الصباح، أتخالف أذواق الناس؟

- لا.. لكن الناس تخالف مذاق القهوة.. هي في الأصل مرة المذاق لماذا يضعون لها السكر؟

- لتصبح حلوة..

لكنني قلتها ألف مرة: لا أحبها حلوة..

وبعد جدال لا جدوى منه، تغادر الأم غرفة ابنها وهي تكلم نفسها بصوت عال:

«أنت لم ترث عن والدك سوى هذا العناد.. ما هذا؟ مع أن أباك كان يشربها حلوة»

ذات يوم دفعته رغبة قوية للاستيقاظ باكراً، نهض من فراشه، فكر قليلاً وهو ينظر في صورة أبيه المعلقة على الجدار، حاول أن يسترجع الماضي، لكنه لم يجد أي ذكرى سوى تلك الصورة الفوتوغرافية. انسابت الدموع على وجهه دون أي جهد منه أو معرفة كافية عن فعل ما حدث، مسحها بكفيه وخرج متلصصاً إلى المطبخ، أعدَّ للمرة الأولى قهوة الصباح، وتعمد أن يزيد من السكر، دخل غرفة أمه، اقترب منها وراح يداعب بلطف شعرها المصبوغ بالحنة، ويهمس في أذنها: «انهضي أيتها الكسولة.. انهضي وإلا مزقت هذا الصوف.. أبي كان يكره حياكة الصوف.. هيا.. أيتها الطفلة الحلوة.. أود أن أعرف رأيك في هذه القهوة.. هيا.. هيا.. هيا.. أمي.!!»

كانت كلماته تتطاير في فراغ الغرفة وتسقط فوق رأسه متبعثرة هنا.. وهناك.. عبثاً تنتظر إجابة الأم.

الطباعة في المملكة العربية السعودية (١٣٠٠-١٤١٩هـ)

عباس بن صالح طاشكندي مراجعة: دلال بنت مخلد الحربي

يقع الكتاب في خمسة فصول ومؤلفه هو الأستاذ الدكتور عباس بن صالح طاشكندي أستاذ المكتبات والمعلومات وعميد شؤون المكتبات في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وقد تحدث في الفصل الأول الذي حمل عنوان «مرحلة الإرهاصات» عن دور مكة التعليمي والثقافي قبل القرن الرابع عشر الهجري من خلال ذكر بعض أسماء أعلامها، استناداً إلى مؤلفات ترجمت لهم، وكذلك بينت جزءاً من معالم النهضة العلمية التي سادت في مكة عبر نشاط الحرم المكي التدريسي والمناظرات.

وأبرز المؤلف في هذا الإطار عناية المكيين باقتناء الكتب، وعنايتهم على وجه الخصوص في القرن الثالث عشر الهجري بالاستفادة من الوسائل الطباعية في مصر والهند. ومن المؤلفات التي طبعت في القاهرة خلال هذه المدة الزمنية «تحصيل نيل المرام لبيان منظومة العوام»، و«عصمة الأنبياء»، و«عقيدة العوام»، لأحمد بن محمد أبي الفوز المرزوقي الحسيني، و«إسعاد الرفيق وبغية الصديق بسجل سلم التوفيق إلى محبة الله على التحقيق»، و«رسالة في التحذير من عقوق الوالدين» لمحمد بن سالم بن سعيد بابصيل.

ويوضح المؤلف أن الظروف الثقافية التي سادت مجتمع الحرمين الشريفين كانت من أهم العوامل التي ساعدت على دخول الطباعة مكة المكرمة على يد الوالي العثماني نوري باشا عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م، حيث استقبل علماء الحرمين - على عكس ولايات الدولة العثمانية الأخرى - هذا الاستحداث بكل ترحيب، وهذا عائد بطبيعة الحال إلى تجذر الحركة العلمية في الحجاز منذ زمن مبكر، وهو ما أوضحه المؤلف تفصيلاً واستشهاداً في بقية الفصل.

الطباعة قبل العهد السعودي

وخصص الفصل الثاني عن الطباعة قبل العهد السعودي فأشار إلى أن المطابع في الحجاز في تلك الفترة كانت على نوعين، مطابع حكومية وتمثلها المطبعة الميرية، ومطابع أهلية أسست على يد الطامحين من أبناء المنطقة من بينها مطبعة شمس الحقيقة ومطبعة الترقي الماجدية، ومطبعة الإصلاح، والمطبعة الشرقية، والمطبعة العلمية.

وعند حديثه عن المطبعة الميرية أشار إلى أنها مرت بثلاث مراحل هي: المرحلة العثمانية، والمرحلة الهاشمية، والمرحلة السعودية، وفيما يخص المرحلة الأولى أوضح أن بدايتها تعود إلى عام



الطباعة في المملكة العربية السعودية
١٣٠٠هـ-١٤١٩هـ
أ.د. عباس بن صالح طاشكندي
الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ٣٤٦ ص.

١٣٠٠هـ/١٨٨٢م، عندما أسس والي الحجاز عثمان نوري باشا مطبعة ولاية الحجاز الحكومية (حجاز ولايتي مطبعة سي) في مكة المكرمة، وهي التي أطلق عليها المطبعة الميرية. وكانت في بداياتها آلة صغيرة تدار بالقدم وصفت بأنها «مكنة بدال صغيرة»، وفي عام ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م

زودت بمكنة متوسطة الحجم ذات عجلة واحدة مزودة بكمية من الحروف المختلفة لتواجه بها حاجات الطباعة لطباعة الكتب بلغات عدة، وبعد سنوات زودت الحكومة العثمانية المطبعة بآلة طباعة حجرية أطلق عليها المطبعة الأميرية.

ومن جانب آخر أبدى موظفو المطبعة اهتماماً ملحوظاً لتعلم كل ما يتصل بأمور الطباعة، فقد استطاعوا خلال مدة قصيرة تعلم «فن صف الحروف وتجليد الكتب».

وفي كل الأحوال، فقد ساهمت هذه المطبعة في تنشيط الحركة الثقافية والعلمية في الحجاز وكان من أبرز ما طُبع فيها:

- سالنامة الحجاز التي كانت تصدر باللغة التركية ابتداءً من عام ١٣٠١هـ/١٨٨٣م وانتهت بصدور العدد الخامس عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م.

- صحيفة حجاز الأسبوعية التي صدر العدد الأول منها في ٨ شعبان ١٣٢٦هـ/٣ نوفمبر- تشرين الثاني ١٩٠٨م، واستمر صدورها سبع سنوات متتالية كصحيفة أدبية علمية.

- صحيفة شمس الحقيقة التي صدرت في عام ١٣٢٧هـ/١٩١٩م بإصدارين: أحدهما باللغة العربية تحت مسمى «شمس الحقيقة»، والآخر باللغة التركية تحت مسمى «شمس حقيقت»، غير أنها توقفت عن الصدور من المطبعة الميرية بعد بضعة أشهر عندما تمكنت من إنشاء مطبعة خاصة بها في إطار شركة تجارية خاصة.

- مجموعة من المؤلفات الأدبية والدينية والتراثية بلغات عدة، وبصدد هذا بذل المؤلف جهداً كبيراً في تتبع دقيق لمطبوعات المطبعة الميرية من الكتب خلال الفترة من ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م إلى ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م، فرصد في قائمة مستقلة ٣٤٧ عنواناً، منها على سبيل المثال: «عمدة السالك وعدة المسالك» لشهاب الدين أحمد بن النقيب، و«الأربعين في أصول الدين» لأبي حامد الغزالي، و«تشويق الخلان» لمحمد معصوم السمارني.

ويعلق المؤلف على هذه القائمة قائلاً: «يلاحظ من القائمة أن نشاط المطبعة الميرية خلال فترة العثمانيين كان كبيراً مقارنة بضعف الإمكانات التجهيزية والبشرية آنذاك... وأعتقد أن نسبة بعض المطبوعات التي أصدرتها المطبعة خلال تلك الفترة ما زالت مجهولة حتى الآن».

وقد حرص المؤلف على إبراز السمات العددية والموضوعية والفنية لمسيرة الطباعة فتحدث عن صفحة العنوان، وحروف الطباعة، ومراجعة النصوص، وتصحيحها، وترتيب الملازم.

ويختتم المؤلف حديثه عن المرحلة العثمانية بتأكيده أهمية الدور الذي أدته المطبعة الميرية في الحياة الثقافية للحجاز.



الملك عبد العزيز

أما العهد الهاشمي فيمتد خلال الفترة من عام ١٣٣٤هـ/١٩١٦م إلى عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م حيث آلت المطبعة الميرية إلى الحكومة الهاشمية، فجعلتها مطبعة رسمية، وخصصتها لطباعة الأوراق الحكومية وطباعة صحيفة «القبلة» التي كانت تصدر مرتين في الأسبوع، وتعنى بالأمور الدينية والسياسية والاجتماعية، وقد استمر أداء المطبعة الميرية في عهد الهاشميين بالآلات والأدوات والطاقات البشرية نفسها التي تهيأت في عهد العثمانيين من دون أية تحديث، وانعكس ذلك الوهن والضعف على أداء المطبعة الميرية في طباعة المؤلفات التراثية والثقافية. ويوضح المؤلف أنه لم يعثر من خلال استقصائه للأعمال التي صدرت خلال المرحلة الهاشمية إلا على عدد ضئيل من الأعمال، ويخلص من ذلك إلى أن المطبعة الميرية كانت في أسوأ حالاتها بعد أن توقفت عنها مصادر الدعم والرعاية.

أما مرحلتها الثالثة، فكانت عند قيام المملكة العربية السعودية حيث تغير مسماها إلى مطبعة «أم القرى» وتولت طباعة الصحيفة الرسمية للمملكة العربية السعودية «أم القرى»، وهو ما أوضحه المؤلف تفصيلاً في الفصل الثالث خلال حديثه عن الطباعة في عهد الملك عبدالعزيز.

وفيما يتعلق بمطبعة «شمس الحقيقة» أوضح المؤلف أن تاريخ إنشاء هذه المطبعة يكتنفه الغموض، ومن جانب آخر لا يعرف من مطبوعاتها ما يستحق الذكر، غير أن هناك صلة بين إغلاقها والخلاف الذي كان قائماً بين الشريف حسين بن علي وجماعة الاتحاد والترقي.

ثم جاءت مطبعة الترقي الماجدية التي تعد أولى المطابع الأهلية، وقد أسست في مكة المكرمة عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م على يد محمد ماجد كردي الذي عنى عناية فائقة بتطوير مطبعته عن طريق استيراد مطبعة أخرى غير تلك التي بدأ فيها المطبعة، والتي كان قد اشتراها من جريدة «شمس الحقيقة»، ومما يدل على عناية الكردي بمطبعته تحديد أهدافها عن طريق إعلان نشره المؤلف على شكل نقاط رئيسة منها:

- تشييد دعائم المطبعة بالحرم المكي على أساس خدمة العلم.

- الوقوف على مؤلفات علماء الحرمين الشريفين لإدخالها في عالم المطبوعات.

- طبع الكتب العلمية على اختلاف اللغات.

ويؤكد المؤلف أن المطبعة الماجدية أسهمت في تلبية حاجات المجتمع الثقافية على الرغم

من وجود مطبعة الولاية حيث: «أحدثت تأثيراً إيجابياً في نمو حركة التأليف، وخصوصاً عند المكيين».

واستمرت المطبعة تؤدي دورها حتى العقد السابع من القرن الرابع عشر الهجري إذ لم يتمكن مالكوها من مواجهة منافسة المطابع التي أخذت تنتشر في مكة وغيرها، وقد تمكنت هذه المطبعة من نشر مئة وثمانية وسبعين كتاباً في السنوات من ١٣٢٧هـ إلى ١٣٧٠هـ (١٩٠٩ ـ ١٩٥٠م).



عبد الحق النقشبندي

أما مطبعة الإصلاح فتأسست في عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م بتمويل أهلي من بعض الشركاء من أهالي جدة بغرض تأسيس جريدة «الإصلاح» (توقفت بعد ستة أشهر من إصدارها) ويؤكد المؤلف أن هذه المطبعة قامت بدور كبير ونشرت ـ على قصر مدة استمراريتها ـ أعمالاً كثيرة، ويوضح المؤلف نقطة في غاية الأهمية تعد فصلاً بين جهود المطابع في مدن الحجاز، وهي أنه: «لما كانت المطابع الأهلية في جدة ـ آنذاك ـ لا تطبع إلا كميات ضئيلة من الأعمال بسبب عدم الإقبال عليها من قبل عامة الناس فضلاً عن سوء التوزيع ... على أن من الجدير أن نشير إلى اختلاف بين مجتمعي مكة المكرمة وجدة، فبقدر ما تميز المجتمع المكي بالحياة العلمية المتفاعلة بين جمهرة العلماء المكيين والوافدين إليها ممن تجمعهم ساحات الحرم المكي الشريف، فإن مجتمع جدة قد اتسم منذ القدم بالتجارة والعمالة لنشاطات الحج والعمرة ... مما يفسر ضآلة حركة طباعة المؤلفات في مجتمع جدة».

وفي معرض حديثه عن مطابع جدة يشير المؤلف إلى المطبعة الشرقية بوصفها المطبعة الخامسة التي أسست في الحجاز، وقد عرفت أيضاً باسم مطبعة «رمزي»، تخصصت في طباعة الأعمال التجارية البسيطة وبعض المؤلفات، وعلى الرغم من قلة المعلومات المتوافرة عن هذه المطبعة خصوصاً فيما يتصل بتاريخ إنشائها فإن

الظروف الثقافية التي توافرت في الحجاز والتي اقترنت بالمكانة الدينية والعلمية للحرمين الشريفين من أسباب بقاء وميض نور العلم ومشاعل التنوير بها في أحلك الظروف

نماذج أعمالها تستوقف نظر أي باحث وفقاً لرأي المؤلف، فقد تميزت المطبعة بخصائص إخراجية طباعية انفردت بها، وببيانات تسجل على الغلاف تشمل حقوق المؤلف، وسعر الكتاب، وتاريخ الطباعة، وغيرها مما يعد حالياً من ضروريات الإخراج المطبعي، وعدت مطبعة «رمزي» رائدة في هذا المجال.

وفي المدينة المنورة، ظهرت كل من المطبعة العلمية التي يعود تاريخ إنشائها إلى عام ١٣٢٩هـ/١٩١١م على يد كامل الخجا، وقامت بتلبية حاجات التجار من المطبوعات التجارية إضافة إلى نشر بعض أعمال التأليف، وكذلك مطبعة الحجاز التي تضاربت الآراء حول تاريخها، ولا يعرف من مطبوعاتها غير صحيفة «الحجاز» التي صدرت في عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م، وتوقفت بعد صدور العدد ١٠٥ في عام ١٣٣٥هـ/١٩١٦م.

الطباعة في عهد الملك عبدالعزيز

هذا عنوان الفصل الثالث، وفيه أورد المؤلف معلومات ضافية ودقيقة عن اهتمام الملك عبدالعزيز بنشر الكتاب هاجسه في ذلك إحياء الوفاء للدعوة السلفية وتشجيع العلم باحثاً عن كل وسيلة تمكنه من ذلك، ولتحقيق اتجاهاته، في الفترة الممتدة: من (١٣٤٣ ـ ١٣٧٢هـ/ ١٩٢٤ ـ ١٩٥٢م) واتخذ الملك عبدالعزيز طريقين:

الأول: الاستعانة بالإمكانات الطباعية



الشيخ محمد نصيف

خارج البلاد وداخلها في طباعة كتب التراث والدعوة السلفية:

«عني الملك عبدالعزيز بكتب التراث الديني الإسلامي، وعلى الأخص ما يرتبط بمصادر وكتب الدعوة السلفية منذ وقت مبكر من حكمه، فعمد إلى طبع مجموعة من الكتب على نفقته في الهند حين كانت صلة نجد بالهند أقوى من صلتها بغيرها من البلاد، لوجود اتجاهات سلفية عند بعض علماء الهند، وبعد ضم الحجاز، ولضعف إمكانات الطباعة في الهند توجه الملك عبدالعزيز إلى مصر من خلال إمكانات مطبعة «المنار»، و«المطبعة السلفية»، وقد أسهبت جريدة «أم القرى» في توضيح جهود الملك عبدالعزيز في هذا المجال منها ما نشرته في العدد ٢١٤ الصادر في ٢١ شعبان ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م)» وهنالك عمل

آخر لجلالة الملك متمم لقضية التعليم هو طبع الكتب على نفقته الخاصة وتوزيعها مجانًا على الشعب، وقد بلغ عدد ما طبع حتى اليوم على نفقة جلالته مئة ألف نسخة ونيف من مختلف الكتب. والمطابع لا تزال هنا وهناك تشتغل بطبع غيرها».

ورصد المؤلف قوائم مختلفة عن المؤلفات المطبوعة على نفقة الملك عبدالعزيز، وأوضح جهود الملك عبدالعزيز في الإنفاق



سالنامة الحجاز صدرت باللغة التركية عام ١٣٠١هـ واستمرت إلى عام ١٣٠٩هـ

على طباعة الكتب الإسلامية ونشرها على نفقته الخاصة وتوزيعها في الداخل والخارج، وتشجيع المؤلفين والناشرين عن طريق شراء كميات كبيرة من النسخ وتوزيعها مجانًا على طلاب العلم والدارسين، وكانت الكتب التي تشترى على نفقة الملك عبدالعزيز ترسل إلى أنحاء المملكة للتوزيع.

الثاني: دعم حركة الطباعة في داخل البلاد:

حرص الملك عبدالعزيز على ترسيخ البنية الثقافية للبلاد بعد توحيدها كحرصه على ترسيخ بنيتها السياسية، إذ رأى بثاقب بصيرته أن الطباعة وسيلة من أهم وسائل الدعوة وترسيخ دعائم الدولة، فمن خلالها يمكن أن تصدر الحكومة جريدتها الرسمية، وأن تباشر في طباعة الأعمال الأساسية التي تدعم مبادئ الحركة الإصلاحية فضلاً عن دورها في طباعة حاجات الدولة من المطبوعات الحكومية ومستلزمات الطباعة، وهي كذلك وسيلة لنشر المطبوعات الحكومية ومستلزمات الطباعة.

وكان من أول ما فعله الملك عبدالعزيز في هذا الأمر أن استعان بالمطبعة «الميرية» وغير مسماها إلى مطبعة «أم القرى»، وأضافت الحكومة إليها عدداً من المطابع الصغيرة في محاولة لتفعيل دورها في

تجذر الحركة العلمية في الحجاز منذ زمن مبكر، جعل علماءها يستقبلون دخول الطباعة في مكة المكرمة بكل ترحيب على عكس ولايات الدولة العثمانية الأخرى

طباعة جريدة «أم القرى» التي بدأت تصدر مع بداية العهد السعودي، كجريدة رسمية أسبوعية تنشر الدولة فيها بلاغاتها ونظمها وتعليماتها وبياناتها.

وفي عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، أصدرت الدولة أول نظام للمطابع والمطبوعات في أربعة أبواب، اختص الباب الأول بالتعريفات، وجاء الباب الثاني منظمًا للمطابع وضوابط أدائها، أما الباب الثالث فخصص لتنظيم إصدار الدوريات من الصحف والمجلات والنشرات الدورية، ونظم الباب الأخير قضايا التوزيع والتسويق كافة وضوابط التعامل بها، وأورد المؤلف المواد المنظمة للمطابع التي منها: «المادة الثامنة: على صاحب المطبعة أو مديرها أن يقدم قبل التوزيع من كل ما يطبعه من المطبوعات الآتية وهي:

- الكتب بأنواعها بما في ذلك الكراريس.
- الصحف والمنشورات بأنواعها.
- المجلات والنشرات الدورية بأنواعها.

فالمطبوعات المذكورة في البند الأول تقدم منها نسختان إلى كل من النيابة العامة وإدارتي المطبوعات والمعارف، والمطبوعات المذكورة في البندين الثاني والثالث تقدم منها نسختان إلى كل من النيابة العامة وإدارة المطبوعات، وعلى كل لا يجوز لصاحب مطبعة أن يباشر في طبع المطبوعات المذكورة في البند (١) ولا الأخرى إذا كان



الجزء الثاني من الدر الغالي، شرح إرشاد المتحلي من سنن النبي العالي

الفرق بين مدة صدورها أكثر من شهر إلا بإذن سابق من الحكومة.

وفي هذا المنحى ينتقل المؤلف للحديث عن المطابع التي أنشئت في عهد الملك عبدالعزيز، وهي كالتالي وفق التتابع الزمني:

- **مطبعة أم القرى:**

وهي مطبعة حكومية، ومما يلاحظ أن المؤلف تحدث عنها في مواقع سابقة من كتابه، لطبيعة إنشاء هذه المطبعة التي أشير كثيراً إلى أنها هي المطبعة الميرية، غير أن الملك عبدالعزيز لم يكتف بتغيير الاسم فقط، بل تناول الدعم الذي تمثل في أمور عديدة، منها تدريب بعض الموظفين السعوديين على

أعمال فن الحفر وعمل الطوابع، وفنون الطباعة بشكل عام عن طريق الابتعاث إلى بلاد عربية مجاورة، أو التعاقد مع خبراء حضروا من أجل هذا الشأن، كما لجأت الدولة إلى التشجيع عن طريق صرف المكافآت، واستيراد المعدات الحديثة وغيرها.

وقد أثمرت هذه الجهود، إذ أنجزت المطبعة بخلاف الصحيفة الرسمية «أم القرى»، والمطبوعات الحكومية، والنظم والتعليمات واللوائح الخاصة بالوزارات والمصالح الحكومية، عدداً من المؤلفات، أوردها المؤلف في قائمة حوت ٣٣ عنواناً.

ويؤكد المؤلف أن مديري المطبعة كان لهم جهود كبيرة في تطوير أدائها وفي مقدمتهم يوسف ياسين، ومحمد سعيد عبدالمقصود خوجة، وتحققت في فترة الأخير إنجازات عديدة هي بمقاييس تلك الفترة تعد قفزات باهرة للمطبعة، ولعل من أهم ما كان يسعى لإنجازه هو بناء دار المطبعة في جرول: «بلغ من فخامتها وسعتها أن ظنها الناس ثكنة عسكرية، وأراد أن يخطط أمامها مدينة للعمال وأراد وأراد.. ولكن القدر عاجله قبل إتمام مشروع البناية، وبعد أن قطع منه شوطاً واسعاً، وقبل البدء في مشروع المدينة التي أرادها أو فكر فيها».

ثم أسست مجموعة من المطابع الأهلية منها:

ـ مطبعة طيبة الفيحاء بالمدينة المنورة:

أسست في عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م على يد أحمد الفيض أبادي وعبدالحق النقشبندي، وكان مقرها في مدرسة العلوم الشرعية، وتولت هذه المطبعة طباعة احتياجات مدرسة العلوم الشرعية من الكتب الدراسية، وظلت هذه المطبعة في ميدان الطباعة في المدينة المنورة حتى عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

ـ المطبعة السلفية في مكة المكرمة:

قامت شراكة بين محمد صالح نصيف وعبدالفتاح قبلان أثمرت شراء مطبعة دار المنار في مصر التي شحنت في عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م، وتولى عبدالفتاح قبلان إدارتها منذ عام ١٣٤٧هـ/٩١٢٨م، وكان من أهم أعمالها إصدار صحيفة «صوت الحجاز» التي صدر العدد الأول منها في ٢٧ ذي القعدة ١٣٥٠هـ ـ ٤ أبريل/نيسان ١٩٣٢م، واستمرت إلى ٥ من المحرم عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.

وإضافة إلى صوت الحجاز كان للمطبعة عدد كبير من المطبوعات التي اتخذت اتجاهاً سلفياً، وبعض الأعمال الأدبية والتاريخية. ويشير المؤلف في معرض حديثه عن المطبعة السلفية إلى أن المطبعة لم تقدم جديداً في إطار التجديد على التجارب الطباعية السابقة، ويدلل على ذلك بنماذج من حروف الطباعة العربية والإنجليزية فيها.

ـ المطبعة العربية بمكة المكرمة:

أسست في مكة المكرمة في عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م، وهي أول مطبعة في شبه الجزيرة العربية أسست في إطار شركة عامة هي الشركة العربية للطبع والنشر، التي انتقل إليها امتياز إصدار جريدة «صوت الحجاز» في عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، وقامت المطبعة العربية بطباعة بعض الأعمال السلفية.

ـ مطبعة المدينة المنورة:

تمكن عثمان حافظ من شراء مطبعة الفيحاء عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م لتكون نواة لطبعة المدينة المنورة، ودعمها بمطبعة أخرى اشتراها من مصر، ويلقي المؤلف الضوء على حجم المعاناة والتصميم اللذين مر بهما عثمان حافظ للحصول على هذه المطبعة وشحنها إلى المدينة المنورة براً وبحراً.

وبدأت المطبعة نشاطها في طباعة صحيفة «المدينة» في عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٠م على يد عبدالرحيم صدقة عبدالفتاح، وبدأت نشاطها بالاعتماد على تجهيزات طباعية بسيطة تكونت من مطبعة يدوية اشتراها مؤسسها من المطبعة الشرقية، ومطبعتين صغيرتين تداران بالرجل أضيفت إليهما فيما بعد مطبعة تدار بالكهرباء، وبعدد قليل من العمال، وانحصرت أعمال المطبعة في تلبية حاجات التجار من الدفاتر والسجلات، وطبع التقاويم، وجميع المستلزمات التي تتطلبها التجارة.

وفي عام ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، خطت المطبعة خطوة كبيرة في أعمالها عندما أقدمت على طبع المؤلفات التراثية والفكرية، ثم تتابع نجاح هذه المطبعة حيث انتقلت في عام ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م إلى موقع آخر أكبر، وأضيفت مطبعتان حديثتان إلى المطبعة القديمة، وتوسعت المطبعة في التجهيزات المساندة للمطبعة من الآلات والأدوات والعمال، وخلال هذه الفترة قامت المطبعة

التزم الملك عبدالعزيز نهج تشجيع المؤلفين والناشرين عن طريق شراء كميات كبيرة من النسخ وتوزيعها مجاناً على طلاب العلم والدارسين


حقيقت شمس

شمس الحقيقة وحقيقت شمس من إصدارات المطبعة الميرية

بتنفيذ تعاقدات طباعية كبيرة للقطاع الأهلي والحكومي.

وفي عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م انتقلت إلى موقعها الذي مازال قائماً إلى الوقت الراهن خارج المنطقة التجارية في وسط جدة على طريق المدينة المنورة.

- مطبعة فضل الرحمن الوطنية:

أسست على يد محمد رضا حسين



عثمان حافظ

سلامة عام ١٣٧١هـ/١٩٥١م بمدينة جدة، بعد أن قام بتجهيزها بمطبعة صغيرة تدار باليد، وتمكن من طباعة الدفاتر التجارية وبطاقات الدعوة، والإعلانات، والتقاويم، ثم جهز المطبعة في عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م بمطبعة كهربائية.

وقد آلت المطبعة بعد وفاة مؤسسها وصاحبها إلى أبناء أخيه، وما زالت إلى الوقت الراهن تؤدي دورها.

ويختم المؤلف حديثه عن المطابع الأهلية بتأكيد حقيقة تاريخية ألا وهي دعم الملك عبدالعزيز للجهود الفردية التي أسهمت في تأسيس مطابع، ويعطي للدلالة على تأكيد ما يذهب إليه عدة أمثلة.

بواكير الطباعة وآثارها الثقافية في البلاد

أورد المؤلف المراحل التي مرت بها الطباعة، ذاكراً أن تاريخ الطباعة في البلاد مرت بأربع مراحل، هي:

- مرحلة العهد التركي (١٣٠٠-١٣٣٤هـ/١٨٨٢-١٩١٥م).
- مرحلة عهد الأشراف (١٣٣٤-١٣٤٣هـ/١٩١٥-١٩٢٤م)
- مرحلة عهد الملك عبدالعزيز (١٣٤٣-١٣٧٣هـ/١٩٢٤-١٩٥٣م)
- مرحلة الطباعة الحديثة (١٣٧٣هـ/١٩٥٣م).

ويستعرض المؤلف ناتج كل مرحلة بشكل

دلت الصحافة في عهد الملك عبد العزيز على الانصهار الثقافي والاجتماعي بين جمهرة المثقفين من أبناء المملكة العربية السعودية عامة

مستقل، ولعل من المناسب إلقاء بعض الضوء على هذا الناتج، فالمرحلة الأولى يعدها المؤلف مرحلة الريادة في إدخال المطابع للبلاد التي أفرزت عدداً من المطابع كان أبلغها أثراً من الناحية الثقافية والفكرية مطبعتا الولاية والماجدية في مكة المكرمة.

أما المرحلة الثانية، فقد عانت المطابع فيها من الضعف والركود، مما انعكس بشكل ملموس على الإنتاج الثقافي بشكل عام، ويلاحظ أنه على الرغم من حالة التردي التي شهدتها حركة التأليف، فإن الصحافة توافر لها بعض الإمكانات التحريرية والإدارية، وتحسنت من خلال الشكل والمضمون، إذ صدر في هذه المرحلة أربع صحف ومجلة زراعية واحدة.

وتعد المرحلة الثالثة بداية عهد جديد للطباعة والمطابع؛ إذ دخلت عهداً من التطوير واستكمال بنيتها الأساسية؛ لأن الملك عبدالعزيز أولى المطابع الحكومية جل عنايته، واستفادت من ذلك الدعم المطابع الأهلية التي أخذت تنشأ تدريجياً في مناطق مختلفة.

ويؤكد المؤلف أن تلك المطابع أحدثت تأثيرات إيجابية في الحياة الثقافية والاجتماعية إذ أسهمت في اتجاهين مهمين هما: قيام البنية الأساسية للصحافة السعودية، ونشوء حركة التأليف الحديث.

- قيام البنية الأساسية للصحافة السعودية:



محمد حسين الأصفهاني

يوضح المؤلف أنه خلال هذه المرحلة صدرت ثلاث صحف وثلاث مجلات ثقافية هي: صحف: «أم القرى»، و«صوت الحجاز»، و«المدينة المنورة»، ومجلات: «مجلة الإصلاح»، و«المنهل»، و«النداء الإسلامي»، ويخلص المؤلف بعد حديثه عن كل مجلة وصحيفة على حده إلى توضيح حقيقة تاريخية مهمة تشكل ثمار الوحدة التي أسسها الملك عبدالعزيز إذ يقول: «ولعل من أهم مايميز أداء تلك الصحف والمجلات أنها عكست وحدة مختلف مناطق البلاد التي وحدها الملك عبدالعزيز - رحمه الله - تحت راية كيان سياسي واحد هو المملكة العربية السعودية. وقد تجلى ذلك في اتساع نطاق المشاركة بين أبناء البلاد الواحدة في تحرير مواد تلك الصحف والمجلات، فضمت كتّاباً ينتمون إلى مختلف مناطق المملكة، مع اتساع في تمثيل المناطق كافة للقضايا الاجتماعية والثقافية المطروحة، مما يدل

على مدى الانصهار الثقافي والاجتماعي بين جمهرة المثقفين من أبناء المملكة العربية السعودية عامة».

ـ **نشوء حركة التأليف الحديث:**

ساعدت هذه المرحلة على تنشيط حركة التأليف باتجاهاته المختلفة، وفي هذا يلقي المؤلف الضوء على القائمة التي أصدرتها مجلة «المنهل» في عام ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م للأعمال التي نشرت لمؤلفين سعوديين أو هيئات سعودية خلال الفترة من



من إصدارات مطبعة الترقي الماجدية

١٣٤٤هـ/١٩٢٥م إلى ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، وحملت ٢٠٢ عنوان.

ويسجل المؤلف ملاحظته على هذه القائمة، مؤكداً من جانب آخر أهميتها في تحليل الاتجاهات الموضوعية لحركة التأليف خلال تلك الفترة، فعلى سبيل المثال، جاء الأدب في المركز الأول يليه على التوالي علوم الدين والتراجم والتاريخ والكتب الإعلامية وكتب المناسك.

الطباعة الحديثة

أما الفصل الخامس ـ وهو الأخير ـ فعالج فيه وضع الطباعة الحديثة في المملكة العربية السعودية (١٣٧٢ ـ ١٤١٩هـ/ ١٩٥٢ ـ ١٩٩٨م)، فبين مظاهر النهضة الطباعية التي عمت مناطق المملكة منذ عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م وجاء اختيار هذا التاريخ ليكون نقطة الانطلاق الجديدة، إذ شهد عام ١٣٧٢هـ إنشاء مطابع مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر في جدة حيث كانت البداية.

وبصدد هذا يستعرض المؤلف مناطق المملكة كلاً على حدة.

ـ **المنطقة الغربية:**

يتتبع المؤلف مدن المنطقة الغربية، ويبدأ من جدة التي انتقل إليها النشاط الطباعي بعد أن كانت مكة المكرمة مركزاً لها معظم القرن الماضي، فيتحدث عن مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر التي قام بإنشائها أحمد عبيد على هيئة شركة مساهمة محدودة حيث أحدثت تغييراً جذرياً في عمل الطباعة وإنتاجها فقد: «كرس السيد أحمد عبيد ـ رحمه الله ـ جهوده لتأمين آلات حديثة تم استيرادها من ألمانيا وبريطانيا، ودخلت البلاد أول مرة طريقة صف اللينوتيب بدلاً من الصف اليدوي للحروف الطباعية. كما أدخلت المطبعة لأول مرة معمل زنكوغراف، وأمنت خدمة الأخبار العالمية من خلال وكالة رويتر. كما تعاقدت المؤسسة مع بعض الفنيين في أعمال الطباعة من مصر وسوريا، إضافة إلى عدد من العمال المحليين، وغير المحليين مما مكنها من البدء في مباشرة مهامها في الطباعة».

وفي عام ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م، أسس محمد حسين الأصفهاني دار الأصفهاني للطباعة والزنكوغراف، وفي مرحلة لاحقة من تطور هذه المطبعة أدخلت إليها آلتا أوفست، فحدثت نقلة نوعية في الإمكانات الطباعية الحديثة في المملكة العربية السعودية حيث: «أمكن من خلالها تعاقد حكومة المملكة لأول مرة مع المطابع الأهلية الخاصة لطباعة طوابع بريد الحكومة السعودية داخلياً».

وقد أكد النجاح الذي تحقق لكل من مطابع مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، ومطابع الأصفهاني للطباعة ضرورة قيام مطابع جديدة تستوعب الحاجات المتزايدة، والطلب المتنامي على الطباعة بأشكالها وأنماطها كافة، فاندفع بعضهم إلى إنشاء مطابع تزايدت مع توالي الأيام حتى بلغ مجموعها في عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ٩٩ مطبعة.

وفي مكة جاء تأسيس مطابع دار الثقافة في عام ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م على يد صالح محمد جمال، وعلى الرغم من محدودية إمكاناتها موازنة بمطابع جدة إلا أنها أسهمت في طباعة عدد كبير من الكتب، والمقررات الدراسية، وبعض المجلات حتى آل أمرها إلى مؤسسة مكة للطباعة والإعلام في بداية الثمانينيات الهجرية.

وتتابع ظهور المطابع في مكة، وكان من أهمها مطبعة رابطة العالم الإسلامي، كما قام التجار بإنشاء عدد من المطابع الصغيرة

استعان الملك عبدالعزيز بالإمكانات الطباعية خارج البلاد وداخلها في طباعة كتب التراث والدعوة السلفية

بلغ عددها حتى عام ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ١٧ مطبعة.

وفي المدينة المنورة جاءت البداية مع مطابع الجامعة الإسلامية عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م، ثم كان مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف الذي افتتح في عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م بوصفه أكبر مجمع متخصص لطباعة القرآن الكريم في العالم، وإضافة إلى ذلك يوجد في المدينة ١٤ مطبعة تعمل لتلبية حاجات مجتمع المدينة.

وامتدت حركة المطابع إلى الطائف حيث قام فيها منذ عام ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م عدد من المطابع الأهلية

ـ **المنطقة الوسطى:**

بدأ العمل في مطابع الرياض ومؤسسها حمد الجاسر في عام ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م حيث صدرت صحيفة اليمامة من المطبعة، وبقيت مطابع الرياض سنوات عدة المطبعة الوحيدة في الرياض حتى توالى إنشاء المطابع فيها، منها مطابع الجزيرة،

والفرزدق، ومطابع شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة، والمطابع الأهلية للأوفست، كما أنشئت المطابع الخاصة بالجامعات والوزارات الحكومية، وتأتي في مقدمتها مطابع جامعة الملك سعود، ومطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والحرس الوطني.

واتسعت حركة الطباعة في الرياض حتى أصبحت من أهم المدن السعودية في عدد المطابع، وحركة الطباعة، فخلال السنوات من ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م إلى ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م بلغ مجموع المطابع التجارية المرخصة ٨٦ مطبعة.

ولم يقف هذا العدد عند الرياض، بل تجاوزه إلى مدن أخرى في الوسطى من مثل حائل، وبريدة وعنيزة في القصيم.

- المنطقة الشرقية:

يشير المؤلف إلى أن دخول المطابع إلى المنطقة الشرقية جاء تالياً للمنطقة الغربية، عندما تأسست شركة الخط للطبع والنشر في عام ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م، وفي عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، أسس خالد محمد الفرج المطبعة السعودية، ثم أسس علي بن حمد المطوع عام ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م مطابع المطوع، وعلى الرغم من توالي إنشاء مطابع أخرى إلا أن المنطقة لم تدخل في دائرة الطباعة الحديثة المتطورة إلا في عام ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م حين: «أسس هاشم حبيب رضا مطابع الوفاء في مدينة الدمام».

وفي الوقت الراهن تشهد مدن المنطقة الشرقية الرئيسة، وهي الإحساء والدمام والخبر والظهران والجبيل حركة طباعية نشيطة، إذ بها ٦٥ مطبعة تجارية حديثة.

- المنطقة الجنوبية:

كانت جيزان هي بوابة عبور الطباعة إلى منطقة الجنوب، وذلك حين سعى محمد بن أحمد العقيلي إلى تأسيس مطبعة جيزان بعد أن استصدر تصريحاً بذلك في عام ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ويشير المؤلف إلى الصعاب التي واجهت العقيلي في سبيل تشغيل مطبعته، وحتى بعد التشغيل لم تكن بمستوى الطموح الذي كان يأمله العقيلي نفسه فالمطبعة: «لم تحقق للأستاذ العقيلي ما كان يتوقع من مردود مادي، إلا أن روحه العالية وقناعته بالدور التنويري الذي تؤديه المطابع في ثقافة الناس دفعه بإصرار للمضي قدماً في تطوير المطبعة».

أما مدينة أبها، فلم تعرف الطباعة إلا في عام ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م عندما أنشأ إبراهيم اليحيى مطبعة الوديعة، وفي عام ١٣٩١هـ/١٩٧١م أنشأ عبدالله أحمد المنيعي مطبعة عسير، ومع بدء عملها كانت عجلة التطوير والتنمية تأخذ طريقها إلى المنطقة، مما استلزم تطوير المطبعة.

ولم تقف مسيرة الطباعة في منطقة عسير عند مدن أبها وخميس مشيط، بل امتد نشاطها حتى شمل بعض المدن الأخرى في المنطقة من مثل النماص وسبت العلايا وبيشة وبلجرشي والباحة.

خلاصة وتقويم

ويتبين مما سبق أن الطباعة - وإن بدأت حكومية عندما أنشأت الدولة العثمانية مطبعة الولاية في مكة المكرمة - كانت وسيلة تنوير وإشعاع، وأن المثقفين في البلاد أدوا دوراً كبيراً في إرساء دعائمها وترسيخ دورها، وهو ما أشار إليه المؤلف في خاتمته.

لقد عرض المؤلف في هذه الدراسة للبدايات المبكرة، وما واجهها من صعاب، مروراً بالمراحل التي مرت بها البلاد وما أحدثته التغيرات السياسية من انعكاسات مؤثرة في حركة الثقافة التي أثرت - بلا شك - في الجانب الاجتماعي، وفي ذلك ما يجعل لهذا الكتاب لوناً خاصاً في طرح القضايا ومعالجتها، مستنداً إلى ما وقف عليه المؤلف من معلومات وإحصاءات ومذكرات ومجموع هائل من مطبوعات الفترة الزمنية التي يغطيها هذا الكتاب.

وفي الحقيقة، فإن المؤلف عالج قضايا الكتاب بمنهجية واضحة، وبأسلوب رشيق، لكننا نراه في بعض الأحيان يكرر معلومات كان يمكن عدم تكرارها، ويستخدم أكثر من مصطلح للمعنى الواحد، من مثل لفظ جريدة (على سبيل المثال ص٢٢٣) وتارة لفظ صحيفة (ص٢٧١ على سبيل المثال)، وهو كذلك يستخدم مصطلح أتراك (على سبيل المثال ص ٢١٣ وانظر ص٣٦ للموازنة) في الفترة التي تحدث فيها عن العثمانيين.

إضافة إلى وجود بعض التداخل بين الفترات التي وزعت على الفصول، فعلى سبيل المثال، يقسم مراحل الطباعة في



الصفحة الداخلية «لمصحف المدينة النبوية»

الفصل الرابع إلى أربع، ولكننا نجد أن المرحلة الثالثة تتداخل بشكل لافت مع المرحلة الرابعة وهي الطباعة الحديثة التي لا يتحدث عنها المؤلف بشكل مستقل، بل تندرج ضمن المرحلة السابقة إلى عام ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، ثم يفرد لها المؤلف فصلاً مستقلاً هو الخامس، علاوة على أن معظم ماورد في الفصل الرابع تكرار لما جاء في الفصول السابقة أو هو خلاصته.

ومهما يكن، فإن هذه الملاحظات لا تضعف من قيمة الكتاب، ولا تقلل من الجهد الذي بذل في تأليفه وإسهامه في إضافة جديد إلى المعرفة المعلوماتية والمكتبية والتاريخية، إنه كتاب جدير بالقراءة والتقدير.

نور من عمق القرون

مجموعة كتاب　　مراجعة: **شاه رستم غياث**

كتاب صدر في عام ١٩٩٨م عن «اتحاد الشرق للنشر والطباعة» في أوزبكستان، مخصص للاحتفال بمرور ١٢٢٥ عامًا هجريًا على ميلاد الإمام البخاري - رحمه الله -، وهو مصدر بما يلي:

«إن مجلس وزراء أوزبكستان علمًا بأهمية التراث العلمي الديني الكبير للعلامة الإمام البخاري ابن وطننا الفذّ، ومكانته المنقطعة النظير في تطوير علم الحديث والحياة الروحانية لشعبنا، واحتفاظًا بتراثه، وإدراكًا لقيمته غير الزائلة، ولخلق ظروف مناسبة للاستفادة منه في تربية هوية الإنسان المتكاملة معنوياً وروحانيًا، ... يقرر أن يحتفل في عام ١٩٩٨م بالذكرى الـ١٢٢٥ - بالتقويم الهجري - لميلاد الإمام البخاري احتفالاً واسعاً».

وهذا من قرار حكومة جمهورية أوزبكستان، وقع عليه رئيس مجلس الوزراء إسلام كريموف، وهو قرار يحمل في طياته تقدير أوزبكستان وشعبها وحكومتها لإمام من أئمة الحديث الشريف، تقديراً يزخر بمسؤولية الحفاظ على تراثه والإفادة منه.

جاء هذا الكتاب في أربعة أقسام يسبقها تمهيد، تلقي الضوء على عهد الإمام البخاري وحياته وتراثه العظيم، وعلى أنواع من الثقافة والفنون في آسيا المركزية، ويحفل الكتاب بمجموعة من الصور النادرة لآثار تاريخية وتحف فنية.

أما التمهيد فيشير إلى فترة ركود وانقطاع عن الفكر والمفكرين الذين نشؤوا في أرض ما وراء النهر، بسبب الحكم الشيوعي السوفيتي الذي سيطر على «وطن الإمام البخاري» بضعة عقود، ويشير في الوقت نفسه إلى الانتفاضة الفكرية والثقافية بعد الاستقلال عن الاتحاد السوفيتي. وفي القسم الذي يبحث عهد الإمام البخاري ثلاث مقالات:

الأولى: ماوراء النهر في القرون من الثامن إلى العاشر الميلادية.

الثانية: مدينة بخارى في عهد الإمام البخاري.

الثالثة: لمحات من تاريخ علم الحديث في آسيا المركزية.

ونعرف من هذا القسم الأحوال التي كانت سائدة في بلاد ما وراء النهر، حيث كانت الممالك الصغيرة الكثيرة موزعة متناحرة - استعانت بالعرب الفاتحين بعضها ضد بعض - لكل منها عاصمة مستقلة، بدأ العرب بغزوها في سنة ٦٤٤م، وترد في المقالة أسماء كثير من القواد المسلمين الذين دخلوا البلاد، وفرضوا سيطرة المسلمين عليها، وطبقوا فيها الإسلام، أمثال: قتيبة بن مسلم. ولا شك أن تطبيق الإسلام تطبيقًا صحيحًا يشجع على الدخول في الدين الجديد مما نتج منه إسلام كثير من السكان بسرعة. ولا تغفل المقالة مقاومة أهالي البلاد ودفاعهم عن دينهم القديم، كما حصل في الدفاع عن حصن الصغد بقيادة أمير الصغد «ديفاشتيج الذي صلبه العرب بعد أسره».



نور من عمق القرون
مجموعة كتاب
طشقند: اتحاد «الشرق» للنشر والطباعة، ١٩٩٨م، ٢٤٦ص.

وكذلك نجد أن أكثر من أربعين قبيلة عربية انتقلت إلى ما وراء النهر، مثل قبيلة بكيل اليمنية وقريش ومضر وربيعة وتميم ... وكانوا يبنون قرى يعيشون فيها، ويبنون المساجد للصلاة ... وهذا ساعد على إسلام كثير من السكان المحليين أيضًا.

وعن مدينة بخارى في عهد الإمام البخاري تذكر المقالة الخاصة بها أنها لم تنتقل من مكانها الذي كانت فيه على عهد الإمام البخاري كما انتقلت مدن أخرى غيرها مثل سمرقند ومرو، ونعرف أن هذه المدينة كانت دائمًا مركزًا للإسلام ونوره حتى قبل ولادة الإمام البخاري - رحمه الله -، وفي هذه المقالة وصف لتقسيم المدينة وهيئتها التي كانت عليها بأبوابها السبعة وشوارعها وأحيائها ورباطاتها وفنادقها وخزانات المياه فيها، وكذلك فيها وصف للحرف والصناعات التي كانت سائدة، مثل صناعة السجاد والستائر، وصناعة الفخار.

ونتعرف في المقالة الثالثة إلى لمحات من تاريخ علم الحديث في آسيا المركزية، وهي آسيا الوسطى، وإلى أعلام الحديث، مثل عبد الله بن المبارك، ومثل تلاميذ البخاري، ومنهم محمد بن يوسف الفربْري، وفيما بعد جاء علماء أفاضل مثل محمد بن محمد السلمي المروزي، وعبد الله بن محمد الجنوجردي، وإبراهيم بن محمد الخالد آبادي، وإسحق بن محمد الحكيم السمرقندي، وغيرهم، كما نتعرف إلى مدارس كثيرة أُنشئت لتعليم الحديث في كثير من مدن آسيا الوسطى، مثل مدرسة سليمان بن معبد السنجي في بلدة سنج، ومدرسة الحرقاني، ومدرسة يحيى بن علي الحمدويهي.

وعن حياة البخاري وأعماله في القسم المخصص له نجد شرحًا وافيًا عن نشأة الإمام البخاري وخلقه وورعه وعلمه، وكذلك عن والده ووالدته وأجداده.

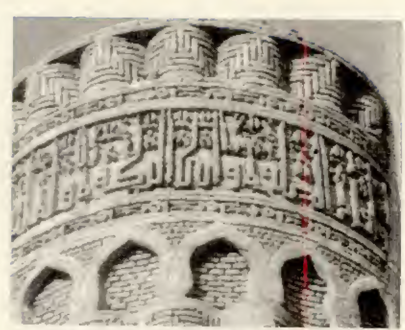
فقد وُلد البخاري في مدينة بخارى بعد صلاة الجمعة في الثالث عشر من شوال سنة ١٩٤ للهجرة، وتوفي أبوه عنه وهو صبي، فربته أمه تربية صالحة، فاهتم منذ صغره بالعلوم الإسلامية ودراسة الحديث، وقد صحح خطأً لأستاذه الداخلي وهو ابن إحدى عشرة سنة، ومن شيوخه في بخارى غير الداخلي محمد بن سلام البيكندي، ومحمد بن يوسف البيكندي، وإبراهيم بن أنس وغيرهم.

ونمضي مع البخاري في رحلته إلى مكة فالمدينة المنورة ثم البصرة والكوفة وبغداد، وقد درس في كل منها، وتلقى عن شيوخها، وأفاد الكثير منهم، مثل الإمام أحمد بن حنبل، ومحمد بن عيسى، وشريح بن النعمان، وغيرهم، كما زار مصر ودرس على شيوخها، وكان مجتهدًا في طلب الحديث متتبعًا شيوخه، وكان - رحمه الله - يعين تلاميذه وطلاب العلم عامة بالمال، فقد كان تاجرًا، وكان للمساكين في ماله نصيب، وكان يعتز بعلمه ويقدّره، فقد طلب إليه الأمير خالد بن أحمد الذهلي حاكم بخارى أن يأتيه بكتاب الجامع الصحيح حتى يسمعه له ولأولاده في قصره، فقال الإمام للرسول: أنا لا أذل العلم، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فطلب الأمير أن يكون له ولأولاده مجلس خاص لا يحضره غيرهم فامتنع الإمام


بخارى «منارة كلان» ١١٢٧م


خزف مطلي عليه زخارف نباتية، القرنان العاشر والحادي عشر

أربعون قبيلة عربية انتقلت إلى ما وراء النهر، وبنت القرى وأقامت المساجد، مما ساعد على إسلام كثير من السكان المحليين



جرقرغان، زخرفة خطية في الجزء العلوي من المئذنة



جزء علوي من خشب منقوش لعماد في آب بردان، القرنان الثامن والتاسع

البخاري أيضًا. فكاد له الأمير، وافترت جماعته على الإمام لصرف الناس عنه، فاضطر - رحمه الله - إلى هجر بخارى إلى بيكند، ولكن كيد الكائدين سبقه إلى هناك، فتركها إلى سمرقند، وكان الحال كسابقه، فما لبث أن توفي بعد مرض شديد، ليلة السبت ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦هـ رحمه الله رحمة واسعة، وغفر له وللمسلمين.

وقد تلمذ للبخاري خلق كثير منهم صاحب « الصحيح» الإمام مسلم، وصاحب «السنن» الإمام



اوزغاند: المئذنة، القرن الحادي عشر

النسائي، والترمذي وغيرهم، وقد سمع الحديث عند البخاري تسعون ألف رجل مباشرة، وكان بعض مشايخه يحضرون مجالسه، مثل عبدالله بن محمد المسندي، وعبدالله بن منير، وإسحق بن أحمد السرماري، ومحمد بن خلف وغيرهم.

وقد بلغت مصنفات الإمام البخاري أربعة وعشرين مصنفًا، عرّفت بها المقالة الخاصة بذلك، كما عرّفت بالجامع الصحيح مستقلاً، وذكرت فيه إجماع المسلمين على تفضيل هذا الجامع على كل كتب الأحاديث، وأنه المرجع الثاني بعد القرآن الكريم للمسلمين، وناقش سبب التأليف ووقته وملابساته،

وأحصت المقالة شروح صحيح البخاري، وقد بلغت واحدًا وثمانين شرحًا، كما بينت الكتب التي كتبت عن الصحيح بلغات غير العربية كالفارسية والأوردية، وكذلك ترجمات الصحيح كترجمة كريزون إلى الإنجليزية سنة ١٨٧٩م وغيرها.

وتورد المقالة ثناء كثير من العلماء على الإمام البخاري، مثل النسائي، والحكيم النيسابوري، وعلي بن المديني، وابن حنبل والترمذي...

وفي قسم التراث العظيم نجد حديثًا مطولاً عن الإمام البخاري، والعلوم الدينية في الشرق الإسلامي، وحديثًا آخر عن الإمام البخاري والفقه، ويساعدنا هذا القسم على معرفة مكانة البخاري وقدره وأخذه من هذه العلوم.

وفي القسم الأخير من الكتاب، وهو عن الثقافة والفنون في آسيا المركزية، نجد مقالات في العلوم والهندسة المعمارية والفنون والحرف، والموسيقا والغناء، والأعياد والشعائر والمسرح.

وختم الكتاب بخاتمة أجملت ما جاء فيه، كما حوى الكتاب قسمًا لصور الآثار التاريخية والتحف الفنية، مثل ضريح الإمام البخاري، وكثير من جوامع آسيا الوسطى ومناراتها، وكذلك بعض الخزفيات المزخرفة، وكلها آية في فن المعمار الإسلامي الممتزج بالفن الآسيوي المحلي، والمحلّى بالكتابة العربية.

إن هذا الكتاب جاء «نتيجة لمحاولة قام بها علماء أوزبكستان على عتبة الاحتفال بالذكرى المجيدة للعلامة العظيم لدراسة تراثه» وهو بحق تمجيد لذكرى أمير المؤمنين في علم الحديث، الإمام الجليل محمد بن إسماعيل البخاري، رحمه الله.

ردًا على خليل الصمادي:

الصحافة العربية في الهند أسئلة في حاجة إلى إجابات

ملأني الغضب بعد أن قرأت ما جاء في العدد ٢٧٠ من مجلة «الفيصل» الصادر في ذي الحجة ١٤١٩هـ تحت عنوان «الصحافة العربية في الهند» بقلم خليل محمود الصمادي؛ فكتبت غاضباً صفحة أوضحت فيها ما كتب من معلومات غير دقيقة، لا أدري من أين حصل عليها.. وكعادتي تريثت.. وهدأت، ثم مزقت ما كنت كتبت.

لكن مجلة الفيصل باقية أمامي، أتصفحها أحيانًا، فتقع عيناي على ما كتبه الأخ الفاضل خليل محمود الصمادي، وترددت كثيراً في الكتابة، لكني فكرت فعسى أن يكون لدى الكاتب رد على أسئلتي، فيكون في ذلك فائدة لي، ولمن هم على شاكلتي ممن يتشوقون إلى معرفة الجديد مما لا يعرفون، وهكذا قررت أن أكتب إلى الفيصل لتنشر هذا التعقيب، أو ترسله إلى الأستاذ خليل، فلعله يفيدنا بما لديه من معلومات طيبة عن الصحافة العربية في الهند ـ وأقول باختصار:

ـ حاول الكاتب أن يوثق مقاله الذي احتل خمس صفحات فأورد تحت عنوان الهوامش والمراجع خمسة هوامش الأول منها للدكتور محمد شاهين، عوامل تنمية اللغة، وآخر يتعلق بعلماء العرب في الهند، والخامس إشارة لما كتبته مجلة الفيصل عن نبأ وفاة عالم من العلماء. وكنت أتوقع أن يذكر مرجعًا واحدًا مهمًا في الموضوع وهناك عدد ـ من المراجع ـ لا بأس به.

ـ كتب المؤلف: «ولا عجب أن نقول: إن الهند عرفت الصحافة العربية قبل أكثر البلدان العربية» هكذا من دون أن يفصل الكاتب عبارته أو يشرح كيف، وهذا رأي يحتاج إلى مراجعة.

ـ خلط الكاتب بين الصحف والمجلات، وبين الصحف والمجلات الأردية والأخرى العربية، ومن هنا كانت بداية الطريق الذي سلكه، بعيدة كل البعد عن هدفه، ولا تقوده إلى مقصده، وهكذا جانبه الصواب، فقد ظن أن كل اسم عربي يعني أنه لمجلة عربية، علماً بأن اللغة الأردية تستخدم الألفاظ العربية، وبخاصة الأسماء مثل الهلال وتهذيب الأخلاق وغيرها.


الشيخ جمال الدين الأفغاني

ـ لا أود أن أتتبع المقالة فقرة فقرة أو سطراً سطراً لكني سأذكر مثالاً أو مثالين.

المثال الأول: يذكر الكاتب في ص ٥٤ تحت عنوان «المجلات» ما يلي:

«أولى المجلات الصادرة في الهند هي مجلة «الرابطة العلمية» أصدرها السيد أحمد الدهلوي وزير المعارف السابق في عليكره عام ١٢٨١ هجرية ثم صدرت بعدها «تهذيب الأخلاق» عام ١٢٩٣هجرية .....» إلى أن يقول: «وفي عام ١٩٢٠م أصدر السيد سليمان الحسني الندوي مجلة

«المعارف» في حيدر آباد».

والملاحظ أن مجلة «الرابطة العلمية» لم تكن باللغة العربية، والذي أصدرها شخصية بارزة هو سيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكره الإسلامية الحالية، ولم يكن أبدًا وزيرًا للمعارف، والذي تولى وزارة المعارف أي التعليم من المسلمين هو أبو الكلام آزاد، والمجلة وإن شئنا الدقة، الصحيفة التي صدرت كان اسمها «أخبار ساينتيفك سوسايتي» أي مجلة الجمعية العلمية التي تحولت فيما بعد إلى جرنال معهد عليكره أو «عليكره إنستيتيوت جازيت»، وبدأت هذه الصحيفة ـ ولا نقول المجلة ـ في الصدور ـ من عليكره في كل أسبوع في عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م ثم صدرت كل ثلاثة أيام، وكانت تنشر مقالاتها بالإنجليزية والأردية.

وبعد عودة سيد أحمد خان من إنجلترا في ديسمبر ١٢٨٧ هجرية/١٨٧٠م أصدر مجلة «تهذيب الأخلاق» فكانت مجلة شهرية تصدر باللغة الأردية، ونالت شهرة واسعة، وجاء في افتتاحيتها ما يلي:



محمد إقبال

«بس همارا مطلب هندوستان كي مسلمان بهائيون أوراس مقصد كي لي يه برجه جاري كرتي هين تا كه بذريعه اسي برجه كي جهان تك هوسكي ان كي دين ودنيا كهي بهلائي مين كوشش كرين»، وترجمتها:

«إن هدفنا فقط هو إخوتنا من مسلمي الهند، ومن أجلهم تصدر هذه المجلة، فعن طريقها سنحاول بقدر ما نستطيع أن نعمل لخير دينهم ودنياهم».

وقد عطلت «تهذيب الأخلاق» بعد نصف سنة، وأعيد إصدارها بعد ثلاث سنوات، ثم عطلت وأصدرت، وهكذا بسبب مشاغل سيد أحمد خان.

كما أن مجلة المعارف واسمها «معارف» لم تكن تصدر بالعربية، فهي مجلة أردية شهرية كانت تصدر عن دار المصنفين في أعظم كره، وصدر أول عدد منها في يوليو / تموز ١٩١٦م، واهتمت بنشر المقالات العلمية والأبحاث الجادة.

المثال الثاني: في الصفحة نفسها ذكر أبا الكلام آزاد، وأنه أصدر عدة مجلات عربية منها «الندوة» وأقول: إن أبا الكلام علم من أعلام المسلمين بالهند، كتب عنه الدكتور النمر كتابا ضخمًا (أكثر من ٥٠٠ صفحة) طبع في القاهرة، والرجل ولد في مكة المكرمة، وقضى أيام طفولته بالحجاز، وانتقل مع أسرته إلى الهند حيث أكمل تعليمه في مدينة كلكتا، وزار العراق والشام ومصر وتركيا وفرنسا وإنجلترا، واجتمع بجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ثم أسس جماعة سماها حزب الله، وأسس مدرسة سماها «دار الإرشاد» على نمط دار الدعوة والإرشاد التي أسسها الشيخ محمد رشيد رضا، وعمل بالصحافة منذ صغره، فساهم في الصحف الأردية التالية: المصباح، وأحسن الأخبار، وتحفة محمدية، ولسان

الصحافة العربية في الهند

خليل محمود الصمادي

ليست العربية للعرب وحدهم، بل هي لغة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كرمها الله عز وجل منذ أن نزلت بها آيات القرآن الكريم، وحملها الفاتحون المجاهدون معهم إلى الأصقاع البعيدة، يعلمونها الناس امتثالاً لأوامر الله عز وجل ونبيه الكريم، وأقبل المسلمون من عرب وعجم على تعلم هذه اللغة والإخلاص لها، ونذروا حياتهم لخدمتها.



صورة عن المقالة السابقة

الصدق، وأخيراً الهلال، والبلاغ، وبيغام (أي الرسالة)، وشارك في تحرير «الندوة»، و«وكيل»، وما أصدره بالعربية كان دورية شهرية باسم الجامعة (جامعة ندوة العلماء في لكنهو) إلا أنها لم تصدر مدة طويلة، وكانت تساند الملك عبدالعزيز - طيب الله - ثراه في تلك الأيام، وقد أصبح آزاد وزيراً للتعليم بالهند بعد الاستقلال.

وقد أصدر مجلة الهلال التي اهتمت بنشر أخبار العالم الإسلامي، وكانت أردية مصورة، وكان هدفها إصلاح أحوال المسلمين، وكان من كتابها الشاعر محمد إقبال، وسيد سليمان الندوي، ومولانا شبلي النعماني، وصادرتها الحكومة الإنجليزية في نوفمبر / تشرين الثاني سنة ١٣٣٣هجرية، وعادت للصدور مرة أخرى، وأصدر عام ١٣٤٠هـ صحيفة بيغام أي الرسالة من كلكتا، وتوقفت كما توقفت صحيفته «همدرد»، أي التعاطف أيضًا عام ١٣٤٨هجرية، فأعاد إصدار الهلال في عام ١٣٤٦هجرية، وكانت من الصحف الأسبوعية المتميزة، وشعر أهل الأردية بالأسف لتوقفها.

سمير عبد الحميد إبراهيم

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ردًا على محمد قاسم هرموش:

أسرار أخرى لصعوبة الإملاء في اللغة الإنجليزية

في العدد (٢٦٤) من مجلة الفيصل الغراء تناول الدكتور محمد قاسم هرموش موضوعًا عن سرّ صعوبة الإملاء في اللغة الإنجليزية، وزيادة في البحث وإضافة أبعاد جديدة إلى الموضوع ذاته، رأيت من واجبي بصفتي مدرسًا لهذه المادة أولاً، بعد بحث في المراجع أضيف هذه الأسرار.

يرجع السبب الأول في صعوبة إملاء كلمات اللغة الإنجليزية أو هجائها إلى اختلاف النطق سماعًا عن شكلها كتابة، لذلك يجب أن نربط بين Phonemes، وهي الأصوات الملفوظة التي تتميز به كلمة من أخرى، أو نطق الكلمة، وGrapheme، وهو شكل الكلمة المكتوب، ولتوضيح ذلك نأخذ كلمة Sheap لو مثلناها برموز صوتية لكان الصوتي /SI:P/، ولكن شكلها الكتابي يمكن أن يكون Sheeb أو Sheap أو shepe ونأخذ مثالاً آخر كلمة شكلها الصوتي (rit). لكن شكلها عند الكتابة يكون Write أو Right فاختلاف الشكل المسموع عن الشكل المكتوب أحد أسرار صعوبة الهجاء أو الإملاء.

كان عدد حروف الهجاء في اللغة الساكسونية أربعة وعشرين حرفًا مكتوبًا هي حروف اللغة اللاتينية العشرون بالإضافة إلى أربعة أحرف جديدة، وكان عدد هذه الحروف يجب أن يجاري أربعين صوتًا، وبعد تلك الفترة تم تمييز زمنi، وبمنu، وتمت إضافة حرف w، ولا تزال هناك عدة أصوات يرمز لها بعدة حروف مثل S فإنه يمثل sh، وكذلك ts فإنه يمثل ch أوdZ فإنه يمثل j ، وقد أظهرت دراسة للغة وكلماتها أن هناك ١٣.٧٪ طريقة هجاء لكل صوت، لكن هناك ٣.٥٪ أصوات ونصف الصوت فقط لكل حرف(١).

وبعد الاحتلال النورماندي، أعاد الكُتّاب (الغربيون) هجاء كثير من كلمات اللغة مُدخلين اصطلاحات جديدة مثل إحلال qu بدلاً من cw في كلمة Queen وإحلال gh بدلا من h في كلمة Ninght ووضع حرف C قبل e أو i في كلمات مثل Circle و Cell.

وقد سببت عملية الطباعة تعقيدات؛ لأن المطابع الأولى كانت هولندية في الغالب، وكانت تستخدم اللغة النورماندية، وكان ضبط سطور الكتابة من القرن السادس عشر غالبًا ما يتم

باختصار وتقليص للكلمات أو بإضافة حروف زائدة على الكلمات وكان على رأسها حرف e أكثر من ترك مسافة.

ولم يجار نظام الكتابة تغييرات الأصوات التي أثرت في اللغة خصوصًا بعد إدخال الطباعة والانقلاب الكبير للأصوات المتحركة في القرن الخامس عشر وكان هو السبب الأساسي لاختلاف هجاء حروف العلة في كلمات مثل Sweet, House, Way, Ride, Name وبالمثل الحروف التي كانت تنطق في الإنجلو - ساكسون أصبحت ساكنة مثل حرف (K في Know أو Knight ومثل حرف e إذا وقع في آخر الكلمة مثل Stone أو Love، وهكذا.

وفي القرن السادس عشر كان هناك موجة لجعل الهجاء يعكس الاشتقاق من اللاتينية أو الإغريقية مثل g التي أضيفت في كلمة Reign من كلمة Regno اللاتينية، وأيضًا حرف b في كلمة Debt من كلمة Debitum ولسوء الحظ إن حروفًا عديدة لا قيمة لها أضيفت مثل s في Island، وسبب إضافتها الاعتقاد السائد بأنها أتت من اللاتينية Insula إلا أن الحقيقة أن هذه الكلمة إنجلو ساكسونية الأصل.

وفي أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر أتت بعض الكلمات الدخيلة على اللغة الإنجليزية من اللغات الفرنسية، واللاتينية، واليونانية، والإسبانية، والإيطالية والبرتغالية فجعلت من السهل جدًا أن نرى أجزاءً جديدة من الهجاء مثل que أو zz أو LL وجعلت من تعلم الهجاء بطريقة سليمة أمرًا أكثر تعقيدًا وصعوبة خصوصًا في الكلمات الطويلة مثل: Piazza أو Galleon أو Brusque أو Harass.

مسألة لغوية

سر صعوبة إملاء اللغة الإنجليزية

د. محمد قاسم هرموش

صورة عن المقالة السابقة

والنتيجة أن نظام الهجاء خليط من موروثات عديدة يستخدم الأنجلو ساكسون، والفرنسية ومقاطع الهجاء العادية التقليدية، فالنظام الهجائي بصفة أساسية سماعي، لكن الأصوات يتم تمثيلها بوحدات الحروف أو بحرف واحد، بالإضافة إلى أن الهجاء يحتفظ بكثير جدًا من المعلومات عن العلاقة بين الكلمات مثل: (Author و authority) و (SignوSignature) ومكن ذلك من رؤية علاقات مع لغات أخرى، بها كلمات متشابهة في الهجاء، فالأجانب الذين عندهم معرفة بالقراءة للإنجليزية يساعدهم هذا التشابه بين اللغات إلى حد كبير، لكن المهمة التي تواجه الطفل المتعلم لهذه اللغة تبقى كبيرة إلى حد ما، ومن الصعوبة بمكان مما يتطلب أقصى درجات الدقة والمراجعة.

ويقع الخطأ في الهجاء بإحدى هذه الطرائق الأربع، وهي:

- حذف الحروف.
- إضافة الحروف.
- إبدال الحروف.
- إقلاب الحروف(٢).

وختامًا، أرجو المعذرة عن الإطالة عليكم وأشكر لكم إتاحة الفرصة لي للإدلاء بدلوي في هذا الموضوع المهم الذي يمس قطاعًا عريضًا من متعلمي هذه اللغة ودارسيها ومعلميها.

محمد الروبي عبدالوهاب
مدرس اللغة الإنجليزية -
متوسطة علقان - حقل - تبوك

المراجع:

1 -Dewey, G. 1971. English spelling: Roadblock to reading. New Yourk: Columbia University press.
2- Crystal,D 1997. The Cambridge Encyclopedia of english Language. New York. Cambridge University press.

الملف الثقافي

ندوة «الدعوة في عهد الملك عبد العزيز»

رحيل الشيخ علي الطنطاوي والموسوعي منير البعلبكي

تكريم نازك الملائكة والمشري والسقاف

باريس تحتفل بذكرى نزار قباني

مئوية بورخيس وشتراوس وسبعينية الطيب صالح

مؤتمر العمارة التقليدية بدبي

«مصيدة الفئران» للبيع

أحدث الإصدارات والدوريات



خاتمة المطاف:
نسخ مقامات الحريري: احتفاء بالصور والرسوم



سمو الأمير خالد الفيصل

خالد الفيصل يرعى معرض الكتاب بأبها

تحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبدالعزيز أمير منطقة عسير، تقيم جامعة الملك سعود بالاشتراك مع جامعة الملك خالد معرضاً للكتاب في مركز أبها الدولي للمعارض في الفترة من ٤ إلى ١٤ ربيع الآخر عام ١٤٢٠هـ (١٧ ـ ٢٧ يوليو/ تموز ١٩٩٩م)، انطلاقًا من أهمية معارض الكتب في تفعيل الحركة الثقافية.

يجيء هذا المعرض الذي يقام بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ـ متزامناً مع مهرجان عسير للتنشيط السياحي، حيث تشهد المنطقة إقبالاً واضحًا من المواطنين والمقيمين والزوار من دول التعاون الخليجي. وقد أعلنت اللجنة التنفيذية المنظمة لمعرض الكتاب قواعد الاشتراك في هذا المعرض، ومن أهمها أن تمنح دور النشر المشاركة حسماً مناسباً لهذا المعرض، تشجيعًا لرواده على ألا يقل عن ٢٠٪ من السعر الأساسي.

ويفتح المعرض أبوابه للجمهور في الفترة الصباحية، من الساعة ٩.٣٠ صباحًا إلى الساعة ١.٣٠ ظهراً، وفي الفترة المسائية من الساعة ٤.٣٠ مساءً إلى ١٠.٠٠ مساءً، ما عدا يوم الجمعة حيث تكون هناك فترة واحدة من الساعة ٤.٣٠ مساءً إلى الساعة ١٠.٣٠ مساءً.

وتتم مراسلة اللجنة التنفيذية المنظمة لمعرض الكتاب على العنوان التالي:

جامعة الملك سعود ـ عمادة شؤون المكتبات
ص.ب: ٢٢٤٨٠ ـ الرياض ١١٤٩٥
هاتف: ٤٦٧٦١٧٢ ـ ٤٦٧٦١٧١
فاكس: ٤٦٧٦١٦٢ ـ ٤٦٧٦١٧٠



غلاف مجلة «أدماتو»

«أدماتو» مجلة آثارية جديدة

تعد مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية لإصدار مجلة آثارية متخصصة باسم «أدماتو» تعنى بآثار العالم العربي، وتصدر نصف سنوية (يناير ـ يوليو من كل عام)، وسوف يصدر العدد الأول ـ إن شاء الله ـ في شوال ١٤٢٠هـ/يناير/كانون الثاني ٢٠٠٠م، والمجلة موجهة بشكل خاص إلى: الآثاريين، والإنثروبولوجيين، والمؤرخين، والبيئيين، ومؤرخي الفنون، وتكمن أهمية هذه المجلة في أن الساحة العربية في الوقت الراهن تكاد تكون خالية من وعاء علمي يجمع بين الباحثين الأكاديميين في مجال

سمو الأمير نايف بن عبد العزيز

الدعوة في عهد الملك عبدالعزيز

تحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز وزير الداخلية، نظمت وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بقاعة الملك فيصل بفندق الإنتركونتننتال ندوة بعنوان «الدعوة في عهد الملك عبدالعزيز» وذلك في الفترة من ٢١ إلى ٢٤ صفر الماضي عام ١٤٢٠هـ/الموافق ٥ إلى ٨ يونيو/حزيران الماضي عام ١٩٩٩م.

وفي أولى جلسات الندوة ـ التي ترأسها معالي الدكتور عبدالعزيز السعيد والدكتور محمد التركي مقرراً ـ قُدم بحثان: الأول قدمه الدكتور أحمد بن عبدالعزيز البسام وكان بعنوان «الدعوة قبل عهد الملك عبدالعزيز»، والثاني بعنوان «السمات الدعوية في شخصية الملك عبدالعزيز»، قدمه معالي الدكتور محمد بن سعد الشويعر.

وترأس الجلسة الثانية معالي الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد، والشيخ عبدالعزيز العمار مقرراً، وقُدم فيها أيضاً بحثان: الأول حول وسائل تأهيل الداعية، قدمه الشيخ عبدالله بن حمد الشبانة، والثاني بعنوان «الإفادة من الوسائل الحديثة في الدعوة» قدمه الدكتور علي بن إبراهيم النملة.

وفي النشاطات الصباحية المصاحبة للندوة ـ التي بدأت صباح يوم ٢٢ صفر الماضي ـ أُقيمت ثلاث محاضرات تحدث في الأولى الدكتور محمد العبدالكريم عن

الحاسب الآلي، وفي الثانية الدكتور سليمان الميمان عن البرامج الإسلامية على الحاسب الآلي، وفي الثالثة عن مدخل للتعريف بشبكة الإنترنت تحدث الدكتور عبدالقادر الفنتوخ، وقدم لهذه المحاضرات الشيخ سليمان الطريم.

وفي اليوم الثاني تضمنت النشاطات الصباحية تقديم ثلاث محاضرات، الأولى قدمها الدكتور عبدالله الهابس تحدث فيها عن استثمار الإنترنت في الدعوة، وقدم الثانية الدكتور بدر بن حمود البدر، وكانت حول المواقع الإسلامية على الإنترنت، والثالثة كانت عن موقع الوزارة على شبكة الإنترنت قدمها الدكتور مساعد بن إبراهيم الحديثي.

وعلى صعيد الجلسات المسائية في اليوم نفسه أقيمت الجلستان الثالثة والرابعة حيث ترأس الثالثة الدكتور علي بن مرشد المرشد، والدكتور عبدالله الزيد مقرراً، وتضمنت محاضرتين: قدم في الأولى الدكتور عبدالله بن محمد العجلان بحثاً بعنوان «خصائص المنهج الدعوي عند الملك عبدالعزيز»، وتحدث في الثانية الدكتور عبدالرحمن بن زيد الزنيدي عن «مظاهر التزام الملك عبدالعزيز بالمنهج وأثر ذلك فيمن بعده».

أما الجلسة الرابعة فقد رأسها الدكتور عبدالله بن يوسف الشبل ومقررها الدكتور صالح بن حسين العايد وقدمت خلالها ثلاثة بحوث: الأول حول تحقيق الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ مرجعية الدعوة، قدمه الدكتور صالح بن عبدالله العبود، وتحدث الدكتور عبداللطيف بن عبدالله بن دهيش في البحث الثاني عن صفات الملك عبدالعزيز وسيرته، أما البحث الثالث فقد تحدث فيه الباحث عبدالرحمن الجريوي عن عناية الملك عبدالعزيز بالدعوة والدعاة.

وتضمنت النشاطات الصباحية المصاحبة للندوة في يومها الثالث ←

الآثار باللغتين العربية والإنجليزية تتاح فيه الفرصة لتلاقي الأفكار وتبادل الرأي والوصول إلى تصور مشترك حول كثير من القضايا التي يحتاج العالم العربي إلى الوصول فيها إلى لغة متقاربة ورأي متواصل يساعد على خلق فهم بناء للتراث والحضارة العربية، بعيداً عن النوازع والأهواء التي قد تحيد بالبحث العلمي عن الطريق القويم.

أ. د. عبدالرحمن الأنصاري

تتكون هيئة تحرير المجلة من الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري رئيساً، وعضوية كل من الدكتور خليل بن إبراهيم المعيقل، والدكتور عبدالله بن محمد الشارخ.

وقد أخذ اسم هذه المجلة «أدماتو» من الاسم القديم لمدينة «دومة الجندل التي تقع في محافظة الجوف شمال المملكة العربية السعودية»، أحد أبرز المواقع الأثرية في الجزيرة العربية.

وتنشر المجلة البحوث في المجالات الآتية:

- الأبحاث والدراسات العلمية عن الكشوفات الآثارية في العالم العربي.
- دراسات عن الآثار في العالم العربي.
- قضايا المصطلحات الآثارية.
- تقارير عن الندوات والمؤتمرات العربية والعالمية حول آثار العالم العربي.

وللمجلة مجلس استشاري يضم نخبة من علماء الآثار من داخل المملكة وخارجها.

عنوان المراسلة:

مجلة أدماتو
ص.ب: ١٠٠٧١ الرياض ١١٤٣٣
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٠٣٦٧٨٠ (٩٦٦١+) ، ٤٠٣٤٧٥١ (٩٦٦١+)
فاكس: ٤٠٢٢٥٤٥ (٩٦٦١+)
بريد إلكتروني: Adumatu @ suhuf.net.sa

مؤتمر العمارة التقليدية بدبي

انعقد بفندق شاطئ الجميرا بدبي خلال الفترة من ٢٤ إلى ٢٦ مايو/ آيار الماضي ـ مؤتمر «العمارة بين التقليد والحداثة».

وكان المؤتمر ـ الذي عقد تحت رعاية الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم نائب حاكم دبي ووزير المالية والصناعة ورئيس بلدية دبي ـ قد ختم أعماله وأصدر عدداً من التوصيات أبرزها: الدعوة إلى المحافظة على المباني التاريخية القديمة، ودعوة الجامعات وكليات الهندسة إلى الاهتمام بالعمارة التقليدية من خلال مقرراتها الدراسية، والدعوة إلى إحياء التراث القديم ومزجه بالحديث، وغير ذلك من التوصيات التي تدعو إلى الاهتمام بالعمارة التقليدية والمحافظة عليها.

في ذكرى سعدالله ونوس

سعدالله ونوس

تحت عنوان «عند سعدالله لنلتقي»، احتفلت الممثلة السورية فايزة شاويش بالذكرى الثانية لرحيل زوجها الكاتب المسرحي سعد الله ونوس.

وقد شهدت قرية «حصين البحر» مسقط رأس الكاتب ومثوى رحيله الأخير احتفالاً ثقافيًا شهده عدد كبير من الشعراء والفنانين والممثلين وجمهور غفير حضروا من كل مكان في سورية والوطن العربي.

تحدث في الاحتفال طلال سلمان رئيس تحرير جريدة السفير، والتي شغل فيها ونوس منصب رئيس القسم الثقافي عدة سنوات، وقال: إن بصمات الراحل مازالت شاهداً في جريدتنا، وتحدث أيضاً الفنان رفيق السبيعي فوعد أن يديم هذا الاحتفال سنوياً وفاءً وعرفاناً لذكرى هذا الفنان الكبير. أما الأديب زاهي وهبة فقد رأى في مؤلفات ونوس خلاصًا للمسرح العربي، واقترح أن تدرّس هذه المؤلفات في المعاهد الفنية والمسرحية.

قُدم بعد ذلك عدد من العروض المسرحية لفرقة فواز الساجر، وفرقة المسرح القومي في دمشق، وبعض الأغاني الدينية قدمها الفنان بشار زرقان مع عزف منفرد على العود.

الخرطوم تحتفل بسبعينية الطيب صالح


الطيب صالح

تجري الاستعدادات في العاصمة السودانية الخرطوم للاحتفال بالعيد السبعين لميلاد الكاتب الطيب صالح الذي يوافق فبراير/ شباط ٢٠٠٠م، وتنوي اللجنة التحضيرية للاحتفال أن يكون التكريم في شكل مبتكر يتمثل في إصدار كتاب عن المحتفى به تحت عنوان «الطيب صالح مفكراً وروائيًا وشاهداً على عصره»، وشراء دار تسمى «دار ضو البيت» تلحق بها مكتبة تضم أعمال الكاتب الكبير وكل ما كتب عنه.

وقد صرح الدكتور حسن أبشر الطيب، مقرر اللجنة التحضيرية للاحتفال «أن الطيب صالح أحد أعمدة الرواية العربية، وتعد أعماله عند الغالبية من النقاد فتحًا جديداً في عالم الرواية العالمية يدخل عامه السبعين، واعتزازاً بإسهاماته الرائدة والثرة، وبوصفه رمزاً من الرموز الوطنية والقومية قررت مجموعة من أصدقاء الأديب الكبير وزملائه الاحتفال بهذه المناسبة».

والجديد بالذكر أن اللجنة التحضيرية للاحتفال تضم في عضويتها عدداً كبيراً من مفكري السودان وأدبائه.

محاضرتين: تحدث في الأولى الدكتور سيد محمد ساداتي عن المآخذ والإيجابيات في القنوات الفضائية، وفي الثانية تحدث الدكتور عبدالقادر محمد طاش عن واقع البرامج الإسلامية في القنوات الفضائية.

وأوصى المشاركون في الندوة في ختام أعمالها بالاهتمام والعناية بالدعوة واتباع منهج السلف الصالح في السعي لإعلاء كلمة الله، وأشارت التوصيات إلى مناصرة الملك عبدالعزيز وأبنائه البررة من بعده دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ونادت بالتصدي لأصحاب الأهواء والأغراض وتفنيد ما يروجونه ضد المملكة ومناهجها في الدعوة إلى الله.

وأوصت الندوة كذلك بأن تكون كلمة صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز التي ألقاها في افتتاح الندوة وثيقة من وثائقها، وساقت الشكر لسموه لتخصيص جائزة باسم سموه لأفضل بحث يتم إعداده في مجال الدعوة.

وفي الختام رفع المشاركون في الندوة شكرهم وتقديرهم لخادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين وسمو النائب الثاني وسمو وزير الداخلية، على ما تلقاه الدعوة والدعاة من دعم وتأييد واهتمام، ولما وفرته حكومة خادم الحرمين الشريفين لوزارة الشؤون الإسلامية من وسائل مكنتها من أداء مهامها.

رحيل الشيخ علي الطنطاوي

توفي فضيلة الشيخ علي بن مصطفى الطنطاوي عن عمر يناهز الخمسة والتسعين عاماً قضاها في أعمال الخير والبر والدعوة إلى الله.

فقد كان ـ رحمه الله ـ أحد أبرز العلماء الموسوعيين الذين تميزوا بتعدد ثقافاتهم، فهو أديب وراوية، ومؤرخ، وحقوقي، وناقد، وخطيب، وصحفي، وعالم مجتهد، ساهم بفكره وعلمه وجهده في الدعوة إلى الله، ألّف أكثر من ٣٥


الشيخ الطنطاوي

كتاباً، جاء معظمها عن الإسلام والإعلام والإصلاح، إضافة إلى مئات المقالات والمشاركات العلمية والأدبية ... وتظل برامجه الإذاعية والتلفزيونية علامة بارزة في تاريخه الدعوي، فقد كان له برنامج إذاعي يومي بعنوان «مسائل ومشكلات»، وبرنامج تلفزيوني بعنوان «نور وهداية»، إضافة إلى برنامجه السنوي «على مائدة الإفطار» الذي يُبث في رمضان، والذي استمر نحو ربع قرن، حتى بعد أن توقف الفقيد عن تقديم هذه الحلقات ظل التلفزيون يعيد حلقاته القديمة استجابة لرغبة المشاهدين.

ولد الشيخ الطنطاوي - رحمه الله - في دمشق عام ١٩٠٩م، وتعلّم تعليماً عصرياً، ودرس اللغة الفرنسية، ونال شهادة البكالوريا الأولى، ثم البكالوريا الثانية، ثم التحق بكلية الحقوق ونال شهادتها، وعمل في التدريس والصحافة في سن مبكرة، وعمل في القضاء حتى أصبح عضو محكمة التمييز «النقد والإبرام».

انتقل إلى السعودية عام ١٩٦٢م، وعمل في التدريس في كلية اللغة العربية وكلية الشريعة في الرياض، ثم انتقل إلى العمل في كلية الشريعة في مكة المكرمة، ثم تفرغ للعمل بعد ذلك في مجال الإعلام.

وقد فاز - يرحمه الله - بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام في عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

شارك عدد كبير من الناس - قُدر ←

الكتاب المصري في السودان

تحت رعاية وزير الثقافة والإعلام السوداني، وبعد انقطاع دام ست سنوات، أقامت الدار القومية العربية للثقافة والنشر بوزارة الثقافة والإعلام المصري، بالتعاون مع مجلس الصداقة الشعبية العالمية، معرضاً للكتاب المصري في السودان.

وقد وجد المعرض إقبالاً كبيراً، وحقق أهدافه التجارية والثقافية والاجتماعية.

وقد أوضح الأستاذ صلاح نور مدير الدار القومية للثقافة والنشر أن المعرض تضمن أنواع الكتب العربية والغربية كافة، وأشاد بدور مجلس الصداقة الشعبية العالمية في عودة العلاقات المصرية السودانية.

ندوة عن الزكاة في عمان

عقدت في العاصمة الأردنية عمان الندوة التاسعة لقضايا الزكاة المعاصرة في الفترة من ١٠ إلى ١٣ من المحرم عام ١٤٢٠هـ (٢٦-٢٩ أبريل/نيسان الماضي).

افتتح الندوة - نيابة عن الملك عبدالله بن الحسين - الأمير غازي بن محمد مستشار الملك لشؤون العشائر، وشارك فيها عدد من أصحاب الفضيلة الفقهاء والخبراء والباحثين، وقدم فيها عدد من الأبحاث شملت:

- معادلة الأوزان والمكاييل الشرعية بالأوزان والمكاييل المعاصرة.
- النما.
- مصرف ابن السبيل وتطبيقاته المعاصرة.
- موضوع كتاب دليل الإرشادات لمحاسبة زكاة الشركات.

مجلة المستقبل تتحول إلى صحيفة يومية


رفيق الحريري

صدر في لبنان في ١٤ يونيو/حزيران الماضي العدد الأول من صحيفة المستقبل، والمعروف أن المستقبل كانت مجلة يملكها الوزير اللبناني السابق هنري أده، ثم انتقلت الملكية إلى الصحافي نبيل الخوري، فقام بإصدارها من باريس، وظلت كذلك حتى آلت ملكيتها إلى رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري.

والجدير بالذكر أن الرئيس الحريري يملك مع هذا الإصدار كثيراً من الامتيازات لمجلات وصحف لبنانية، إضافة إلى تلفزيون المستقبل وقناته الفضائية، وإذاعة الشرق الأوسط التي تبث من باريس وبيروت.

ويرأس تحرير هذه الصحيفة الوزير السابق الفضل شلق، وقد تعهد في كلمة الافتتاح في أول عدد يصدر من الصحيفة أن تتجاوز الصحيفة مسألتي المعارضة والموالاة في الداخل وفي المجال العربي، وأن يكون الهم الوطني هدفها الأول.

منير البعلبكي

بيروت تودع صاحب المورد

شيعت بيروت يوم السبت ١٩ يونيو/حزيران الماضي عام ١٩٩٩م، الكاتب والباحث والمترجم اللبناني منير البعلبكي عن عمر يناهز ٨١ عاماً قضاها في البحث والتنقيب والتدقيق والتأليف.

تخرج الموسوعي الراحل في الجامعة الأمريكية متخصصاً في الأدب العربي والتاريخ الإسلامي، وعين أستاذاً في الجامعة نفسها، ثم تنقل بعد ذلك في عدد من الجامعات حتى ترك التدريس عام ١٩٥٤م ليؤسس بالاشتراك مع بهيج عثمان. «دار العلم للملايين».

انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وساهم في تأسيس اتحاد الكتاب اللبنانيين مع سهيل إدريس وأدونيس وقسطنطين زريق وغيرهم، ولكن أهم الإنجازات التي ارتبطت باسمه هي تأليفه للقاموس «المورد» (عربي - إنجليزي)، الذي لا يزال من ألمع القواميس في مجاله.

يعد الأستاذ منير من خيرة المترجمين العرب، وقد نقل إلى العربية كثيراً من الأعمال الغربية في سلسلة سماها «روائع الأدب العالمي»، نذكر منها «البؤساء» لفيكتور هوجو، و «قصه مدينتين» لشارلز ديكنز، و «كوخ العم توم» لهرييت ستاو، وغير ذلك من الروائع.

مومياء جديدة في الواحات البحرية

في مساحة طولها ٦ كيلو مترات بمنطقة البوطي بالواحات البحرية، عثرت بعثة المجلس الأعلى للآثار في مصر على جبانة ضخمة للمومياوات تضم بداخلها ٢٠٠ مومياء كاملة مطلية بالذهب.

وقد صرح الدكتور جاب الله علي جاب الله أمين المجلس الأعلى للآثار أن تاريخ هذه المومياوات يرجع إلى بداية العصر اليوناني الروماني (٣٠٠عام ق.م)، وأضاف أن هذه البعثة بدأت أعمالها في هذا الموقع منذ ٤ سنوات، وأن هذه المومياوات المكتشفة وجدت داخل ٤ مقابر، وداخل كل قبر ٥٠ مومياء، وتوقع أن يصل عدد المومياوات في هذا الموقع إلى ١٠ آلاف مومياء.

وصرح الدكتور زاهي حواس مدير آثار الجيزة ورئيس البعثة بأن هذه المقابر كانت تحتوي على أشياء أخرى غير المومياوات مثل قطع خاصة بألعاب التسلية، وتمائم لآلهة متعددة، وعقود من الفيانس، وأحجار كريمة، وغير ذلك من الآثار، وقد نقلت المومياوات إلى منطقة الأهرامات لإجراء الدراسات عليها.

الجمعان يفوز بجائزة نوما

فاز الفنان التشكيلي السوداني حسين جمعان بجائزة نوما الكبرى

بأكثر من خمسة آلاف شخص - في تشييع جثمان الفقيد حيث ووري في الثرى في مقابر العدل في مكة المكرمة، وقد تحولت جنازة العالم الجليل إلى تظاهرة علمية وحلقة واسعة جمعت المتفقين والمختلفين معه في الآراء.

تكريم نازك الملائكة رائدة الشعر الحر



نازك الملائكة

تحت عنوان «نازك الملائكة ٥٠ عاماً على حركة الشعر الحر»، تم الاحتفال في القاهرة مؤخراً بتكريم الشاعرة العراقية نازك الملائكة التي أثرت الواقع الشعري خلال رحلة من الإبداع استمرت خمسين عاماً، قدمت خلالها أكثر من عشرة دواوين، وعدداً من الكتب النظرية رسخت من خلالها لنمط جديد من الشعر العربي عُرف بالشعر الحديث (الحر).

وقد شهد المسرح الصغير بدار الأوبرا المصرية وقائع الاحتفال الذي حضره عدد كبير من المبدعين والنقاد والمثقفين وغابت عنه الشاعرة الكبيرة التي كانت موجودة في القاهرة وحالت ظروف مرضية دون حضورها.

أدار الحفل الناقد محمد سالم مناصفة مع الكاتبة العراقية بثينة الناصري، وأشاد الدكتور سلطان الشاوي «سفير الممثلية العراقية لدى جامعة الدول العربية» بهذه الاحتفالية ووصفها بأنها ترسيخ لمبدأ التواصل بين المبدعين العرب، وأشاد بالشاعرة

ودفاعها عن القومية العربية والآمال العربية المشتركة، وقد بدأت ذلك منذ خمسين عامًا يوم أن أنشدت الشاعرة قصيدة الكوليرا مؤازرةً شعب مصر في تلك النكبة عام ١٩٤٧م.

وتحدثت الكاتبة بثينة الناصري باسم المبدعين مشيدة بالدور الريادي الذي أدته الشاعرة المبدعة في تأصيل حركة الشعر الحر في الوطن العربي، ويكفيها فخرًا أنها أول امرأة تخوض حربًا في وجه الذين وقفوا ضد هذه التجربة، وقد ردت عليهم من خلال كتابها الجاد «قضايا الشعر المعاصر»، الصادر في بيروت عام ١٩٦٢م.

ثم تحدث عنها الناقد العراقي الدكتور علي الآلوسي، فوصفها بأنها «شاعرة الجميع»، وقد استطاعت أن تخرج بشعرها من النطاق الذاتي الضيق لتعبر عن القضايا الاجتماعية والإنسانية البارزة والمحورية خلال مسيرتها الممتدة.

أما الشاعر السوداني محمد مفتاح الفيتوري، فقد وصف الشاعرة بأنها «شاعرة العرب الكبرى في النصف الثاني من القرن العشرين»، وقال: إننا نحتفل اليوم مرتين: مرة بمرور خمسين عامًا على نجاح تجربة الشعر الحر، والاحتفال الثاني برائدة هذا النمط من الشعر.

ولام الدكتور عبدالقادر القط انشغال النقاد العرب عن دراسة شعر نازك الملائكة، عندما ركزوا جهدهم في معرفة الأسبقية التاريخية لحركة الشعر الحر، ووصف قصائد الشاعرة بأنها «ثورة مضمونية وليست مجرد ثورة شكلية».

وعن أسبقية كتابة الشعر الحر، قال الناقد الدكتور عزالدين إسماعيل: «ربما سبق البعض نازك في هذا المجال، ولكن الريادة لا تكون - على حسب قول الشاعرة نفسها - إلا بالاستجابة الكاملة من الشعراء في عموم أرجاء الوطن العربي، وهذا ما حدث فعلاً للشاعرة ←

لمسابقة رسوم الأطفال التي ينظمها المركز الثقافي الآسيوي - الباسفيكي لليونسكو ومقره اليابان، وقد تنافس في الفوز بهذه الجائزة ٦١٤ فنانًا من ٦٠ قطرًا في العالم.

الجابري يفوز بالجائزة المغاربية للثقافة والفكر


محمد عابد الجابري

ضمن احتفالات تونس باليوم الوطني للثقافة، منح الرئيس زين العابدين بن علي الجائزة المغاربية للثقافة والفكر، للمفكر المغربي محمد عابد الجابري «تقديرًا لأعماله المتميزة، وإسهاماته في الحركة الفكرية المعاصرة، ومعالجته للقضايا الحضارية الكبرى».

روسيا تحتفل بالمئة الثانية لبوشكين


بوشكين

صادف يوم الأحد ٢٢ صفر الماضي عام ١٤٢٠هـ (٦يونيو/حزيران عام ١٩٩٩م)، الذكرى المئوية الثانية لميلاد شاعر روسيا الأكبر ألكسندر بوشكين، وقد شهدت الساحة الحمراء في موسكو احتفالا كبيرًا بهذه المناسبة غنى فيه الإسباني بلاسيدو دومينغو، وحضره رئيس الوزراء، وبطريك روسيا ألكسي الثاني.

وقد عمت الاحتفالات كل أنحاء روسيا، وكان التلفزيون الوطني مستمرًا في تكثيف برامجه حول هذا الشاعر حتى حلول يوم ميلاده، وكذلك فعلت الصحف، وقد انهالت المؤلفات على دور النشر والمكتبات الروسية، وكلها مؤلفات بوشكين نفسه أو ما كتب عنه.

ويتمتع بوشكين بتقدير الشعب الروسي الذي يعده من أكبر وأعظم شعرائه، وقد حفظ الصغار منذ عمر السابعة أشعار بوشكين ليس لأنه جزء من المنهج الدراسي، ولكن لأنه سهل التناول، ويتسم بالوضوح والنزعة الإنسانية، وقد كتبت عنه الناقدة الروسية ليديا جينزبيرج: «قد نحب أي كاتب روسي آخر وقد لا نحبه، فهذه مسألة ذوق، أما بوشكين - كظاهرة - فهو ضرورة لنا. إن بوشكين عماد الثقافة الروسية، يحمل سوية الأواصر الماضية واللاحقة. أزيلوا هذا العماد فستنهار كل الأواصر».

إغلاق مكتبة «الوراق» وتصفيتها

أغلقت شركة «الوراق» للنشر مكتبتها المعروفة باسم «الوراق» الواقعة في منطقة همرسميث بلندن بعد أربع سنوات من افتتاحها؛ وذلك بعد تعرضها لأزمة مالية.

وقد أعلنت الشركة أنها كانت تهدف من وراء إنشاء هذه المكتبة إلى المساهمة في وصول الكتاب للقارئ بسعر معقول، وجعل المكتبة مركزاً وملتقى ثقافياً، إلا أن ارتفاع تكلفة الكتاب وتراجع الطلب عليه عرّضا الشركة لخسارة كبيرة، أجبرتها على الإغلاق والشروع في التصفية ابتداءً من ١٦/١/١٩٩٩م ولمدة ثلاثة أسابيع بحسم ٥٠٪.

جائزة جونكور الأدبية

حصلت الكاتبة الفرنسية المعاصرة الفير بريساك على جائزة «جونكور» الأدبية للرواية عن روايتها الأخيرة «الملائكة»، التي قامت بنشرها دار جراسيه.

وقد بدأت أكاديمية جونكور الفرنسية في الإعداد للترشيحات الخاصة بالجائزة التي ستمنح في شهر نوفمبر/تشرين الثاني القادم، ومن ضمن الذين رشحوا للفوز بهذه الجائزة هذه المرة الكاتب جاك بيير أمنت عن روايته «رجل الصمت» التي صدرت عن دار نشر «سوى»، والكاتب ألبير دي بريساك عن روايته «الملائكة» التي صدرت عن دار نشر «جراسيه»، إضافة إلى الكاتب نويل شاتليه عن روايته «أزهار الشمس» التي صدرت عن دار «ستوك».

وتحمل الجائزة اسم الشقيقين أدمون جونكور (١٨٢٢ - ١٨٩٦م)، وجول جونكور (١٨٣٠ - ١٨٧٠م) اللذين استطاعا رسم صورة دقيقة للمجتمع بجميع مشكلاته النفسية والطبيعية.

صاحب رواية (البؤس) يتعرض لحادث مروري


ستيفان كينغ

تعرض الكاتب الأمريكي ستيفان كينغ لحادث سير قرب منزله في مين (شمال شرق)، وقد نتج من ذلك إصابته بإصابات خطيرة.

وتقول الشرطة: إن الشاحنة الصغيرة التي دعست الكاتب لم تكن مسرعة، ولكن يبدو أن السائق فقد السيطرة عليها.

وأشارت شبكة التلفزيون الأمريكية (سي ان ان) إلى نجاح رواية الكاتب الأمريكي «البؤس» وتحويلها إلى فيلم، ونجاح نقله بطائرة مروحية بعد إصابته في الحادث.

ويصف الأطباء حالة الكاتب بأنها حرجة.

مؤتمر كبار الفلاسفة

افتتح فريدريكو مايور المدير العام لليونسكو في باريس المؤتمر الدولي لكبار العلماء الحائزين على جائزة نوبل، وذلك بمناسبة مرور قرن على تأسيسها على يد العالم السويدي ألفريد نوبل.

وقد شهد المؤتمر، الذي استمر من ٨ - ١٠ أبريل/نيسان الماضي، حضوراً مكثفاً، وقُدم فيه كثير من المداخلات، استهلها رينيه لدندار مستشار الرئيس الفرنسي جاك شيراك بمداخلة عنوانها «العلم

نازك الملائكة عندما نشرت ديوانها «شظايا ورماد»، بل منذ أن نشرت قصيدتها الكوليرا عام ١٩٤٧م».

ولدت نازك الملائكة في بغداد عام ١٩٢٣م من أسرة عشقت الشعر والأدب، فوالدها وأمها وأخوها وأخوالها جميعهم أدباء، وقد تخرجت نازك في دار المعلمين العالية عام ١٩٤٤م، ثم التحقت بمعهد الفنون الجميلة، وتخرجت في قسم الموسيقا (آلة عود) عام ١٩٤٩م، ثم درست اللغات اللاتينية، والإنجليزية، والفرنسية وآدابها وشعراءها، وسافرت إلى أمريكا لإكمال دراساتها العليا، فحصلت على درجة الماجستير من جامعة وسكنسن عام ١٩٥٩م عن الأدب المقارن.

وللشاعرة عدد من المؤلفات المطبوعة، ففي مجال الشعر، لها: «عاشقة الليل» (١٩٤٧م)، و«شظايا ورماد» (١٩٤٩م)، و«قرار الموجة» (١٩٥٧م)، و«شجرة القمر» (١٩٦٨م)، و«مأساة الحياة وأغنية للإنسان» (١٩٧٠م)، و«يغير ألوانه البحر» (١٩٧٠م)، و«للصلاة» (١٩٧٣م)، أما في مجال النقد فنجد: «قضايا الشعر المعاصر» (١٩٦٢م)، و«الشرفة الحمرا» (١٩٦٥م)، و«التجزيئية في المجتمع العربي» (١٩٧٤م)، و«سيكولوجية الشعر» (١٩٩٢م)، وصدرت لها أخيراً في القاهرة (١٩٧٧م) مجموعة قصصية بعنوان «الشمس التي وراء القمة».

الباحة تكرم المشري

أقام فرع جمعية الثقافة والفنون بالباحة مساء الإثنين ٣٠ صفر، ١٤ يونيو/حزيران ١٩٩٩م الماضي حفل تكريم للروائي والقاص عبدالعزيز المشري حضره لفيف من الأدباء والنقاد والإعلاميين، وقد أشاد الأستاذ عبدالناصر الكرت - مدير الجمعية - في


المشري

بداية الاحتفال بالقيادة الرشيدة التي أنشأت جائزة الدولة التقديرية لتكريم كل المبدعين في البلاد، مشيراً إلى أن فرع الجمعية أقام هذا الاحتفال بتوجيهات من صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب.

وأشاد الأستاذ قينان عبدالله الغامدي - الذي تحدث نيابة عن الضيوف - بسمو الفكرة لكونها تكرم «أحد أبرز فرسان القصة والرواية في الوطن العربي» الذي ارتقى بأدبه إلى مصاف العالمية، وتضمنت الكلمة أيضاً قصيدة شعبية.

وتواصل الاحتفال بمشاركة عدد من الشعراء بمجموعة من القصائد، ثم قدمت قراءات نقدية مختصرة في أعمال المشري، تحدث فيها أولاً الناقد الدكتور محمد صالح الشنطي، ثم الشاعر الأستاذ علي الدميني، وختم القراءات الدكتور معجب الزهراني، ثم فتح الباب للمداخلات التي شارك فيها عدد من الأدباء.

وفي الختام تحدث الأديب الروائي عبدالعزيز المشري باختصار عن تجربته الإبداعية، وأوضح أن هذا التكريم سوف يكون دافعاً له لمزيد من الإبداع.

وفي نهاية الحفل سلم الأستاذ أحمد بن منيف وكيل إمارة منطقة الباحة المساعد الذي رعى هذا الحفل نيابة عن صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن محمد بن سعود الهدايا والدروع للأستاذ عبدالعزيز المشري.

والمجتمع»، ثم قدم العالم موريس إليه، الحائز على جائزة نوبل في مجال الاقتصاد، مداخلة بعنوان «العولمة والبطالة ومستوجبات النزعة الإنسانية».

أما الفيلسوف جاك شينو، أستاذ التاريخ في جامعة السربون، فقد تحدث عن اختلال التوازن بين دول الشمال والجنوب، ودعا إلى تأسيس نظام عالمي جديد أكثر إنسانية وعدلاً من الناحية الاقتصادية والسياسية، ومع أهمية هذه التظاهرة الفكرية العالمية إلا أن التمثيل العربي فيها كان ضعيفاً.

مصيدة الفئران


أغاثا كريستي

أقيم في لندن مؤخراً مزاد علني لبيع النص الأصلي لرواية «مصيدة الفئران» للكاتبة البريطانية أغاثا كريستي، وهو غير النص الذي يعرض في أحد مسارح لندن منذ الخمسينيات.

فالنص الأصلي - الذي كتبته الكاتبة - يتضمن خمسة أشخاص إضافية ويختلف في بدايته عن النص المعروف الآن، وكان المخرج بيتر كوتس قد أدخل عام ١٩٤٧م بعض التغييرات على المشهد الأول للمسرحية بغرض زيادة عنصر التشويق عند المشاهدين، وكانت أغاثا قد كتبت هذه المسرحية بشكل قصة قصيرة لهيئة الإذاعة البريطانية، ولم تكن تتخيل أن يستمر عرض هذه المسرحية أكثر من ستة أشهر، لذلك تبرعت بدخلها لحفيدها مثيو بريتشارد الذي صار يقبض من ريع المسرحية مدة ٤٧ عاماً متواصلة.

عرضت المسرحية أكثر من ١٩٣٥٠ مرة خلال ٤٧ عاماً في ٤٤ بلداً، وشارك فيها ٣٠٥ ممثلين و ١٤٠ مخرجاً، محطمة بذلك كل الأرقام القياسية في العرض والزمن وعدد الأقطار وعدد الممثلين.

سيرة همنجواي من جديد


همنجواي

احتفالاً بمرور مئة عام على مولد الكاتب الروائي الأمريكي الشهير أرنست همنجواي (١٨٩٩-١٩٦١م)، صدر مؤخراً في باريس أحدث الكتب عن سيرته الذاتية للمؤلف جيروم شارني، وقد تعرض الكاتب لحياة الروائي التي كانت ملأى بالمغامرات.

ويذكر أن الروائي الراحل شهد الحرب العالمية الأولى مما كان لها أثر واضح فيه، وقد تناول الحرب في أكثر من عمل روائي مثل روايته الشهيرة «لمن تقرع الأجراس».

نال الكاتب جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٥٤م أي قبل وفاته بسبع سنوات، وعدّ النقاد «بزوغ الشمس»، و«العجوز والبحر» من أشهر أعماله.

آرثر ميلر في مهرجان «توني»


آرثر ميلر

حصدت مسرحية «موت بائع متجول» جوائز مهرجان «توني» رقم ٢١ للمسرح بنيويورك، وذلك بفوزها بأربع جوائز من جوائز المهرجان، وهي جوائز إعادة والإخراج والتمثيل والتقنية. والمعروف أن مسرحية «موت بائع متجول» ألفها الكاتب الروائي الشهير آرثر ميلر منذ خمسين عاماً.

وقد أشاد الممثل بريان دينيهي (٦٠عاماً) - الذي نال جائزة أفضل ممثل مسرحي - خلال تلقيه جائزته - بآرثر ميلر بقوله: إنه «رجل ساعدنا منذ أكثر من ٦٠ عاماً على أن نفهم ذاتنا»، وقد اعترف بصعوبة الدور الذي قام به في المسرحية مما اضطره إلى زيارة المستشفى بعد إصابته بدوار وإعياء، وقال مداعباً الحضور في كلمة الشكر: «لولاكم يا أصدقاء مازرت طبيب القلب».

وقد مُنح الروائي الكبير - الذي يبلغ من العمر ٨٣ عاماً - جائزة فخرية لمجمل أعماله، وقال مازحاً: «أن أكون مازلت في هذا العالم لأتلقى جائزة فهذا أمر ممتع في حد ذاته».

وهناك مسرحيات أخرى نالت الإعجاب والتقدير والجوائز مثل مسرحية «آني، احضري مسدسك»، حيث منحت جائزة أفضل مسرحية موسيقية، وحصلت مسرحية «بحيرة البجع» على ثلاث جوائز وغير ذلك من المسرحيات والجوائز.

وقد حضر هذه التظاهرة الفنية الرائعة قرابة ٨٠٠ من المسرحيين والنقاد، وبُثت حفلة توزيع الجوائز عبر شاشات التلفزيون إلى ما يقرب من سبعة ملايين مشاهد.

مئوية بورخيس في باريس


بورخيس

بمناسبة مرور مئة عام على ميلاد الكاتب والشاعر الأرجنتيني بورخيس، صدر في باريس الجزء الثاني من أعماله الكاملة عن دار «غاليمار»، التي أصدرت الجزء الأول من هذه الأعمال من قبل، ويقع هذا الجزء في ١٥٠٠ صفحة، والمادة الرئيسة فيه «مئة رسالة»، تغطي فترة شباب الشاعر (١٩٢٠-١٩٢٦م).

وقد أقيم بهذه المناسبة معرض كبير نظمته المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة في باريس، وأشرفت عليه أرملة الكاتب ماريا كوداما التي حضرت من الأرجنتين خصوصاً لهذه المهمة. وقد اشتمل المعرض على صور فوتوغرافية ومخطوطات وميداليات وبعض الأشياء التي تخص الكاتب الراحل.

وفي إطار هذا التكريم للأديب المبدع عبدالعزيز المشري، أصدر أصدقاء الكاتب كتاباً بعنوان «ابن السروي وذاكرة القرى»، جمعت مادته من الجرائد والمجلات وهو قراءات وشهادات وحوار مع المشري.

ويقع الكتاب في ٤٢٨ صفحة ويحتوي على عدد من الموضوعات التي تتحدث عن عبدالعزيز المشري، فقد جاء في الافتتاح حوار معه، ثم قراءات، ومجموعة قصصه: «موت على الماء»، و«الوسمية»، و«أسفار السروي»، و«بوح السنابل»، و«الزهور تبحث عن آنية»، و«الغيوم»، و«منابع الشجر»، و«الحصون»، و«استراحة»، وريح الكادي، و«أحوال الديار»، و«مكاشفات السيف والوردة»، و«صالحة»، و«جاردينيا».

أورد الكتاب بعد ذلك شهادات بعض الأدباء العرب في حق الأديب المبدع عبدالعزيز المشري، وكان من بينهم صنع الله إبراهيم، وفريدة النقاش، ومحمد قطب، وآخرون.

وخُتم الكتاب بتصنيف (ببليوجرافيا) شمل مؤلفات الكاتب التي بلغت ١٣ كتاباً، و٨٤ دراسة نقدية، و٢٧ لقاءً ومقابلة صحفية، وأخيراً المقالات وعددها ٨ مقالات.

تكريم الشاعر الكويتي أحمد السقاف


أحمد السقاف

أقامت رابطة الأدباء الكويتية حفل تكريم للأديب والشاعر المعروف أحمد

السقاف، وقد تحدث في الحفل عدد كبير من الشعراء والأدباء من بينهم كريمتاه هيفاء وفارعة.

أحمد خلف الذي تحدث نيابة عن أخيه عبدالله خلف الأمين العام للرابطة، وصف السقاف بأنه أحد رموز الثقافة، وأحد المؤسسين للحركة الأدبية الحديثة في الكويت والبلاد العربية وإليه يرجع الفضل في تأسيس (مجلة العربي) التي كانت وما زالت - كما أراد لها أن تكون - رسالة الكويت إلى العالم.

أما الأديبة الكويتية ليلى العثمان فقد كانت تصر على أن يكتب هذا الأديب مذكراته لكون حياة هذا الأديب قد ارتبطت بوطن اسمه الكويت «وكان أحمد السقاف واحداً من الرجال الذين شهدوا وقائعه التاريخية والسياسية والعلمية والثقافية»، وامتدحت فيه حبه وتعصبه الشديد للغة العربية.

ووصفه يعقوب عبدالعزيز الرشيد بأنه أحد رواد الكلمة والأدب والدبلوماسية والصحافة في الكويت منذ خمسين عاماً ومازال، ثم ألقت الشاعرة نجمة إدريس قصيدة بعنوان «حين يجيء».

وأشاد د. خليفة الوقيان بحب السقاف لأمته العربية ودفاعه عن وحدتها مبيناً أن ذلك كان ديدنه في كل كتاباته، وأشاد أيضاً بإسهامه في نهضة الكويت الأدبية مشيراً إلى إسهامه - مع زميله المرحوم عبدالحميد الصانع - في إصدار أول صحيفة تطبع وتصدر في الكويت هي صحيفة (كاظمة) التي أنشأها عام ١٩٤٨م.

وشاركت ابنته هيفاء حفل تكريم أبيها بقصيدة بعنوان «إلى والدي» أعقبتها أختها فارعة التي تحدثت عن أبيها كأب ومرب ووصفته بأنه متميز في كل شيء.

وكان الختام قصيدة طويلة من الأستاذ السقاف نفسه إلى ضيوف الحفل بعنوان (ياصحابي).

الاحتفال بمئوية مبدع «الدانوب الأزرق»



شتراوس

احتفلت فيينا في ٣ يونيو/حزيران الماضي بالذكرى المئوية لوفاة يوهان شتراوس عبقري موسيقا الفالس وأحد عمالقة الموسيقا النمساوية الذي أبدع فالس «الدانوب الأزرق»، الذي أصبح السلام الوطني غير الرسمي للنمسا.

ويوهان شتراوس المولود في عام ١٨٤٥م هو واحد من أسرة شتراوس التي سيطرت على الموسيقا في فيينا خلال القرن التاسع عشر، ويعد هذا الموسيقي العبقري أحد معالم فيينا حيث يوجد له تمثال ذهبي في قلب متنزه فيينا الرئيس وهو يحمل آلة الكمان.

ما وراء الصورة

تحت عنوان «ماوراء الصورة»، أقيم في المتحف الوطني الأردني للفنون الجميلة بعمان معرض مشترك للفنانين التشكيليين، السعودي فيصل السمرة والسوداني حسين الشريف والفنانة الأردنية نوال العبدالله، وقد قامت الأميرة عائشة بنت الحسين شقيقة العاهل الأردني الملك عبدالله بن الحسين بافتتاح المعرض.

باريس تحتفل بذكرى الشاعر نزار قباني



نزار قباني

أقيمت في معهد العالم العربي في باريس أمسية تكريم للشاعر الراحل نزار قباني، حضرها عدد من الشخصيات تتقدمهم ابنته هدباء التي جاءت من لندن خصوصاً لحضور هذه الأمسية.

قدمت للأمسية الكاتبة والشاعرة اللبنانية فينوس خوري، وشارك بالحديث فيها عن الشاعر الراحل عدد من الشعراء، من بينهم الشاعر المصري أحمد عبدالمعطي حجاز ي، ومحمد فرحات.

كما أُلقي في الاحتفال عدد من القصائد باللغة العربية، وبعض النصوص الشعرية المترجمة، وتخللت هذه القراءات فواصل موسيقية وغنائية قدمت خلالها المطربة المغربية نزيهة بعض الأغاني من كلمات الشاعر الراحل.

عبدالجبار، طالب عبدالرحمن / نحو تقويم جديد للكتابة العربية ـ قطر: الدوحة، المحرم ١٤٢٠هـ، ١٤٧ص.



نحو تقويم جديد
للكتابة العربية

الكتاب محاولة للتصدي للذين يدعون إلى ضرورة استبدال الحروف الأجنبية بالحروف العربية، وهذا الأمر يعني عزل الأمة عن دينها وتراثها وتاريخها، وحجتهم في ذلك أن الكتابة العربية رسمها وحروفها أصعب قياساً بالكتابة بالحروف اللاتينية.

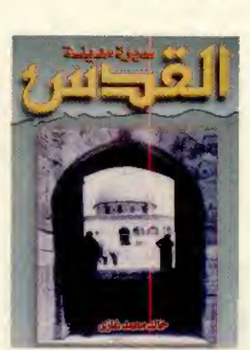
يحاول الكاتب الرد على هذه الدعاوى بالإجابة عن سؤالين:

ـ هل الكتابة العربية معيبة فعلاً قياساً بالكتابات الأخرى؟ وإذا كان هناك عيوب، فهل تنفرد الكتابة العربية بها؟

ـ ما مكانة الكتابة العربية موازنة بالكتابات الموجودة؟

يقع الكتاب في ثلاثة فصول وحاشية، يتناول الفصل الأول بعض مشكلات الكتابة ونظمها، واختص الفصل الثاني بالرد على المآخذ المنسوبة إلى الكتابة العربية، ثم جاء الباب الثالث عن مزايا الكتابة العربية ومكانتها، ثم تحدث في الحاشية عن صنيع مصطفى كمال وهدفه من إلغاء الكتابة العربية وإحلال الحروف اللاتينية بدلها.

احتوى الكتاب على بعض الملاحق لأنواع الكتابات السريانية وتنوع أشكال حروفها وحركاتها.



غازي، خالد محمد / القدس ... سيرة مدينة: دراسة وشهادات ـ المنيا: دار الهدى للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م، ٤٠٠ص.

يستعرض هذا الكتاب تاريخ هذه المدينة المقدسة منذ أكثر من ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد متناولاً هذا التاريخ من جميع جوانبه، فيتحدث عن المقدسات الدينية في القدس والتي تشمل المقدسات اليهودية، والآثار المسيحية، والمقدسات الإسلامية، ثم يتناول حضارة المستوطنات وإرهاب التهويد، فيفصّل الحديث عن المستوطنات التي تهدف إلى تقويض الهوية الدينية الإسلامية، ثم تحدث عن التهويد والذي قصد منه طمس المعالم العربية والتاريخية والدينية لهذه المدينة المقدسة.

وتحت عنوان «شهادات وآراء» استضاف المؤلف عدداً كبيراً من علماء الدين الإسلامي والمسيحي ورؤساء الجامعات، وأساتذة التاريخ والخبراء والمفكرين وأساتذة القانون والسياسيين، عرباً وأجانب، داخل الوطن العربي وخارجه، واستكتبهم تحت عدة محاور، المحور الأول: القدس عربية رغم الأطماع الإسرائيلية، وقد كتب عن هذا الموضوع الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، والشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر الراحل، وقداسة البابا شنودة بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقصية، والدكتور برنارد سابيلا الأستاذ بجامعة بيت لحم وغيرهم، أما المحور الثاني فقد جاء عن: مؤامرات التهويد وموقف القانون الدولي، كتب عنه الدكتور إدوار سعيد الأستاذ بجامعة كولومبيا الأمريكية، والشيخ عكرمة صبري إمام ومفتي القدس، والدكتور عبدالمنعم سعيد مدير مركز الدراسات الإستراتيجية بالأهرام وغيرهم، والمحور الثالث كان عن مستقبل السلام .. مستقبل المفاوضات وعن هذا الموضوع تحدث فاروق القدومي وزير خارجية فلسطين، وهاني رسلان الباحث والمحلل السياسي، والسفير سعيد كمال رئيس إدارة فلسطين بالجامعة العربية وغيرهم.

وفي خاتمة الكتاب جاءت الملاحق والتي احتوت على ١٩ خريطة توضح معالم هذه المدينة المقدسة منذ أقدم العصور وحتى الآن.

مينيرو.م (وآخرون) / الجراحة التنظيرية وآفاق القرن الحادي والعشرين ـ دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر، ٥٤١ص.

صدر عن دار الفكر في دمشق ـ باللغة العربية ـ كتاب الجراحة التنظيرية. وكان هذا الكتاب قد صدر من قبل عن دار ماسون باللغة الإيطالية عام ١٩٩٣م، ثم ترجم إلى اللغة الإنجليزية عام ١٩٩٤م، وترجم مرة أخرى إلى اللغة الإسبانية عام ١٩٩٦م.

شارك في تأليف هذا الكتاب نخبة من كبار اختصاصيي علم الجراحة في مختلف بلدان العالم، وناقشوا تقنية هذه المادة من جميع الجوانب، وكتبوا عنها كثيراً من الأبحاث التي جاءت تحت عناوين كثيرة: الجراحة التنظيرية هل هي تطور للفلسفة الجراحية؛ والتنظير الباطني، والأجهزة والأدوات في الجراحة التنظيرية، والتخدير، وجراحة البدانة بالتنظير، ومعالجة الفتوق الأربية واندحاقات جدار البطن، وجراحة الطرق الصفراوية وغير ذلك من الدراسات.

قدم لهذا الكتاب الأستاذ جورجيو دي ماتيو مدير قسم السريريات الثالثة في جامعة لاسبينسا ـ روما، رئيس مجلس الإدارة في الجمعية الإيطالية للجراحين.

الغنيمي، رياض / الثروة والفقر في الشرق الأوسط ـ روتنج نيويورك ـ لندن، ١٩٩٨م، ٢٩٨ص.

مؤلف هذا الكتاب باحث مساعد في جامعة أكسفورد وأستاذ في كلية الاقتصاد في الجامعة الأمريكية في القاهرة، وكان يشغل وظيفة مدير قسم الموارد الإنسانية في منظمة الزراعة والتغذية العالمية التابعة للأمم المتحدة ومقرها روما.

يناقش هذا الكتاب الأسباب التي أدت إلى استمرار الفقر وعدم المساواة في منطقة الشرق الأوسط، ويناقش أيضاً المشكلات المتعلقة بتوزيع الثروة والمداخيل وفرص العمل.

يحاول المؤلف فهم ظواهر (الوفرة)، و(الندرة)، ثم إبراز دور المنظمات العالمية (غير الحكومية) وإسهامها في التصدي لهذه المشكلات.

الكتاب ينقسم قسمين: يبحث القسم الأول في (جذور) الثروة والفقر في الشرق الأوسط، ويناقش القسم الثاني الخيارات السياسية التي لجأت إليها بعض الدول لمواجهة هذه المشكلات.

يربط المؤلف في تحليلاته لهذه المشكلات بين العوامل الاقتصادية والسياسية والتاريخية والاجتماعية، كما يشير إلى تأثير الثقافة والاعتقاد الديني ودورهما الحاسم في هذه المشكلات.

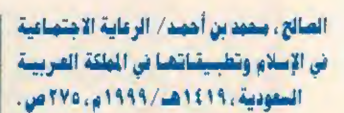


السالم، فوزية نويش/ النواخذة ـ دمشق: دار مدى للثقافة والنشر، ١٩٩٨م، ٢٥٤ص.



الكتاب مهدى إلى «أسطورة الخليج» النواخذة، وهم الربابنة وأصحاب السفن الشراعية التي كانت تجوب المحيطات والبحار في الزمن الماضي، خرجت فيه الكاتبة عن النهج التقليدي في الكتابة، واستعملت بعض الكلمات الدارجة، وشرحت ما رأت أنها قد تشكل على فهم القارئ في الهامش في آخر كل صفحة.

قدم في بداية الكتاب الناقد إدوار الخراط دراسة نقدية لهذا العمل واصفًا إياه بأنه «مرثية ملحمية تمجّد الماضي وتنعاه».



الصالح، محمد بن أحمد/ الرعاية الاجتماعية في الإسلام وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ٢٧٥ص.

يتناول المؤلف في هذا الكتاب الأسس التي تقوم عليها الرعاية الاجتماعية في الإسلام، شارحًا مصادر تمويلها التي حددتها الشريعة الإسلامية، ومتناولاً بالعرض والتحليل بعض الأمثلة من صور الرعاية الاجتماعية في المملكة العربية السعودية.

ويقع الكتاب في خمسة فصول وخاتمة، اختص الفصل الأول بالحديث عن الرعاية الاجتماعية في الإسلام، وعالج الفصل الثاني مصادر تمويل الرعاية الاجتماعية في الإسلام، أما الفصل الثالث فقد كان عن مجالات الرعاية الاجتماعية في الإسلام، وخصص الفصل الرابع للحديث عن الرعاية الاجتماعية في المملكة العربية السعودية، وجاء الفصل الخامس، وهو آخر فصول الكتاب، عن دور الجمعيات والمؤسسات الخيرية في تحقيق الرعاية الاجتماعية.

وفي الخاتمة قدم المؤلف ملخصًا لموضوع الكتاب.



الصولي، أبوبكر محمد بن يحيى (٢٦٠ ـ ٣٣٥) كتاب الأوراق: تحقيق أنس خالدوف ـ سانت بطرسبورج: قسم الاستشراق بجامعة بطرسبورج، ١٩٨٨م، ٢٨٥ص.

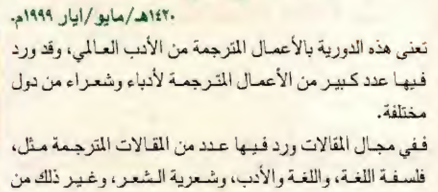
الكتاب مخطوطة محققة، وقد جاءت محتوية على أخبار بعض خلفاء دولة بني العباس في عهد متأخر، مثل الخليفة الواثق، والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي وغيرهم.

يؤرخ الكتاب فترات حكم هؤلاء الخلفاء من خلال سرد بعض الأخبار والوقائع والنوادر التي حدثت في عهودهم.

وضع المحقق في آخر الكتاب فهرسًا بالأعلام، وفهرسًا بالقوافي، وثالثًا بالأماكن والمباني، كما أورد أيضًا معلومات عن المخطوطة المحققة.



نوافذ، النادي الأدبي الثقافي بجدة، العدد٨، صفر ١٤٢٠هـ/مايو/أيار ١٩٩٩م.



تعنى هذه الدورية بالأعمال المترجمة من الأدب العالمي، وقد ورد فيها عدد كبير من الأعمال المترجمة لأدباء وشعراء من دول مختلفة.

ففي مجال المقالات ورد فيها عدد من المقالات المترجمة مثل، فلسفة اللغة، واللغة والأدب، وشعرية الشعر، وغير ذلك من المقالات.

وفي مجال الشعر، ورد فيها عدد من القصائد المترجمة لشعراء من الهند والصين وإيطاليا وأستراليا وفرنسا وإسبانيا.

ثم كانت القصة القصيرة التي جاءت من روسيا وأمريكا وألمانيا.



النص الجديد، مجلة ثقافية تصدر عن كتاب النص الجديد في المملكة العربية السعودية، العدد الثامن، ديسمبر ١٩٩٨م/١٤١٩هـ

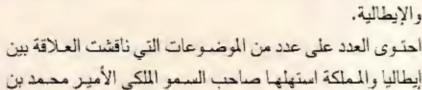
حفل العدد بعدد من الموضوعات التي جاءت تحت عناوين مختلفة كان أولها: «ملف العولمة»، الذي ناقش عددًا من القضايا المرتبطة بهذا المصطلح، ثم «مفازات» (١)، وقد خُصصت للشعر، فورد فيها عدد من القصائد لمجموعة من الشعراء. تلا ذلك «إضاءة» وقد جاءت عن نصف قرن من مسيرة الأدب في المملكة العربية السعودية، ثم «مدائن»، وقد ورد فيها عدد من الموضوعات من بينها الحوار بين تيارات الثقافة العربية المعاصرة. ومفازات (٢)، وهي عن أدب القصة القصيرة، ثم «شخصية وحوار» وقد جاءت حديثًا عن كتاب الأستاذ عبدالكريم الجهيمان «ذكريات باريس»، وأخيرًا «مراجعات» وهي قراءات في بعض دواوين الشعر.



الأحياء، رمضان ١٤١٩هـ/يناير/كانون الثاني ١٩٩٩م ـ العدد ١٣.

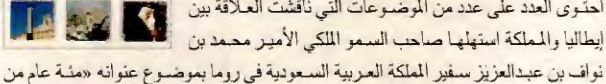
مجلة إسلامية جامعة، نصف سنوية تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية، تصدر، عن رابطة علماء المغرب، وتضمن هذا العدد ١٣ موضوعًا منها: موقع المقاصد الشرعية في المنهجين الفقهي والتطبيقي عند الأصوليين للدكتور عبدالرحمن العضراوي، وأم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ودورها في رواية الحديث الشريف للدكتور محمد عنان، ثم النقد الأدبي في مقدمة ابن خلدون للدكتور عبد الرحيم العليمي، والترويح: دوافعه ـ ضوابطه ـ تطبيقاته في العصر النبوي للدكتور عبدالله بن ناصر، والتحكيم في الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي للدكتور عبدالرحيم بن سلامة، والشيخ محمد المكي الناصري مفسرًا للدكتور عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس، وغير ذلك من المواضيع التي تناقش المسائل الفقهية والفكرية في الإسلام.

أهلا في إيطاليا، المجلة الإيطالية في المملكة العربية السعودية، عدد رقم١٣، أبريل/نيسان ١٩٩٩م.



خصصت المجلة هذا العدد للمشاركة في الاحتفال بالذكرى المئوية لتوحيد المملكة العربية السعودية فجاء العدد باللغتين العربية والإيطالية.

احتوى العدد على عدد من الموضوعات التي ناقشت العلاقة بين إيطاليا والمملكة استهلها صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن نواف بن عبدالعزيز سفير المملكة العربية السعودية في روما بموضوع عنوانه «مئة عام من حياة بلد صديق: المملكة العربية السعودية»، وختمها العلامة الشيخ/ حمد الجاسر متحدثًا عن «شيخ المستشرقين جابر بيلي ١٣٢٢ ـ ١٤١٧هـ».



هذا بالإضافة إلى مساهمات بعض الكتاب الإيطاليين التي جاءت تحت عناوين مختلفة، منها: إيطاليا في المتحف الجديد للطيران في الرياض، والقنصلية الإيطالية بجدة، والفن الإسلامي في إيطاليا، وغير ذلك من الموضوعات ذات العلاقة بتاريخ الإسلام في إيطاليا، وعلاقة إيطاليا بالمملكة العربية السعودية.

نسخ مقامات الحريري: احتفاء بالصور والرسوم


مجلس علم في إحدى المكتبات العامة

حازت مقامات الحريري على اهتمام واضح في تاريخ الفن العربي الإسلامي، فاعتنى جملة من الرسامين - منذ القرن السادس الهجري - بتحلية نسخ منها بالصور والرسوم الملونة التي تعبر عن محتوى النص، وتعكس واقع الحياة في عصور إسلامية مختلفة في مجال العمارة والأثاث والملابس والأزياء ونمط الاحتفالات والعادات والتقاليد.

وأهم نسخة مصورة من المقامات هي تلك التي زوقها الفنان يحيى بن محمود الواسطي، يعود تاريخها إلى عام ٦٣٤هـ (١٢٣٧م) تضم مئة صورة توضح مجرى الأحداث في المقامات، وهي محفوظة حاليًا في المكتبة الأهلية في باريس، من أهمها لوحة تصور موكب الحجيج وهو في طريقه إلى مكة المكرمة، وثانية لكتاب حيث نجد المعلم يجلس على دكة مرتفعة وأمامه مجموعة من الصبية يقوم واحد منهم بالترويح على المعلم بمروحة معلقة في جدار، ويظهر المعلم وهو يتبادل الحديث مع شخص آخر، وأخرى تصور مجلس علم في إحدى المكتبات العامة في البصرة يظهر فيها مجموعة أشخاص أمام أحدهم كتاب مفتوح يقرأ فيه وقد أنصت من حوله إلى قراءته وتظهر خلف الجلوس خزائن الكتب وقد رتبت بداخلها الكتب بعضها فوق بعض وقد درس ثروت عكاشة نسخة الواسطي دراسة فنية في كتاب له بعنوان (فن الواسطي من خلال مقامات


موكب الحجيج

الحريري أثر إسلامي مصور) نشرته دار المعارف بمصر عام ١٩٧٤م.

ومن النسخ الأخرى للمقامات التي تحفل بالصور والرسوم نسخة في المكتبة الأهلية في باريس أيضًا تعود إلى القرن السابع الهجري، ونسخة محفوظة في المتحف الآسيوي في بطرسبرج (لينينغراد) في روسيا الاتحادية، ونسخة في المكتبة الوطنية في فيينا بالنمسا نشر نماذج من لوحاتها إيمز في كتابه عن الفن الإسلامي، ويذكر أحمد تيمور باشا أنه شاهد نسخة مصورة من المقامات عند أحمد باشا الضي من سراة مصر.

وقد اكتشفت في الآونة الأخيرة نسخة مصورة من المقامات في اليمن، نشر دراسة مطولة عنها سمير مقبل العريقي من موظفي الهيئة العامة للآثار والمتاحف في جمهورية اليمن، وهي تقع في ٢٣٥ ورقة تحتوي على ست وعشرين صورة، نسخها إلى المقامة الرابعة عشرة، وزوقها بالصور الملونة أحمد بن أحمد الدغيش، وأكمل النسخ دون تزويق ابنه، وتمثل هذه النسخة اتجاهات المدرسة اليمنية في التصوير، وكما يقول العريقي فإنه استطاع تقديم صورة عامة عن الملابس والأواني والأدوات في الفترة التي عاش فيها، كما اعتنى بتصوير مجالس الولاة والقضاة، وأهم ما يميز أسلوبه عدم استخدام الهالة الموجودة في رسوم الواسطي، ويعد اكتشاف النسخة اليمنية من أهم الاكتشافات الفنية وأبرزها لأنها تقدم لنا معالم مدرسة فنية تشكيلية عربية من داخل شبه الجزيرة العربية نفسها.





من النسخة المصورة للمقامات في اليمن: لوحات المقامة الكوفية